تفسير الفخر الرازي

المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب

للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشتهر بخطيب الري
تغمده الله برحمته
٥٤٤ — ٦٠٤ هـ

✽ ✽ ✽ ✽ ✽

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

الجزء الحادي والعشرون

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

(٣٥) سورة فاطر مكية وآياتها خمس وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا ﴾ قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة في أكثر الأمر، ونعم الله قسمان: عاجلة وآجلة، والعاجلة وجود وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى، وقوله تعالى (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإيجاد، واستدللنا عليه بقوله تعالى (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا) وقوله في الكهف (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإبقاء، فإن البقاء والإصلاح بالشرع والكتاب، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم، فكان يفضي ذلك إلى التقاتل والتفاني، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل، وفي قوله في سورة سبأ (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة) إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالحشر، واستدللنا عليه بقوله (يعلم ما يلج في الأرض) من الأجسام (وما يخرج منها وما ينزل من السماء) من الأرواح (وما يعرج فيها) وقوله عن الكافرين (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة. قل بلى وربي) وههنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة، ويدل عليه قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أي يجعلهم رسلا يتلقون عباد الله، كما قال تعالى (وتتلقاهم الملائكة) وعلى هذا فقوله تعالى (فاطر السموات) يحتمل وجهين (الأول) معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس (والثاني) (فاطر السموات والأرض) أي شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ويدل عليه قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) فإن في ذلك اليوم تكون الملائكة رسلا، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأن قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمنت، كما قال تعالى عنهم (وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش) فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بإرسال الملائكة إليهم

أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ

مبشرين ، ويبين أنه يفتح لهم أبواب الرحمة .

قوله تعالى : ﴿ أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ أقل ما يكون لذي الجناح أن يكون له جناحان وما بعدهما زيادة ، وقال قوم فيه إن الجناح إشارة إلى الجهة ، وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شيء ، وكل شيء فهو تحت قدرته ونعمته ، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما أخذوه بإذن الله ، كما قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقوله (علمه شديد القوى) وقال تعالى في حقهم (فالمدبرات أمراً) فهما جناحان ، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة ، وفيهم من يفعله لا بواسطة ، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات ، ومنهم من له أربع جهات وأكثر ، والظاهر ما ذكرناه أولا وهو الذي عليه إطباق المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ من المفسرين من خصصه وقال المراد الوجه الحسن ، ومنهم من قال الصوت الحسن ، ومنهم من قال كل وصف محمود ، والأولى أن يعمم ، ويقال الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء .

قوله تعالى : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ يقرر قوله (يزيد في الخلق ما يشاء) .

قوله تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾

لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الأمر ، وقال ما يفتح الله للناس ، يعني إن رحم فلا مانع له ، وإن لم يرحم فلا باعث له عليها ، وفي الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه (أحدها) التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة في الذكر ، وهو وإن كان ضعيفاً لكنه وجه من وجوه الفضل (وثانيها) هو أنه أنث الكناية في الأول فقال (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائداً إلى ما ، ولكن قال تعالى (لها) ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهي واصلة إلى من رحمه ، وقال عند الإمساك (وما يمسك فلا مرسل له) بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة ، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذي لا يرسل هو غير الرحمة فإن قوله تعالى (وما يمسك) عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة) فإنه مخصص مبين (وثالثها) قوله (من بعده) أي من بعد الله ، فاستثنى هنا وقال لا مرسل له إلا الله فإنه مرسل له ، وعند الإمساك

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾

الإمساك قال لا ممسك لها ، ولم يقل غير الله لأن الرحمة إذا جاءت لا ترفع فإن من رحمه الله في الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره ، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الإيمان .

قوله تعالى: ﴿وهو العزيز﴾ أي كامل القدرة ﴿الحكيم﴾ أي كامل العلم .

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم﴾ لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال فقال (اذكروا نعمة الله) وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء .

قوله تعالى: ﴿هل من خالق غير الله﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء .

قوله تعالى: ﴿يرزقكم من السماء والأرض﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء ، ثم بين أنه ﴿لا إله إلا هو﴾ نظراً إلى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شيء قدير نافذ الإرادة في كل شيء ، ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ، ونظراً إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو .

قوله تعالى: ﴿فأنى تؤفكون﴾ أي كيف تصرفون عن هذا الظاهر ، فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت .

ثم لما بين الأصل (الأول) وهو التوحيد ذكر الأصل (الثاني) وهو الرسالة فقال تعالى ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾ .

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذب في العذاب ، والمكذب له الثواب بقوله تعالى ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ ثم بين الأصل (الثالث) وهو الحشر .

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

أي الشيطان ، وقد ذكرنا ما فيه من المعنى اللطيف في تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول : المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأي فيغتر بأدنى شيء ، وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن إذا جاءه غار وزين له ذلك الشيء وهون عليه مفاسده ، وبين له منافعه يغتر لما فيها من اللذة مع ما ينضم إليه من دعاء ذلك الغار إليه ، وقد يكون قوي الجأش غزير العقل فلا يغتر ولا يغر فقال الله تعالى (لا تغرنكم الحياة الدنيا) إشارة إلى الدرجة الأولى ، وقال (ولا يغرنكم بالله الغرور) إشارة إلى الثانية ليكون واقعاً في الدرجة الثالثة وهي العليا فلا يغر ولا يغتر .

قوله تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ لما قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار ، وقال (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) ولا تسمعوا قوله ، وقوله (فاتخذوه عدواً) أي اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح .

قوله تعالى : ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن من يكون له عدو فله في أمره طريقان : (أحدهما) أن يعاديه مجازاة له على معاداته (والثاني) أن يذهب عداوته بإرضائه . فلما قال الله تعالى (إن الشيطان لكم عدواً) أمرهم بالعداوة وأشار إلى أن الطريق ليس إلا هذا ، وأما الطريق الآخر وهو الإرضاء فلا فائدة فيه لأنكم إذا رضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤديكم إلا إلى السعير .

واعلم أن من علم أن له عدواً لا مهرب له منه وجزم بذلك فإنه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر ، فكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان أن يهرب منه فإنه معه ، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه ، ويهزمه الشيطان بهزيمة الإنسان ، فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة .

ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله ، فقال :

﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد ﴾ فالمعادي للشيطان وإن كان في الحال في عذاب ظاهر وليس بشديد ، والإنسان إذا كان عاقلاً يختار العذاب المنقطع اليسير دفعاً للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى أن الإنسان إذا عرض في طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التي في الدنيا إلى النار التي في الآخرة دون نسبة الشوك إلى النار العاجلة .

قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ قد ذكر تفسيره مراراً ،

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار ، وذلك لأن الهواء قد يسكن ، وقد يتحرك ، وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين ، وقد يتحرك إلى اليسار ، وفي حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب ، وقد لا ينشئ ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى (والله الذي أرسل) بلفظ الماضي وقال (فتثير سحاباً) بصيغة المستقبل ، وذلك لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى في العدم لا زماناً ولا جزءاً من الزمان ، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة والتقدير كالإرسال ، ولما أسند فعل الإثارة إلى الريح وهو يؤلف في زمان قال (تثير) أي على هيئتها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (أرسل) إسناداً للفعل إلى الغائب وقال (فسقناه) بإسناد الفعل إلى المتكلم وكذلك في قوله (فأحيينا) وذلك لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال ، ثم لما عرف قال أنا الذي عرفتني سقت السحاب وأحييت الأرض ففي الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب ، وفي الثاني كان تذكيراً بالنعمة فإن كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء وقوله (فسقناه وأحيينا) بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرناه من الفرق بين قوله (أرسل) وبين قوله (تثير) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما وجه التشبيه بقوله (كذلك النشور) فيه وجوه (أحدها) أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة (وثانيها) كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء (وثالثها) كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شيء آية تدل على أنه واحد ، فنقول لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض ، وذكر من الأمور السماوية الأرواح وإرسالها بقوله (جاعل الملائكة رسلاً) ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله (والله الذي أرسل الرياح) .

قوله تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾

لما بين برهان الإيمان أشار إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم ، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون إن هذه آلهتنا ، ثم إنهم كانوا يعتقدونها مع أنفسهم ، وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهي عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له ، فقال إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة ، فهي كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز ، ومن يتعزز عليه فهو الذليل وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال في هذه الآية (فلله العزة جميعاً) وقال في آية أخرى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فقوله (جميعاً) يدل على أن لا عزة لغيره فنقول قوله (فلله العزة) أي في الحقيقة وبالذات وقوله (ولرسوله) أي بواسطة القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول ، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطة النبي ﷺ ألا ترى قوله تعالى (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) تقرير لبيان العزة ، وذلك لأن الكفار كانوا يقولون نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده ، لأن البعد من الملك ذلة ، فقال تعالى إن كنتم لا تصلون إليه ، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب ، فمن قبل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن رد كلامه في وجهه فهو ذليل ، وأما هذه الأصنام لا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها فكل أحد يعبدها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحاً رفعه إليه ، ومن عمل سيئاً رده عليه فالعزيز من الذي عمله لوجهه والذليل من يدفع الذي عمله في وجهه ، وأما هذه الأصنام فلا تعلم شيئاً فلا عزيز يرفع عندها ولا ذليل ، فلا عزة بعبادتها ، وذلك لأن ذلة العبد دلالة الخيبة ومن كان معبوده وربه وإلهه حجارة أو خشباً ماذا يكون هو ! .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) وجوه (أحدها) كلمة لا إله إلا الله هي الطيبة (وثانيها) سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر طيب (ثالثها) هذه الكلمات الأربع وخامسة وهي تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم ، فهو إليه يصعد

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (والعمل الصالح يرفعه) وفي الهاء وجهان (أحدهما) هي عائدة إلى الكلم الطيب أي العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب وورد في الخبر « لا يقبل الله قولا بلا عمل » (وثانيهما) هي عائدة إلى العمل الصالح وعلى هذا في الفاعل الرافع وجهان (أحدهما) هو الكلم الطيب أي الكلم الطيب يرفع العمل الصالح . ويؤيده قوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) (وثانيهما) الرافع هو الله تعالى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما وجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثاني حيث يصعد الكلم

وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

بنفسه ويرفع العمل بغيره ، فنقول الكلام شريف ، فإن امتياز الإنسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى (ولقد كرمنا بني آدم) أي بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره ، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يمنع ومن دونه لا يجد الطريق إلا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة إن كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة ، وإن كان ظاهراً أمن في نفسه وحمه وأهله وحرمه في الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح ، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، (ووجه آخر) القلب هو الأصل وقد تقدم ما يدل عليه ، وقال النبي ﷺ « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » وما في القلب لا يظهر إلا باللسان وما في اللسان لا يتبين صدقه إلا بالفعل ، فالقول أقرب إلى القلب من الفعل ، ألا ترى أن الإنسان لا يتكلم بكلمة إلا عن قلب ، وأما الفعل قد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولأن النائم لا يخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو في أكثر الأمر لا يتكلم في نومه إلا نادراً ، لما ذكرنا إن الكلام بالقلب ولا كذلك العمل فالقول أشرف .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال الزمخشري المكر لا يتعدى فيم انتصاب السيئات ؟ وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيئات فهو وصف مصدر محذوف ، ويحتمل أن يقال استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته كما قال (الذين يعملون السيئات) وفي قوله (الذين يعملون السيئات) يحتمل ما ذكرناه أن يكون السيئات وصفاً لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيئات ، وعلى هذا فيكون هذا في مقابلة قوله (والعمل الصالح يرفعه) إشارة إلى بقائه وارتقائه (ومكر أولئك) أي العمل السيء (هو يبور) إشارة إلى فنائه .

قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾

قد ذكرنا مراراً أن الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها في عدد محصور منحصرة في قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس ، كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح شرع

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ

أجاج ، ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المتساويان ، ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة ، فإن اللحم الطري يوجد فيهما ، والحلية تؤخذ منهما ، ومن يوجد في المتشابهين اختلافاً ومن المختلفين اشتباهاً لا يكون إلا قادراً مختاراً . وقوله (وما يستوي البحران) إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أهل اللغة لا يقال في ماء البحر إذا كان فيه ملوحة مالح وإنما يقال له ملح ، وقد يذكر في بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحاً ، ويؤاخذ قائله به . وهو أصح مما يذهب إليه القوم وذلك لأن الماء العذب إذا ألقى فيه ملح حتى ملح لا يقال له إلا مالح ، وماء ملح يقال للماء الذي صار من أصل خلقته كذلك ، لأن المالح شيء فيه ملح ظاهر في الذوق ، والماء الملح ليس ماء وملحاً بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر في الذوق ، بخلاف ما هو من أصل خلقته كذلك ، فلما قال الفقيه الملح أجزاء أرضية سبخة يصير بها ماء البحر مالحاً راعى فيه الأصل فإنه جعله ماء جاوره ملح ، وأهل اللغة حيث قالوا في البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك من أصل الخلقة ، والأجاج المر . وقوله (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) من الطير والسمك وتستخرجون حلية تلبسونها من اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه مواخر) أي ماخرات تمخر البحر بالجريان أي تشق . وقوله (ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) يدل على ما ذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته .

قوله تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾

استدلال آخر باختلاف الأزمنة وقد ذكرناه مراراً ، وذكرنا أن قوله تعالى بعده (وسخر الشمس والقمر) جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسي الواقعة فوق الأرض وتحتها ، فإن في الصيف تمر الشمس على سمت الرؤوس في بعض البلاد المائلة في الآفاق ، وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الأرض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفي الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

تعالى (وسخر الشمس والقمر) يعني بسبب الاختلاف وإن كان ما ذكرتم ، لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته فهو الذي فعل ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ .

أي ذلك الذي فعل هذه الأشياء من فطر السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكاً والملك مخدوم بقدر ملكه ، فإذا كان له الملك كله فله العبادة كلها ، ثم بين ما ينافي صفة الإلهية ، وهو قوله (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) . (وفيه لطيفة) وهي أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف (أحدهما) أن الخلق بالقدرة والإرادة (والثاني) الملك واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس) ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهاً أي معبوداً ، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين (أحدهما) أنهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التي الأصنام على صورتها وطوالعها فقال لا ملك لهم ولا ملكهم الله شيئاً ولا ملكوا شيئاً (وثانيهما) أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئاً لملكه فإذا لم يملك قطميراً ما خلق قليلاً ولا كثيراً .

قوله تعالى : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

إبطالا لما كانوا يقولون إن في عبادة الأصنام عزة من حيث التقرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها ، والله لا يرى ولا يصل إليه أحد فقال هؤلاء لا يسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب فيسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة ، وقال هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا إنهم يجيبون لأن ذلك إنكار للحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع في المعقول فلا يمكن وقوعه في المحسوس به . ثم إنه تعالى قال (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) لما بين عدم النفع فيهم في الدنيا بين عدم النفع منهم في الآخرة بل أشار إلى وجود الضرر منهم في الآخرة بقوله (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أي بإشراككم بالله شيئاً ، كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) أي

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

الإشراك، وقوله: (ولا ينبئك مثل خبير) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك خطاباً مع النبي ﷺ ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل لجوازه لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة، وهذا القول مع كون المخبر عنه أمراً عجيباً هو كما قال، لأن المخبر عنه خبير. (وثانيهما) هو أن يكون ذلك خطاباً غير مختص بأحد، أي هذا الذي ذكر هو كما قال: (ولا ينبئك) أيها السامع كائناً من كنت (مثل خبير).

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾

لما كثر الدعاء من النبي ﷺ والإصرار من الكفار وقالوا إن الله لعله محتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمراً بالغاً ويهددنا على تركها مبالغاً فقال تعالى: (أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني) فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم، وفي الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ التعريف في الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لأن المخبر لا يخبر في الأكثر إلا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو في ظن المتكلم أن السامع لا علم له به، ثم إن يكون مفهوماً عند السامع حتى يقول له أيها السامع الأمر الذي تعرفه أنت به الذي لا تعلق كقول القائل: زيد قائم أو قام أي زيد الذي تعرفه ثبت له قيام لا تعلم عندك به. فإن كان الخبر معلوماً عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيهاً لانفهما يحسن تعريف الخبر غاية الحسن كقوله تعالى الله ربنا ومحمد نبينا، حيث عرف كون الله رباً وكون محمد نبياً. وههنا لما كان كون الناس فقراء أمراً ظاهراً لا يخفى على أحد قال (أنتم الفقراء).

﴿المسألة الثانية﴾ قوله: (إلى الله) إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقراً إليه وعـــدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره، ثم قال (والله هو الغني) أي هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وأنتم من احتياجكم لا تجيبونه ولا تدعونه فيجيبكم.

﴿المسألة الثالثة﴾ في قوله (الحميد) لما زاد في الخبر الأول وهو قوله (أنتم الفقراء) زيادة وهو قوله (إلى الله) إشارة إلى وجوب حصر العبادة في عبادته زاد في وصفه بالغنى زيادة وهو كونه حميداً إشارة إلى كونكم فقراء وفي مقابلته الله غني وفقركم إليه في مقابلة نعمه عليكم لكونه حميداً واجب الشكر، فلستم أنتم فقراء وإنه مثلكم في الفقر بل هو غني على الإطلاق ولستم أنتم لما افتقرتم إليه تركتكم غير مقضي الحاجات بل تقضى في الدنيا حوائجكم، وإن آمنتم يقضي في الآخرة حوائجكم فهو حميد.

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ
وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

قوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ بياناً لغناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها أنه تعالى قال (إن يشأ يذهبكم) أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج إليه، فإن المحتاج لا يقول فيه إن يشأ فلان هدم داره وأعدم عقاره، وإنما يقول لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها أو لولا الافتقار إلى العقار لتركتها، ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله (ويأت بخلق جديد) يعني إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال وعظمة فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقاً جديداً أحسن من هذا وأجمل وأتم وأكمل.

قوله تعالى: ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي الإذهاب والإتيان، وههنا مسألة: وهي أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة في القائم بنفسه حيث قال في حق نفسه (وكان الله قوياً عزيزاً) وقال في هذه السورة (إن الله عزيز غفور) واستعمله في القائم بغيره حيث قال (وما ذلك على الله بعزيز) وقال (عزيز عليه ما عنتم) فهل هما بمعنى واحد أم بمعنيين؟ فنقول العزيز هو الغالب في اللغة يقال من عز بز أي من غلب سلب، فالله عزيز أي غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله (وما ذلك على الله بعزيز) أي لا يغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله (عزيز عليه ما عنتم) أي يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب.

قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ متعلق بما قبله، وذلك من حيث إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا تحمل نفس ذنب نفس فالنبي ﷺ لو كان كاذباً في دعواه لكان مذنباً وهو معتقد بأن ذنبه لا تحملونه أنتم فهو يتوقى ويحترز، والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم فتفكروا واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) وفي الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (وازرة) أي نفس وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل ولا تزر نفس وازرة وزر أخرى لفائدة (أما الأول) فلأنه لو قال ولا تزر نفس وزر أخرى لما علم أن كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة في أمرها (ووجه آخر) وهو أن قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى، قد يجتمع معها أن

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ

قوله تعالى: ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾

لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلا بالبصير والأعمى ، فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى ، وفي تفسير الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة في تكثير الأمثلة ههنا حيث ذكر الأعمى والبصير ، والظلمة والنور ، والظل والحرور ، والأحياء والأموات ؟ نقول الأول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى ، ثم إن البصير وإن كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئاً إن لم يكن في ضوء فذكر للإيمان والكفر مثلا ، وقال الإيمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور ، والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد ، ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلا وهو الظل والحرور ، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة والكافر بكفره في حر وتعب . ثم قال تعالى (وما يستوي الأحياء ولا الأموات) مثلا آخر في حق المؤمن والكافر كأنه قال تعالى حال المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير ، فإن الأعمى يشارك البصير في إدراك ما ، والكافر غير مدرك إدراكا نافعاً فهو كالميت ويدل على ما ذكرنا أنه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولا (وما يستوي الأعمى والبصير) وعطف الظلمات والنور والظل والحرور ، ثم أعاد الفعل ، وقال (وما يستوي الأحياء ولا الأموات) كأنه جعل هذا مقابلا لذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كرر كلمة النفي بين الظلمات والنور والظل والحرور والأحياء والأموات . ولم يكرر بين الأعمى والبصير ، وذلك لأن التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة . فالظلمة تنافي النور وتضاده والعمى والبصر كذلك ، أما الأعمى والبصير فليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيراً وهو بعينه يصير أعمى ، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف ، والظل والحرور والمنافاة بينهما ذاتية لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد فلما كانت المنافاة هناك أتم ، أكد بالتكرار ، وأما الأحياء والأموات ، وإن كانوا كالأعمى والبصير من حيث إن الجسم الواحد يكون محلا للحياة فيصير محلا للموت ولكن المنافاة بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير ، كما بينا أن الأعمى والبصير يشتركان في إدراك أشياء ، ولا كذلك الحي والميت . كيف والميت يخالف الحي في الحقيقة لا في الوصف على ما تبين في الحكمة الإلهية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحرور، وأخره في مثلين وهو البصر والنور، وفي مثل هذا يقول المفسرون إنه لتواخي أواخر الآي، وهو ضعيف لأن تواخي الأواخر راجع إلى السجع، ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملا له على تغيير المعنى، وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى. فنقول الكفار قبل النبي ﷺ كانوا في ضلالة فكانوا كالعمي وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبي ﷺ وبين الحق، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقهم كالنور فقال وما يستوي من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان، فلما كان الكفر قبل الإيمان في زمان محمد ﷺ والكافر قبل المؤمن قدم المقدم، ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لقوله في الإلهيات سبقت رحمتي غضبي، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات في عدم إدراك الحق من جميع الوجوه فقال ﴿وما يستوي الأحياء﴾ أي المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله ﴿والأموات﴾ الذين تليت عليهم الآيات البينات ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين، وقدم الأعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال هاهنا تقابل الأعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الأحياء بالأموات بلفظ الجمع، وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع في أحدهما والواحد في الآخر، فهل تعرف فيه حكمة؟ قلت نعم بفضل الله وهدايته. أما في الأعمى والبصير والظل والحرور فلأنه قابل الجنس بالجنس، ولم يذكر الأفراد لأن في العميان وأولي الأبصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوي فرداً من الجنس الآخر كالبصير الغريب في موضع والأعمى الذي هو تربية ذلك المكان، وقد يقدر الأعمى على الوصول إلى مقصد ولا يقدر البصير عليه، أو يكون الأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البليد البصير، فالتفاوت بينهما في الجنسين مقطوع به فإن جنس البصير خير من جنس الأعمى، وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر، إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حياً من الأحياء، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد، وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الإشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الأصنام التي هي على صورة الملائكة، وإلى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد بين، فقال الظلمات كلها إذا اجتمعت لا تجد فيها ما يساوي النور، وقد ذكرنا في تفسير قوله ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ السبب في توحيد النور وجمع الظلمات، ومن جملة ذلك أن النور لا يكون إلا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور والمستنير، مثاله الشمس

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾

إذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذي يمسك الشعاع ، فإن البيت الذي فيه كوة يدخل منها الشعاع إذا كان في مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتاً آخر ويبسط الشعاع على أرضه يرى البيت الثاني مضيئاً والأول مظلماً ، وإن لم يكن هناك حائل كالبيت الذي لا كوة له فإنه لا يضيء ، فإذا حصلت الأمور الثلاثة يستنير البيت وإلا فلا تتحقق الظلمة بفقد أي أمر كان من الأمور الثلاثة .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ وفيه احتمال معنيين (الأول) أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى فإن الله يسمع الموتى والنبي لا يسمع من مات وقبر ، فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي (والثاني) أن يكون المراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له هؤلاء لا يسمعهم إلا الله ، فإنه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء ، وأما أنت فلا تسمع من في القبور ، فما عليك من حسابهم من شيء .

قوله تعالى : ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ بياناً للتسلية .

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ لما قال (إن أنت إلا نذير) بين أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه إنما هو نذير بإذن الله وإرساله

قوله تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ تقريراً لأمرين (أحدهما) للتسلية فإنه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملاً لتأذي القوم (وثانيهما) إلزام القوم قبوله فإنه ليس بدعاً من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعي ما ادعاه الرسل ويقرره .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾

يعني أنت جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضاً أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم ما فعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلاً إلا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمداً صلى الله عليه وسلم (وبالزبر وبالكتاب المنير)

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

والشكل آتيناها محمداً، فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام أجمعين، وهذا يكون تقريراً مع أهل الكتاب. واعلم أنه تعالى ذكر أموراً ثلاثة أولها البينات، وذلك لأن كل رسول فلا بد له من معجزة وهي أدنى الدرجات، ثم قد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وإن لم يكن فيه نسخ وأحكام مشروعة شرعاً ناسخاً. ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الإلهية، ومن يكون كذلك فهو من أولي العزم فقال الرسل تبين رسالتهم بالبينات وإن كانوا أعلى مرتبة فبالزبر، وإن كانوا أعلى فبالكتاب والنبي آتيناه الشكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب.

قوله تعالى: ﴿ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾.

أي من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبي عليه السلام. وقوله (فكيف كان نكير) سؤال للتقرير فإنهم علموا شدة إنكار الله عليهم وإتيانه بالأمر المنكر من الاستئصال.

قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها﴾.

وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفي تفسيرها مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار، وقال (ألم تر) وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار وقال (والله الذي أرسل الرياح) وفيه وجهان (الأول) أن إنزال الماء أقرب إلى النفع والمنفعة فيه أظهر فإنه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعلم دلالته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جداً فقال له غيره أين هو؟ فإنه يقول له في الموضع الفلاني، فإن لم يره يقول له الحق معك إنه خفي وأنت معذور، وإذا كان بارزاً يقول له أما تراه هذا هو ظاهر (والثاني) وهو أنه ذكره بعدما قرر المسألة بدليل آخر وصار بما تقدم المدعو بصيراً بوجوه الدلالات، فقال له أنت صرت بصيراً بما ذكرناه ولم يبق لك عذر، ألا ترى هذه الآية.

﴿المسألة الثانية﴾ المخاطب من هو؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) النبي ﷺ وفيه حكمة وهي أن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم، كما أن السيد إذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الإرشاد، يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾

يذكر معه ما ذكره مع الأول ويكون فيه إشعار بأن الأول فيه نقيصة لا يستأهل الخطاب فينتبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة (والآخر) أن لا يحوج إلى كلام أجنبي عن الأول، بل يأتي بما يقاربه لئلا يسمع الأول كلاماً آخر فيترك التفكر فيما كان فيه من النصيحة.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة، وفيه لطائف (الأولى) قال أنزل وقال أخرجنا، وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول: قال الله تعالى (ألم تر أن الله أنزل) فإن كان جاهلاً يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له، فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه إنه بالطبع فهو بإرادة الله. فلما كان ذلك أظهر أسنده إلى المتكلم (ووجه آخر) هو أن الله تعالى لما قال (إن الله أنزل) علم الله بدليل، وقرب المتفكر فيه إلى الله تعالى فصار من الحاضرين، فقال له أخرجنا لقربه (ووجه ثالث) الإخراج أتم نعمة من الإنزال، لأن الإنزال لفائدة الإخراج فأسند الأتم إلى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب.

(اللطيفة الثانية) قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك)

كأن قائلاً قال اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع، ألا ترى أن بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره، فقال تعالى اختلاف البقاع ليس إلا بإرادة الله وإلا لما صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض، والجدد جمع جدة وهي الخطة أو الطريقة، فإن قيل الواو في (ومن الجبال) ما تقديرها؟ نقول هي تحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرج بالماء ثمرات مختلفة الألوان، وفي الأشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة، رادة على من ينكر الإرادة في اختلاف ألوان الثمار (ثانيهما) أن تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال. قال الزمخشري: أراد ذو جدد (واللطيفة الثالثة) ذكر الجبال ولم يذكر الأرض كما قال في موضع آخر (وفي الأرض قطع متجاورات) مع أن هذا الدليل مثل ذلك، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر في الأول (أخرجنا به ثمرات) كان نفس إخراج الثمار دليلاً على القدرة ثم زاد عليه بياناً، وقال: مختلف كذلك في الجبال في نفسها دليل القدرة والإرادة، لأن كون الجبال في بعض نواحي الأرض دون بعضها والاختلاف الذي في هيئة الجبال فإن بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع دليل القدرة والاختيار، ثم زاده بياناً وقال جدد بيض، أي مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها كما أن إخراج الثمرات في نفسها دلائل واختلاف

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

ألوانها دلائل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ مختلف ألوانها ، الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون ، أي بيض مختلف ألوانها ، وحمر مختلف ألوانها ، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص ، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص ، وكذلك الأحمر ، ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الألوان لكان مجرد تأكيد والأول أولى ، وعلى هذا فنقول لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحمر والسود ، بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب ، لأن الأسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغاً غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قيل إن الغربيب مؤكد للأسود ، يقال أسود غربيب والمؤكد لا يجيء إلا متأخراً فكيف جاء غرابيب سود ؟ نقول قال الزمخشري : غرابيب مؤكد لذي لون مقدر في الكلام كأنه تعالى قال سود غرابيب ثم أعاد السود مرة أخرى ، وفيه فائدة وهي زيادة التأكيد لأنه تعالى ذكره مضمراً ومظهراً ، ومنهم من قال هو على التقديم والتأخير ، ثم قال تعالى (ومن الناس والدواب والأنعام) استدلالا آخر على قدرته وإرادته ، وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق في العالم الذي نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين : حيوان وغير حيوان ، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن ، والنبات أشرف ، وأشار إليه بقوله (فأخرجنا به ثمرات) ثم ذكر المعدن بقوله (ومن الجبال) ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الإنسان فقال (ومن الناس) ثم ذكر الدواب ، لأن منافعها في حياتها والأنعام منفعتها في الأكل منها ، أو لأن الدابة في العرف تطلق على الفرس وهو بعد الإنسان أشرف من غيره ، وقوله (مختلف ألوانه) القول فيه كما أنها في أنفسها دلائل ، كذلك في اختلافها دلائل . وأما قوله (مختلف ألوانه) فذكر لكون الإنسان من جملة المذكورين ، وكون التذكير أعلى وأولى .

قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾

الخشية بقدر معرفة المخشي ، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه ، وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد ، لأن الله تعالى قال (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فبين أن الكرامة بقدر التقوى ، والتقوى بقدر العلم ، فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل ، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك في علمه ، فإن من يراه يقول لو علم لعمل . ثم قال تعالى (إن الله عزيز غفور) ذكر ما يوجب الخوف والرجاء ، فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام ، وكونه غفوراً لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ . وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله ، معناها إنما يعظم ويبجل .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾

لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه ، وقوله (يتلون كتاب الله) إشارة إلى الذكر .

قوله تعالى : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ إشارة إلى العمل البدني .

وقوله ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ إشارة إلى العمل المالي ، وفي الآيتين حكمة بالغة ، فقوله (إنما يخشى الله) إشارة إلى عمل القلب ، وقوله (إن الذين يتلون) إشارة إلى عمل اللسان ، وقوله (وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم) إشارة إلى عمل الجوارح ، ثم إن هذه الأشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه ، لأنا بينا أن من يعظم ملكاً إذا رأى عبداً من عباده في حاجة يلزمه قضاء حاجته وإن تهاون فيه يخل بالتعظيم ، وإلى هذا أشار بقوله : عبدي مرضت فما عدتني ، فيقول العبد : كيف تمرض وأنت رب العالمين ، فيقول الله مرض عبدي فلان وما زرته ولو زرته لوجدتني عنده ، يعني التعظيم متعلق بالشفقة حيث لا شفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله .

قوله تعالى : ﴿ سراً وعلانية ﴾ حث على الإنفاق كيفما يتهيأ ، فإن تهيأ سراً فذاك ونعم وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ، فإن ترك الخير مخافة أن يقال فيه إنه مراء عين الرياء . ويمكن أن يكون المراد بقوله (سراً) أي صدقة (وعلانية) أي زكاة ، فإن الإعلان بالزكاة كالإعلان بالفرض وهو مستحب .

قوله تعالى : ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ إشارة إلى الإخلاص ، أي ينفقون لا ليقال إنه كريم ولا لشيء من الأشياء غير وجه الله ، فإن غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة .

قوله تعالى : ﴿ ليوفيهم أجورهم ﴾ أي ما يتوقعونه ولو كان أمراً بالغ الغاية ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل ، ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر إليه كما جاء في تفسير الزيادة ﴿ إنه غفور ﴾ عند إعطاء الأجور ﴿ شكور ﴾ عند إعطاء الزيادة .

قوله تعالى : ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ﴾ .

لما بين الأصل الأول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله (والله الذي أرسل

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

الرياح ، وقوله (والله خلقكم) وقوله (ألم تر أن الله أنزل) ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة ، فقال (والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) وأيضاً كأنه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال (والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) تقريراً لما بين من الأجر والثواب في تلاوة كتاب الله فإنه حق وصدق فتاليه محق ومحقق وفي تفسيرها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (من الكتاب) يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال أرسل إلى كتاب من الأمير أو الوالي وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعني الذي أوحينا من اللوح المحفوظ إليك حق ، ويمكن أن يكون المراد هو القرآن يعني الإرشاد والتبيين الذي أوحينا إليك من القرآن ويحتمل أن يكون للبيان كما يقال أرسل إلى فلان من الثياب والقماش جملة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (هو الحق) آكد من قول القائل الذي أوحينا إليك حق من وجهين (أحدهما) أن تعريف الخبر يدل على أن الأمر في غاية الظهور لأن الخبر في الأكثر يكون نكرة ، لأن الإخبار في الغالب يكون إعلاماً بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع كقولنا زيد قام فإن السامع ينبغي أن يكون عارفاً بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به ، فإذا كان الخبر أيضاً معلوماً فيكون الإخبار للتنبيه فيعرفان باللام كقولنا زيد العالم في هذه المدينة إذا كان علمه مشهوراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (مصدقاً لما بين يديه) حال مؤكدة لكونه حقاً لأن الحق إذا كان لا خلاف بينه وبين كتب الله يكون خالياً عن احتمال البطلان وفي قوله مصدقاً تقرير لكونه وحياً لأن النبي ﷺ لما لم يكن قارئاً كاتباً وأتى ببيان ما في كتب الله لا يكون ذلك إلا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والإنجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال التوراة والإنجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه إن كان في التوراة فهو حق وباق على ما نزل ، وإن لم يكن فيه ويكون فيه خلافه فهو ليس من التوراة ، فالقرآن مصدق للتوراة (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال إن هذا الوحي مصدق لما تقدم لأن الوحي لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام في إنزال التوراة والإنجيل فإذا وجد الوحي ونزل على محمد ﷺ علم جوازه وصدق به ما تقدم ، وعلى هذا فيه لطيفة : وهي أنه تعالى جعل القرآن مصدقاً لما مضى مع أن ما مضى أيضاً مصدق له لأن الوحي إذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو محمد ﷺ ولم يجعل ما تقدم مصدقاً للقرآن لأن القرآن كونه معجزة يكفي في تصديقه بأنه وحي ، وأما ما تقدم فلابد معه من معجزة تصدقه .

إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه تقرير لكونه هو الحق لأنه وحي من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر ، فلا يكون باطلا في وجه لا في الباطن ولا في الظاهر (وثانيهما) أن يكون جواباً لما كانوا يقولونه إنه لم لم ينزل على رجل عظيم؟ فقال إن الله بعباده خبير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم فاختار محمداً عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل .

قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى (جنات عدن يدخلونها) أخبر بدخولهم الجنة وكلمة (ثم أورثنا) أيضاً تدل عليه لأن الإيراث إذا كان بعد الإيحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والإيراث المراد منه الإعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى . ويحتمل أن يقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما في قوله تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) والمعنى على هذا إنا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الأنبياء ويدل عليه أن لفظ المصطفى على الأنبياء إطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم ولأن قوله (من عبادنا) دل على أن العباد أكابر مكرمون بالإضافة إليه ، ثم إن المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق بمن يكون أشرف من الشريف أن يكون ظالماً مع أن لفظ الظالم أطلقه الله في كثير من المواضع على الكافر وعلى الشرك ظلماً وعلى الوجه الأول الظاهر بين هذا أعطينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه واقتدوا (فمنهم ظالم) وهو المسيء (ومنهم مقتصد) وهو الذي خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً (ومنهم سابق بالخيرات) وهو الذي أخلص العمل لله وجرده عن السيئات ، فإن قال قائل كيف قال في حق من ذكر في حقه أنه من عباده وأنه مصطفى إنه ظالم مع أن الظالم يطلق على الكافر في كثير من المواضع ؟ فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه في غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية وإليه الإشارة بقوله ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ويصحح هذا قول عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ « ظالمنا مغفور له » وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى (ربنا ظلمنا أنفسنا) وأما الكافر فيضع قلبه الذي به اعتبار الجسد في غير موضعه فهو ظالم على الإطلاق ، وأما قلب المؤمن فمطمئن بالإيمان لا يضعه في غير التفكر في آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله . وفي المراتب الثلاث أقوال كثيرة (أحدها) الظالم هو الراجح السيئات والمقتصد هو الذي

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

تساوت سيئاته وحسناته والسابق هو الذي ترجحت حسناته (ثانيها) الظالم هو الذي ظاهره خير من باطنه ، والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه ، والسابق من باطنه خير (ثالثها) الظالم هو الموحد بلسانه الذي تخالفه جوارحه ، والمقتصد هو الموحد الذي يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف ، والسابق هو الموحد الذي ينسيه التوحيد عن التوحيد (رابعها) الظالم صاحب الكبيرة ، والمقتصد صاحب الصغيرة ، والسابق المعصوم (خامسها) الظالم التالي للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه ، والمقتصد التالي العالم ، والسابق التالي العالم العامل (سادسها) الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم (سابعها) الظالم أصحاب المشأمة ، والمقتصد أصحاب الميمنة ، والسابق السابقون المقربون (ثامنها) الظالم الذي يحاسب فيدخل النار ، والمقتصد الذي يحاسب فيدخل الجنة ، والسابق الذي يدخل الجنة من غير حساب (تاسعها) الظالم المصر على المعصية ، والمقتصد هو النادم والتائب ، والسابق هو المقبول التوبة (عاشرها) الظالم الذي أخذ القرآن ولم يعمل به ، والمقتصد الذي عمل به ، والسابق الذي أخذه وعمل به وبين للناس العمل به ليعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل ، والمقتصد كامل والظالم ناقص ، والمختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فإنه واضع للشيء في غير موضعه ، والمقتصد هو المجتهد في ترك المخالفة وإن لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه إثم فإنه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذي لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى (بإذن الله) أي اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخيرات يقع في قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع في قلبه فترده النفس ، والظالم تغلبه النفس . ونقول بعبارة أخرى من غلبته النفس الأمارة وأمرته فأطاعها ظالم ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقتصد ومن قهر نفسه فهو السابق وقوله (ذلك هو الفضل الكبير) يحتمل وجوهاً (أحدها) التوفيق المدلول عليه بقوله (بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) ، (ثانيها) السبق بالخيرات هو الفضل الكبير (ثالثها) الإيراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير ، أما الوجه الآخر وهو أن يقال (ثم أورثنا الكتاب) أي جنس الكتاب ، كما قال تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) يرد عليه أسئلة (أحدها) ثم للتراخي وإيتاء الكتاب بعد الإيحاء إلى محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فما المراد بكلمة ثم ؟ نقول معناه إن الله خبير بصير خبرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه قال تعالى إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عباداً (ثم أورثناهم الكتاب) . (ثانيها) كيف يكون من الأنبياء ظالم لنفسه ؟ نقول (منهم) غير راجع إلى الأنبياء المصطفين بل المعنى إن الذي أوحينا إليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلاً وآتيناهم كتباً . ومنهم أي من قومك

جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾

ظالم كفر بك وبما أنزل إليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحاً (والثاني) قوله (جنات عدن يدخلونها) الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلا، نقول الداخلون هم السابقون، وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولا ثم يدخل الجنة والبيان لأول الأمر لا لما بعده، ويدل عليه قوله (يحلون فيها من أساور من ذهب) وقوله (أذهب عنا الحزن).

ثم قال ﴿جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير﴾ وفي الداخلين وجوه (أحدها) الأقسام الثلاثة وهي على قولنا أن الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين (والثاني) الذين يتلون كتاب الله (والثالث) هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولأنه ذكر إكرامهم بقوله (يحلون) فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه أبحاث:

(الأول) تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى إذا كان المفعول حقيقياً كقولنا (الله خلق السموات) وقول القائل: زيد بنى الجدار فإن الله موجود قبل كل شيء، ثم له فعل هو الخلق، ثم حصل به المفعول وهو السموات، وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه، وإذا لم يكن المفعول حقيقياً كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمراً فإن الدار في الحقيقة ليس مفعولا للداخل وإنما فعل من أفعاله تعلق بالنسبة إلى الدار، وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمي مفعولا لا يحصل هذا الترتيب، ولكن الأصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول عمراً ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة إليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم إلا لفائدة، فما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذي هو الدخول وإعادة ذكر بالهاء في يدخلونها، وما الفرق بين هذا وبين قول القائل يدخلون جنات عدن؟ نقول السامع إذا علم أن له مدخلا من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فإذا قيل له أنت تدخل فإلى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أي المداخل يكون، فإذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار، يعلم مدخله ومما عنده من العلم السابق بأن له دخولا يعلم الدخول فلا يبقى له ترقب ولا سيما الجنة والنار، فإن بين المدخلين بوناً بعيداً (الثاني) قوله (يحلون فيها) إشارة إلى سرعة الدخول فإن التحلية لو وقعت خارجاً لكان فيه تأخير الدخول فقال (يدخلونها) وفيها تقع تحليتهم (الثالث) قوله (من أساور) بجمع الجمع فإنه جمع أسورة وهي جمع سوار، وقوله (ولباسهم فيها حرير) ليس كذلك لأن الإكثار من اللباس

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ

يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والإكثار من الزينة لا يدل إلا على الغنى (الرابع) ذكر الأساور من بين سائر الحلي في كثير من المواضع منها قوله تعالى (وحلوا أساور من فضة) وذلك لأن التحلي بشيئين (أحدهما) إظهار كون المتحلي غير مبتذل في الأشغال لأن التحلي لا يكون حالة الطبخ والغسل (وثانيهما) إظهار الاستغناء عن الأشياء وإظهار القدرة على الأشياء وذلك لأن التحلي إما باللآلي والجواهر وإما بالذهب والفضة والتحلي بالجواهر واللآلي يدل على أن المتحلي لا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكثيرة عند الحاجة حيث يعجز عن الوصول إلى الأشياء القليلة الوجود لا لحاجة ، والتحلي بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية وإلا لصرف الذهب والفضة إلى دفع الحاجة ، إذا عرفت هذا فنقول الأساور محلها الأيدي وأكثر الأعمال باليد فإنها للبطش ، فإذا حليت بالأساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ إشارة إلى النوعين اللذين منهما الحلي .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ .
في الحزن أقوال كثيرة والأولى أن يقال المراد إذهاب كل حزن والألف واللام لتعريف الجنس واستغراقه وإذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغي وبقائه دائماً فإن شيئاً منها لو لم يحصل لكان الحزن موجوداً بسببه وإن حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله وخوف فواته ، وقوله (إن ربنا لغفور شكور) ذكر الله عنهم أموراً كلها تفيد الكرامة من الله (الأول) الحمد فإن الحامد مثاب (الثاني) قولهم ربنا فإن الله لم يناد بهذا اللفظ إلا واستجاب لهم ، اللهم إلا أن يكون المنادي قد ضيع الوقت الواجب أو طلب ما لا يجوز كالرد إلى الدنيا من الآخرة (الثالث) قولهم (غفور) ، (الرابع) قولهم (شكور) والغفور إشارة إلى ما غفر لهم في الآخرة بما وجد لهم من الحمد في الدنيا ، والشكور إشارة إلى ما يعطيهم ويزيد لهم بسبب ما وجد لهم في الآخرة من الحمد .

قوله تعالى : ﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ أي دار الإقامة ، لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا (الذي أحلنا دار المقامة) أي الإقامة والمفعول ربما يجيء للمصدر من كل باب يقال ما له معقول أي عقل ، وقال تعالى (مدخل صدق) وقال تعالى (ومزقناهم كل ممزق) وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لأن المصدر هو المفعول في الحقيقة فإنه هو الذي فعل فجاز إقامة المفعول مقامه وفي قوله (دار المقامة) إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور ومنها إلى منزلة

لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾

العرصة التي فيها الجمع ومنها التفريق ، وقد تكون دار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة ، وكذلك النار لأهلها وقوله (من فضله) أي بحكم وعده لا بإيجاب من عنده

قوله تعالى : ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ . اللغوب الإعياء والنصب هو السبب للإعياء فإن قال قائل إذا بين أنه (لا يمسهم فيها نصب) علم أنه (لا يمسهم فيها لغوب) ولا يقال الحكيم النصب ، ثم ينفي مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل لا أكلت ولا شبعت أو لا قمت ولا مشيت والعكس كثير فإنه يقال لا شبعت ولا أكلت لما أن نفي الشبع لا يلزمه إنتفاء الأكل وسياق ما تقرر أن يقال لا يمسنا فيها إعياء ولا مشقة ، فنقول ما قال الله في غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل ، ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فإن الدنيا أماكنها على قسمين : (أحدهما) موضع تمس فيه المشاق والمتاعب كالبراري والصحاري والطرقات والأراضي (والآخر) موضع يظهر فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التي في الأسفار من الخانات فإن من يكون في مباشرة شغل لا يظهر عليه الإعياء إلا بعد ما يستريح فقال تعالى (لا يمسنا فيها نصب) أي ليست الجنة كالمواضع التي في الدنيا مظان المتاعب بل هي أفضل من المواضع التي هي مواضع مرجع المعي ، فقال (ولا يمسنا فيها لغوب) أي ، لا نخرج منها إلى مواضع تتعب ونرجع إليها فيمسنا فيها الإعياء وقرىء (لغوب) بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال لا نتعب ولا يمسنا ما يصلح لذلك ، وهذا لأن القوي السوي إذا قال ما تعبت اليوم لا يفهم من كلامه أنه ما عمل شيئاً لجواز أنه عمل عملا لم يكن بالنسبة إليه متعباً لقوته ، فإذا قال ما مسني ما يصلح أن يكون متعباً يفهم أنه لم يعمل شيئاً لأن نفس العمل قد يصلح أن يكون متعباً لضعيف أو متعباً بسبب كثرته ، واللغوب هو ما يلغب منه وقيل النصب التعب الممرض ، وعلى هذا فحسن الترتيب ظاهر كأنه قال لا يمسنا مرض ولا دون ذلك وهو الذي يعيا منه مباشره .

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم ﴾ عطف على قوله (إن الذين يتلون كتاب الله) وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله (جنات عدن يدخلونها) قد ذكرنا أنه على بعض الأقوال راجع إلى (الذين يتلون كتاب الله) .

قوله تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ أي لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم .

قوله تعالى : ﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴾ أي النار وفيه لطائف

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ

(الأول) أن العذاب في الدنيا إن دام كثيراً يقتل فإن لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجاً فاسداً متمكناً لا يحس به المعذب، فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا، إما أن يفني، وإما أن يألفه البدن بل هو في كل زمان شديد والمعذب فيه دائم (الثانية) راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لأن الترتيب أن لا ينقطع العذاب، ولا يفتر فقال لا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولا يجابون كما قال تعالى (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) أي بالموت (الثالثة) في المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم، ولم يقل نزيدهم عذاباً، وفي المثابين ذكر الزيادة بقوله (ويزيدهم من فضله) ثم لما بين أن عذابهم لا يخفف.

قال تعالى ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أي لا يخفف وإن اصطرخوا واضطربوا لا يخفف الله من عنده إنعاماً إلى أن يطلبوه بل يطلبون ولا يجابون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب وقوله تعالى ﴿ربنا أخرجنا﴾ أي صراخهم بهذا أي يقولون (ربنا أخرجنا) لأن صراخهم كلام وفيه إشارة إلى أن إيلامهم تعذيب لا تأديب، وذلك لأن المؤدب إذا قال للمؤدب: لا أرجع إلى ما فعلت وبئسما فعلت يتركه، وأما المعذب فلا، وترتيبه حسن وذلك لأنه لما بين أنه لا يخفف عنهم بالكلية ولا يفتر عنهم بين أنه لا يقبل منهم وعداً وهذا لأن المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فإذا طال لبثه تطلب الإخراج من غير قطيعة على نفسه فإن لم يفده يقطع على نفسه قطيعة ويقول أخرجني أفعل كذا وكذا.

واعلم أن الله تعالى قد بين أن من يكون في الدنيا ضالاً فهو في الآخرة ضال كما قال تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى) ثم إنهم لم يعلموا أن العود إلى الدنيا بعيد محال بحكم الإخبار. وعلى هذا قالوا ﴿نعمل صالحاً﴾ جازمين من غير استثناء بالله ولا مشيئة فيه، ولم يقولوا إن الأمر بيد الله، فقال الله لهم إذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرناكم مقداراً يمكن التذكر فيه والإتيان بالإيمان والإقبال على الأعمال.

وقولهم ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ إشارة إلى ظهور فساد عملهم لهم وكأن الله تعالى كما لم يهدهم في الدنيا لم يهدهم في الآخرة، فما قالوا ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لا بعملهم ونحن أحوج إلى تخفيف العذاب منهم إلى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظراً إلى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظراً إلى عدلك وانظر إلى مغفرتك الهاطلة ولا تنظر إلى معذرتنا الباطلة، وكما هدى الله المؤمن في الدنيا هداه في العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الإجابة وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الإنابة فقالوا الحمد لله وقالوا ربنا غفور اعترافاً بتقصيرهم شكور إقراراً بوصول ما لم يخطر ببالهم إليهم وقالوا (أحلنا دار المقامة من فضله) أي لا عمل لنا بالنسبة إلى نعم الله وهم قالوا (أخرجنا نعمل صالحاً)

نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

إغماضاً فى حق تعظيمه وإعراضاً عن الاعتراف بعجزهم عن الإتيان بما يناسب عظمته ، ثم إنه تعالى بين أنه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل فى المحل ، فإن النبى ﷺ كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادة .

قوله تعالى : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾

فإن المانع إما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله ، وإما أن يكون فى مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم .

قوله تعالى : ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ وقوله (فذوقوا) إشارة إلى الدوام وهو أمر إهانة . فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم فى غير موضعها وأتوا بالمعذرة فى غير وقتها من نصير فى وقت الحاجة ينصرهم ، قال بعض الحكماء قوله (فما للظالمين من نصير) وقوله (وما للظالمين من أنصار) يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلا مركباً ، وهو الذى يعتقد الباطل حقاً فى الدنيا (وما له من نصير) أى من علم ينفعه فى الآخرة ، والذى يدل عليه هو أن الله تعالى سمى البرهان سلطاناً ، كما قال تعالى (فأتوا بسلطان) والسلطان أقوى ناصر إذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم ، لأن الله لا ينصره وليس غيره نصيراً فما لهم من نصير أصلا ، ويمكن أن يقال إن الله تعالى قال فى آل عمران (وما للظالمين من أنصار) وقال (فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين) وقال هنا (فما للظالمين من نصير) أى هنا وقع كونهم واقعين فى النار ، فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق إلا توقعهم من الله فقال (ما لكم من نصير) أصلا ، وهناك كان الأمر محكياً فى الدنيا أو فى أوائل الحشر ، فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم .

قوله تعالى : ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾

تقريراً لدوامهم فى العذاب ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ولا يزاد عليها ، فلو قال قائل : الكافر ما كفر بالله إلا أياماً معدودة ، فكان ينبغى أن لا يعذب إلا مثل تلك الأيام ، فقال تعالى إن الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما فى الصدور ، وكان يعلم من الكافر أن فى قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده .

وفى قوله تعالى (بذات الصدور) مسألة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى ، وهى أن لقائل أن يقول الصدور هى ذات اعتقادات وظنون ، فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور ؟

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

ويقرره السؤال قولهم أرض ذات أشجار وذات ... حتى إذا كان فيها ذلك، فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد، فيقال له لما كان اعتقاد الصدر بما فيه صار ما فيه كأنه كان المالك حيث لا يقال الدار ذات زيد، ويصح أن يقال زيد ذو دار ومال وإن كان هو فيها.

قوله تعالى: ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾

تقريراً لقطع حجتهم فإنهم لما قالوا (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً) وقال تعالى (أولم نعمركم ما يتذكر) إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله (وجاءكم النذير) أي آتيناكم عقولاً، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) أي نبهكم بمن مضى وحال من انقضى فإنكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك فكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف، لكن أمهلكم وعمركم وأمركم على لسان الرسل بما أمركم وجعلكم خلائف في الأرض، أي خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين (فمن كفر) بعد هذا كله (فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً) لأن الكافر السابق كان ممقوتاً كالعبد الذي لا يخدم سيده واللاحق الذي أنذره الرسول ولم ينتبه أمقت كالعبد الذي ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يخدمه والثالث هم الذي رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه أمقت الكل.

قوله تعالى: ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ أي الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلا المقت، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يفيدهم إلا الخسارة. فإن العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح، ومن اشترى به سخطه خسر.

قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾

إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

تقريراً للتوحيد وإبطالاً للإشراك ، وقوله (أرأيتم) المراد منه أخبروني ، لأن الاستفهام يستدعي جواباً ، يقول القائل أرأيت ماذا فعل زيد ؟ فيقول السامع باع أو اشترى ، ولولا تضمنه معنى أخبروني وإلا لما كان الجواب إلا قوله لا أو نعم . وقوله (شركاءكم) إنما أضاف الشركاء إليهم من حيث إن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله ، وإنما هم جعلوها شركاء ، فقال شركاءكم ، أي الشركاء بجعلكم ويحتمل أن يقال شركاءكم ، أي شركاءكم في النار لقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وهو قريب ، ويحتمل أن يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الأول . وقوله (أروني) بدل عن (أرأيتم) لأن كليهما يفيد معنى أخبروني ، ويحتمل أن يقال قوله (أرأيتم) استفهام حقيقي و (أروني) أمر تعجيز للتبيين ، فلما قال (أرأيتم) يعني أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة ، فإن كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها ؟ وإن كان وقع لكم أن لها قدرة فأروني قدرتها في أي شيء هي . أهي في الأرض كما قال بعضهم : إن الله إله السماء وهؤلاء آلهة الأرض ، وهم الذين قالوا أمور الأرض من الكواكب والأصنام صورها ؟ أم هي في السموات . كما قال بعضهم : إن السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء في خلق السموات ، وهذه الأصنام صورها ؟ أم قدرتها في الشفاعة لكم . كما قال بعضهم إن الملائكة ما خلقوا شيئاً ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا . فهل معهم كتاب من الله فيه إذنه لهم بالشفاعة ؟ وقوله (أم آتيناهم كتاباً) في العائد إليه الضمير وجهان (أحدهما) أنه عائد إلى الشركاء ، أي هل آتينا الشركاء كتاباً (وثانيهما) أنه عائد إلى المشركين ، أي هل آتينا المشركين كتاباً ، وعلى الأول فمعناه ما ذكرنا ، أي هل مع ما جعلتموه شريكاً كتاب من الله فيه أن له شفاعة عند الله فإن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه ، وعلى الثاني معناه أن عبدة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزءاً من الأجزاء ولا في السماء شيئاً من الأشياء ، وإما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتاباً فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ، ولو أمرنا لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم وإلى جهة الكعبة ، فهذه العبادة لا عقلية ولا نقلية فوعد بعضهم بعضاً ليس إلا غروراً غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الأصنام .

ثم لما بين أنه لا خلق للأصنام ولا قدرة لها ولا على جزء من الأجزاء بين أن الله قدير بقوله ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ويحتمل أن يقال لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والأرض كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ

الرحمن ولداً) ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية (إنه كان حليماً غفوراً) كان حليماً ما ترك تعذيبهم إلا حلماً منه وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء وانشقاق الأرض عليهم وإنما أخر إزالة السموات إلى قيام الساعة حلماً . وتحتمل الآية وجهاً (ثالثاً) وهو أن يكون ذلك من باب التسليم وإثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضاً كأنه تعالى قال شركاؤكم ما خلقوا من الأرض شيئاً ولا في السماء جزءاً ولا قدروا على الشفاعة ، فلا عبادة لهم . وهب أنهم فعلوا شيئاً من الأشياء فهل يقدرون على إمساك السموات والأرض ؟ ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون لأنهم ما كانوا يقولون به ، كما قال تعالى عنهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ويؤيد هذا قوله (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد بعده) فإذا تبين أن لا معبود إلا الله من حيث إن غيره لم يخلق من الأشياء وإن قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له إنه كان حليماً غفوراً . حليماً حيث لم يعجل في إهلاكهم بعد إصرارهم على إشراكهم وغفوراً يغفر لمن تاب ويرحمه وإن استحق العقاب .

قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ، استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ .

لما بين إنكارهم التوحيد ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه حيث إنهم كانوا يقسمون على أنهم لا يكذبون الرسل إذا تبين لهم كونهم رسلاً وقالوا إنما نكذب محمداً ﷺ لكونه كاذباً ، ولو تبين لنا كونه رسولاً لآمنا كما قال تعالى عنهم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) وهذا مبالغة منهم في التكذيب ، كما أن من ينكر دين إنسان قد يقول والله لو علمت أن له شيئاً علي لقضيته وزدت له ، إظهاراً لكونه مطالباً بالباطل . فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدى الأمم فلما جاءهم نذير أي محمد ﷺ جاءهم أي صح مجيؤه لهم بالبينة ما زادهم إلا نفوراً ، فإنهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولأنهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا بعد الرسالة وقال بعض المفسرين إن أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على أنهم كذبوا برسلهم لما جاءوهم وقالوا لو جاءنا رسول لأطعناه

وأيمانهم ، وهذا فيه إشكال من حيث إن المشركين كانوا منكرين الرسالة والحشر مطلقاً ، فكيف كانوا يعترفون بالرسل ، فمن أين عرفوا أن اليهود كذبوا وما جاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون أنهم صدقوا شيئاً وكذبوا في شيء ؟ بل المراد ما ذكرنا أنهم كانوا يقولون نحن لو جاءنا رسول لا نكذبه ونحن ننكر كون محمد رسولا من حيث إنه كاذب ولو صح كونه رسولا لآمنا وقوله (فلما جاءهم) أي فلما صح لهم مجيئه بالمعجزة . وفي قوله (أهدى) وجهان (أحدهما) أن يكون المراد أهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله (من إحدى الأمم) للتبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً) أي صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى (وثانيهما) أن يكون المراد أن نكون أهدى من إحدى الأمم كما يقول القائل زيد أولى من عمرو . وفي الأمم وجهان (أحدهما) أن يكون المراد العموم أي أهدى من أي إحدى الأمم وفيه تعريض (وثانيهما) أن يكون المراد تعريف العهد أي أمة محمد وموسى وعيسى ومن كان في زمانهم .

قوله تعالى : ﴿ استكباراً في الأرض ﴾ نصب يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون حالا أي مستكبرين في الأرض (وثانيها) أن يكون مفعولا له أي للاستكبار (وثالثها) أن يكون بدلا عن النفور وقوله (ومكر السيء) إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكراً سيئاً ثم عرف لظهور مكرهم ، ثم ترك التعريف باللام وأضيف إلى السيء لكون السوء فيه أبين الأمور ، ويحتمل أن يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا في قوله تعالى (والذين يمكرون السيئات) أي يعملون السيئات ، ومكرهم السيء وهو جميع ما كان يصدر منهم من القصد إلى الإيذاء ومنع الناس من الدخول في الإيمان وإظهار الإنكار . ثم قال (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) أي لا يحيط إلا بفاعله وفي قوله (ولا يحيق) وقوله (إلا بأهله) فوائد . أما في قوله (يحيق) فهي أنها تنبئ عن الإحاطة التي هي فوق اللحوق وفيه من التحذير ما ليس في قوله ولا يلحق أو ولا يصل ، وأما في قوله (بأهله) ففيه ما ليس في قول القائل ولا يحيق المكر السيء إلا بالماكر كي لا يأمن المسيء فإن من أساء ومكره سيء آخر قد يلحقه جزاء على سيئه ، وأما إذا لم يكن سيئاً فلا يكون أهلا فيأمن المكر السيء . وأما في النفي والإثبات ففائدته الحصر بخلاف ما يقول القائل المكر السيء يحيق بأهله ، فلا ينبئ عن عدم الحيق بغير أهله . فإن قال قائل كثيراً ما نرى أن الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك ، فنقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) أن المكر المذكور في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي ﷺ من العزم على القتل والإخراج ولم يحق إلا بهم ، حيث قتلوا يوم بدر وغيره (وثانيها) هو أن نقول المكر السيء عام وهو الأصح فإن النبي عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبي ﷺ أنه قال « لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فإن الله يقول ولا يحيق المكر السيء

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (٤٣)

إلا بأهله ، وعلى هذا فذلك الرجل المكور به [لا] يكون أهلا فلا يرد نقضاً (وثالثها) أن الأمور بعواقبها ، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلا في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا ، ويبين هذا المعنى قوله تعالى (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) يعني إذا كان لمكرهم في الحال رواج فالعاقبة للتقوى والأمور بخواتيمها ، فيهلكون كما هلك الأولون .

قوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ أي ليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك وهو سنة الأولين وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هو سنة الله بالأولين ، فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المصدر الذي هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمراً عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ماله من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحكمة فكذلك سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها سنة سنت بهم وأضافها إلى نفسه بعدها بقوله :

(فلن تجد لسنة الله تبديلا) لأنها سنة من سنن الله ، إذا علمت هذا فنقول أضافها في الأولى إليهم حيث قال (سنة الأولين) لأن سنة الله الإهلاك بالإشراك والإكرام على الإسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما فإذا قال سنة الأولين تميزت وفي الثاني أضافها إلى الله ، لأنها لما علمت فالإضافة إلى الله تعظيمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع (وثانيهما) أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الإنكار واستكبارهم عن الإقرار ، وسنة الله استئصالهم بإصرارهم فكأنه تعالى قال أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ التبديل تحويل فما الحكمة في التكرار ؟ نقول بقوله (فلن تجد لسنت الله تبديلا) حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره ، وبقوله (ولن تجد لسنة الله تحويلا) حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسيء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المخاطب بقوله (فلن تجد) يحتمل وجهين وقد تقدم مراراً (أحدهما) أن يكون عاماً كأنه قال فلن تجد أيها السامع سنة الله تبديلا (والثاني) أن يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فكأنه قال سنة الله أنه لا يهلك ما بقي في القوم من كتب الله إيمانه ، فإذا

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)

آمن من في علم الله أنه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح (إنك إن تذرهم) أي تمهل الأمر وجاء وقت سنتك .

قوله تعالى : ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ﴾ .

لما ذكر أن للأولين سنة وهي الإهلاك نبههم بتذكير حال الأولين فإنهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم ، أما الأول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم ، وأما عملهم فلأنهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمداً وأنتم يا أهل مكة كذبتم محمداً ومن تقدمه ، وقوله تعالى (وكانوا أشد منهم قوة) قد ذكرناه في سورة الروم ، بقي فيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ قال هناك (كانوا أشد) من غير واو ، وقال هنا بالواو فما الفرق ؟ نقول قول القائل : أما رأيت زيداً كيف أكرمني وأعظم منك ، يفيد أن القائل يخبر بأن زيداً أعظم . وإذا قال أما رأيته كيف أكرمني وهو أعظم منك يفيد أنه يقرر أن كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثاني في الظهور مثل الأول بحيث لا يحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار ، إذا علمت هذا فنقول المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير ، ولعل ذلك كان ظاهراً عندهم فقال بالواو أي نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم . وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فإنه قال (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها) وفي موضع آخر قال (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض) ولعل علمهم لم يحصل بإثارتهم الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيها عليهم كان معلوماً عندهم فإن كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم أنهم أقوى منهم ولا نزاع فيه .

قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديراً ﴾
يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون بياناً لما تقدم أي أن الأولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لا يعجزوه (والثاني) أن يكون قطعاً لأطماع الجهال فإن قائلاً لو قال هب أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعماراً لكنا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سيارة لها آثار فقال تعالى (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً) بأفعالهم وأقوالهم (قديراً) على إهلاكهم واستئصالهم .

قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ .

لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون عجل لنا عذابنا فقال الله : للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الله الناس بنفس الظلم فإن الإنسان ظلوم جهول ، وإنما يؤاخذ بالإصرار وحصول يأس الناس عن إيمانهم ووجود الإيمان ممن كتب الله إيمانه فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم إهلاك وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون ؟ نقول الجواب من وجوه (أحدها) أن خلق الدواب نعمة فإذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لأن المفرد أولا ثم المركب والمركب إما أن يكون معدنيا وإما أن يكون ناميا والنامي إما أن يكون حيوانا وإما أن يكون نباتا ، والحيوان إما إنسان وإما غير إنسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للإنسان (الثاني) هو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فإن بقاء الأشياء بالإنسان كما أن بقاء الإنسان بالأشياء وذلك لأن الإنسان يدبر الأشياء ويصلحها فتبقى الأشياء ثم ينتفع بها الإنسان فيبقى الإنسان فإذا كان الهلاك عاماً لا يبقى من الإنسان من يعمر فلا تبقى الأبنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الأهلية لأن حافظها يحفظ الإنسان إياها عن التلف والهلاك بالسقي والعلف (الثالث) هو أن إنزال المطر إنعام من الله في حق العباد فإذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى (ما ترك على ظهرها من دابة) (الوجه الثالث) لأن بسبب انقطاع الأمطار تموت حيوانات البر ، أما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (على ظهرها) كناية عن الأرض وهي غير مذكورة فكيف علم ؟ نقول بما تقدم وبما تأخر ، أما ما تقدم فقوله (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض) فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها . وأما ما تأخر فقوله (من دابة) لأن الدواب على ظهر الأرض ، فإن قيل كيف يقال لما عليه الخلق من الأرض وجه الأرض

وظهر الأرض ، مع أن الوجه مقابل الظهر كالمضاد ؟ نقول من حيث إن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الأرض ، ومن حيث إن ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها ، على أن الظهر في مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب ، فوجه الأرض ظهر لأنه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في قوله تعالى (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) وجوه : (أحدها) إلى يوم القيامة وهو مسمى مذكور في كثير من المواضع (ثانيها) يوم لا يوجد في الخلق من يؤمن على ما تقدم (ثالثها) لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد ﷺ أيام القتل والأسر كيوم بدر وغيره .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (فإذا جاء أجلهم ، فإن الله كان بعباده بصيراً) تسلية للمؤمنين للمؤمنين ، وذلك لأنه تعالى لما قال (ما ترك على ظهرها من دابة) وقال (لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال فإذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير ، إما أن ينجيهم أو يكون توفيهم تقريباً من الله لا تعذيباً ، لا يقال قد ذكرت أن الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم ، وإنما يؤاخذ حين يجتمع الناس على الضلال ويحق بأنه تعالى عند الإهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا ، نقول قد ذكرنا أن الإماتة والإفناء إن كان للتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب وإهلاك ، وإن كان لإيصال الثواب فليس بإهلاك ولا بمؤاخذة ، والله لا يؤاخذ الناس إلا عند عموم الكفر ، وقوله (بصير) اللفظ أتم في التسلية من العليم وغيره لأن البصير بالشيء الناظر إليه أولى بالإنعام من العالم بحالة دون أن يراه والله أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ قد ذكرنا كلاماً كلياً في حروف التهجي في سورة العنكبوت وذكرنا أن في كل سورة بدأ الله فيها بحروف التهجي كان في أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن ولنذكر مهنا أبحاثاً :

﴿ البحث الأول ﴾ هو أن في ذكر هذه الحروف في أوائل السور أموراً تدل على أنها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الانسان لا يصل إليها بعينها فنقول ما هو الكلي من الحكمة فيها ، أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة فهو أن الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهي أربعة عشر حرفاً وهي نصف ثمانية وعشرين حرفاً ، وهي جميع الحروف التي في لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ، ثم إنه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الألف إلى الذال وتسعة أحرف أخر في آخر الحروف من الفاء إلى الياء وعشرة من الوسط من الراء إلى الغين ، وذكر من القسم الأول حرفين هما الألف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة ، ولم يترك من القسم الأول من حروف الحلق والصدر إلا واحداً لم يذكره وهو الخاء ، ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة إلا واحداً لم يتركه وهو الميم ، والعشر الأواسط ذكر منها حرفاً وترك حرفاً فذكر الراء وترك الزاي وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين ، وليس هذا أمراً يقع اتفاقاً بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة ، وأما أن عينها غير معلومة فظاهر وهب أن واحداً يدعي فيه شيئاً فماذا يقول في كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن . وق . وص . وبعضها بحرفين كسورة حم . ويس . وطس . وطه . وبعضها بثلاثة أحرف كسورة الم . وطسم . والر . وبعضها بأربعة كسورتي المر . والمص . وبعضها بخمسة أحرف كسورتي حمعسق . وكهيعص . وهب أن قائلا يقول إن هذا إشارة إلى أن الكلام . إما حرف ، وإما فعل ، وإما اسم ، والحرف كثيراً ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الالصاق

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾

وغيرهما وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وأن للشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كإلى وعلى في الحرف وإلى وعلى في الاسم وإلا وألا وعلا يعلو في الفعل ، والاسم والفعل جاء على أربعة ، والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفنجل وجعل وجردحل فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه . فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر إلا الله ومن أعلمه الله به ، إذا علمت هذا فنقول اعلم أن العبادة منها قلبية ، ومنها لسانية ، ومنها جارحية ، وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم ، أما القلبية مع أنها أبعد عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلا ، وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذي [هو] أرق من الشعر وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذي توزن به الأعمال التي لا ثقل لها في نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي ، وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول ، وكذلك في العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات ، وقد ذكرنا الحكمة فيه وهي أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة لا يكون إلا آتيا بمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي به للفائدة وإن لم يؤمر كما لو قال السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في النقل فنقلها ولو قال انقلها فإن تحتها كنزا هو لك ينقلها وإن لم يؤمر ، إذا علم هذا فكذلك في العبادات اللسانية الذكرية وجب أن يكون منها ما لا يفهم معناه حتى إذا تكلم به العبد علم منه أنه لا يقصد غير الانقياد لأمر المعبود الآمر الناهي فإذا قال (حم ، يس ، الم ، طس) علم أنه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه أو يفهمه فهو يتلفظ به إقامة لما أمر به .

(البحث الثاني) قيل في خصوص يس إنه كلام هو نداء معناه يا إنسان ، وتقريره هو أن تصغير إنسان أنيسين فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال (يس) أي أنيسين ، وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد ﷺ ويدل عليه قوله تعالى بعده (إنك لمن المرسلين) .

(البحث الثالث) قرئ يس إما بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف هو قوله هذه كأنه قال هذه يس ، وإما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبني كحيث ، وقرئ يس إما بالنصب على معنى اتل يس وإما بالفتح كأين وكيف ، وقرئ يس بالكسر كجير لإسكان الياء وكسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالجر لأن إضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر وقوله تعالى (والقرآن الحكيم) أي ذي الحكمة كعيشة راضية أي ذات رضا أو على أنه ناطق بالحكمة فهو كالحي المتكلم .

قوله تعالى : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ مقسم عليه وفيه مسائل :

عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ الكفار أنكروا كون محمد مرسلا والمطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة في الإقسام ؟ نقول فيه وجوه (الأول) هو أن العرب كانوا يتوقون الأيمان الفاجرة وكانوا يقولون إن اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبي ﷺ ذلك بقوله « اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع » ثم إنهم كانوا يقولون إن النبي ﷺ يصيبه من آلهتهم عذاب وهي كانوا تكسب فكان النبي ﷺ يحلف بأمر الله وإنزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة ، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنا وأمنع مكانا فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب (الثاني) هو أن المتناظرين إذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المطلوب إنك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير في نفسك بضعف مقالك وتعلم أن الأمر ليس كما تقول وإن أقمت عليه صورة دليل وعجزت أنا عن القدح فيه ، وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتي هو بدليل آخر ، لأن الساكت المنقطع يقول في الدليل الآخر ما قاله في الأول فلا يجد أمرا إلا اليمين ، فيقول والله إني لست مكابرا وإن الأمر على ما ذكرت ولو علمت خلافه لرجعت إليه فههنا يتعين اليمين ، فكذلك النبي ﷺ لما أقام البراهين وقالت الكفرة (ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم) (وقالوا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) تعين التمسك بالأيمان لعدم فائدة الدليل (الثالث) هو أن هذا ليس مجرد الحلف ، وإنما هو دليل خرج في صورة اليمين لأن القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك فإن قيل فلم لم يذكر في صورة الدليل ؟ وما الحكمة في ذكر الدليل في صورة اليمين ؟ فالدليل إذا ذكر في صورة الدليل قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فإذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع لا سيما من العظيم إلا على أمر عظيم والأمر العظيم تتوفر الدواعي على الإصغاء إليه فلصورة اليمين تشرئب إليه الأجسام ، ولكونه دليلا شافيا يتشربه الفؤاد فيقع في السمع وينفع في القلب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كون القرآن حكيما عندهم لكون محمد رسولا ، فلهم أن يقولوا إن هذا ليس بقسم ، نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن كون القرآن معجزة بين إن أنكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله (والثاني) أن العاقل لا يثق بيمين غيره إلا إذا حلف بما يعتقد عظمته ، فالكافر إن حلف بمحمد لا نصدقه كما نصدقه لو حلف بالصليب والصنم ، ولو حلف بديننا الحق لا يوثق بمثل ما يوثق به لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم أن النبي ﷺ وأصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذي يوجب ثقتهم به .

تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾

أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد والدين كذلك فإنه توجه إلى الله تعالى وتولٍ عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه إلى المقصد أقرب إليه من المولي عنه والمنحرف منه ولا يذهب فهم أحد إلى أن قوله إنك منهم على صراط مستقيم يميز له عن غيره كما يقال إن محمداً من الناس مجتبى لأن جميع المرسلين على صراط مستقيم، وإنما المقصود بيان كون النبي صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم الذي يكون عليه المرسلون وقوله (على صراط مستقيم) فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول الإباحية الذين يقولون المكلف يصير واصلاً إلى الحق فلا يبقى عليه تكليف وذلك من حيث إن الله بين أن المرسلين ما داموا في الدنيا فهم سالكون سائرون مهتدون منتهجون إلى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز.

قوله تعالى: ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ قرئ بالجر على أنه بدل من القرآن كأنه قال (والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر) وقرئ بالنصب وفيه وجهان (أحدهما) أنه مصدر فعله منوي كأنه قال نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن أو الكتاب الحكيم (والثاني) أنه مفعول فعل منوي كأنه قال والقرآن الحكيم أعني تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر، وهذا ما اختاره الزمخشري وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ منوي كأنه قال هذا تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويحتمل وجهاً آخر على هذه القراءة وهو أن يكون مبتدأ خبره لتنذر كأنه قال تنزيل العزيز للإنذار وقوله (العزيز الرحيم) إشارة إلى أن الملك إذا أرسل رسولا فالمرسل إليهم إما أن يخالفوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم إلا إذا كان عزيزاً أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ يرحمهم الملك، أو نقول المرسل يكون معه في رسالته منع عن أشياء وإطلاق لأشياء فالمنع يؤكد العزة والإطلاق يدل على الرحمة.

قوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾.

قد تقدم تفسيره في قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وقيل المراد الإثبات وهو على وجهين (أحدهما) لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم، فتكون ما مصدرية (الثاني) أن تكون موصولة معناه: لتنذر قوماً الذين أنذر آباؤهم فهم غافلون، فعلى قولنا ما نافية تفسيره ظاهر فإن من لم ينذر آباؤه ويبعد الإنذار عنه فهو يكون غافلاً، وعلى قولنا هي للإثبات كذلك لأن معناه لتنذرهم إنذار آبائهم فإنهم غافلون، وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضي أن لا يكون آباؤهم منذرين والآخر يقتضي أن يكونوا منذرين وبينهما تضاد؟ نقول على قولنا ما نافية معناه ما أنذر آباؤهم وإنذار آبائهم الأولين لا ينافي أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين والمتأخرون منهم غير منذرين.

لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) يقتضي أن لا يكون النبي صلى الله عليه وسلم مأموراً بإنذار اليهود لأن آباءهم أنذروا . نقول ليس كذلك . أما على قولنا ما للإثبات فلا يرد ظاهر . وأما على قولنا هي نافية فكذلك . لما بينا ذلك في قوله تعالى (بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وقلنا إن المراد أن آباءهم قد أنذروا بعد ضلالهم وبعد إرسال من تقدم فإن الله إذا أرسل رسولاً فما دام في القوم من يبين دين ذلك النبي ويأمر به لا يرسل الرسول في أكثر الأمر . فإذا لم يبق فيهم من يبين ويضل الكل ويتباعد العهد ويفشو الكفر يبعث رسولاً آخر مقرراً لدين من كان قبله أو واضعاً لشرع آخر . فمعنى قوله تعالى (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) أي ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم واليهود والنصارى دخلوا فيه لأنهم لم تنذر آباؤهم الأدنون بعد ما ضلوا . فهذا دليل على كون النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثاً بالحق إلى الخلق كافة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فهم غافلون) دليل على أن البعثة لا تكون إلا عند الغفلة ، أما إن حصل لهم العلم بما أنزل الله بأن يكون فيهم من يبلغهم شريعة ويخالفونه حق عليهم الهلاك ولا يكون ذلك تعذيباً من قبل أن يبعث الله رسولاً . وكذلك من خالف الأمور التي لا تفتقر إلى بيان الرسل يستحق الإهلاك من غير بعثة . وليس هذا قولاً بمذهب المعتزلة من التحسين والتقبيح العقلي بل معناه أن الله تعالى لو خلق في قوم علماً بوجوب الأشياء وتركوه لا يكونون غافلين فلا يتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل

قوله تعالى : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

لما بين أن الإرسال أو الإنزال للإنذار . أشار إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء . وإنما عليه الإنذار وقد لا يؤمن من المنذرين كثير وفي قوله تعالى (لقد حق القول) وجوه (الأول) وهو المشهور أن المراد من القول هو قوله تعالى (حق القول مني لأملأن جهنم منك وممن تبعك) . (الثاني) هو أن معناه لقد سبق في علمه أن هذا يؤمن وأن هذا لا يؤمن فقال في حق البعض إنه لا يؤمن . وقال في حق غيره إنه يؤمن (فحق القول) أي وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره (الثالث) هو أن يقال المراد منه لقد حق القول الذي قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبان برهانه فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك لأن من يتوقف لاستماع الدليل في مهلة النظر يرجى منه الإيمان إذا بان له البرهان . فإذا تحقق وأكد بالإيمان ولم يؤمن أكثرهم فأكثرهم تبين أنهم لا يؤمنون لمضي وقت رجاء الإيمان ولأنهم لما لم يؤمنوا عند ما حق القول واستمروا فإن كانوا يريدون شيئاً أوضح من البرهان فهو العيان

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

وعند العيان لا ينفع الإيمان ، وقوله (على أكثرهم) على هذا الوجه معناه أن من لم تبلغه الدعوة والبرهان قليلون فحق القول على أكثر من لم يوجد منه الإيمان وعلى الأول والثاني ظاهر فإن أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا (وفيه وجه رابع) وهو أن يقال لقد حقت كلمة العذاب العاجل على أكثرهم فهم لا يؤمنون وهو قريب من الأول .

قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ .

لما بين أنهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال (إنا جعلنا) وفيه وجوه (أحدها) أن المراد إنا جعلناهم ممسكين لا ينفقون في سبيل الله كما قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) (والثاني) أن الآية نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنه يرضخ رأس محمد ، فرآه ساجداً فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه . (والثالث) وهو الأقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو أن ذلك كناية عن منع الله إياهم عن الاهتداء وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هل للوجهين الأولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام ؟ نقول : (الوجه الأول) له مناسبة وهي أن قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) يدخل فيه أنهم لا يصلون كما قال تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون . وأما على الوجه الثاني فالمناسبة خفية وهي أنه لما قال (لقد حق القول على أكثرهم) وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من إرسال الحجر وهو يضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلا والتفسير هو الوجه الثالث .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فهي) راجعة إلى ماذا ؟ نقول فيها وجهان (أحدهما) أنها راجعة إلى الأيدي وإن كانت غير مذكورة ولكنها معلومة لأن المغلول تكون أيديه مجموعة في الغل إلى عنقه (وثانيهما) وهو ما اختاره الزمخشري أنها راجعة إلى الأغلال ، معناه إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا ثقالا غلاظاً بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف يفهم من الغل في العنق المنع من الإيمان حتى يجعل كناية فنقول المغلول الذي بلغ الغل إلى ذقنه وبقي مقمحاً رافع الرأس لا يبصر الطريق الذي عند قدمه وذكر بعده أن بين يديه سداً ومن خلفه سداً فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته وقد ذكر من قبل أن المرسل على صراط مستقيم فهدا النبي بدعيه إلى الصراط المستقيم العقلي جعل نوعا كالمغلول الذي يجعل ممنوعا من إبصار الطريق الحسي ، ويحتمل وجها آخر وهو أن يقال الأغلال في الأعناق

وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

عبارة عن عدم الانقياد فإن المنقاد يقال فيه إنه وضع رأسه على الخط وخضع عنقه والذي في رقبته الغل الثخين إلى الذقن لا يطأطئ رأسه ولا يحركه تحريك المصدق . ويصدق هذا قوله (مقمحون) فإن المقمح هو الرافع رأسه كالمتأبي يقال بعير قامح إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والإيمان كالماء الزلال الذي به الحياة وكأنه تعالى قال (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهم مقمحون) لا يخضعون الرقاب لأمر الله .

وعلى هذا قوله تعالى ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ يكون متمماً لمعنى جعل الله إياهم مغلولين لأن قوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً) إشارة إلى أنهم لا يهتدون سبيل الرشاد فكأنه قال لا يبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولا ينقادون لك فيبصرون الحق فينقادون له لمكان الغل والإيمان المورث للإيقان . أما باتباع الرسول أولا فتلوح له الحقائق ثانياً وإما بظهور الأمور أولا واتباع الرسول ثانياً . ولا يتبعون الرسول أولا لأنهم مغلولون فلا يظهر لهم الحق من الرسول ثانياً ، ولا يظهر لهم الحق أولا لأنهم واقعون في السد فلا يتبعون الرسول ثانياً (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال المانع ، إما أن يكون في النفس ، وإما أن يكون خارجاً عنها ، ولهم المانعان جميعاً من الإيمان ، أما في النفس فالغل ، وأما من الخارج فالسد ، ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التي في أنفسهم كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) وذلك لأن المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه ، ولا يقع نظرهم على الآفاق لأن من بين السدين لا يبصرون الآفاق فلا تبين لهم الآيات التي في الآفاق وعلى هذا فقوله (إنا جعلنا في أعناقهم) (وجعلنا من بين أيديهم) إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق ، وفي تفسير قوله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم سداً) مسائل :

(المسألة الأولى) السد من بين الأيدي ذكره ظاهر الفائدة فإنهم في الدنيا سالكون وينبغي أن يسلكوا الطريقة المستقيمة (ومن بين أيديهم سداً) فلا يقدرون على السلوك ، وأما السد من خلفهم فما الفائدة فيه ؟ فنقول الجواب عنه من وجوه : (الأول) هو أن الإنسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها وهداية نظرية والكافر ما أدركها فكأنه تعالى يقول (جعلنا من بين أيديهم سداً) فلا يسلكون طريقة الاهتداء التي هي نظرية (وجعلنا من خلفهم سداً) فلا يرجعون إلى الهداية الجبلية التي هي الفطرية (الثاني) هو أن الإنسان مبدؤه من الله ومصيره إليه فعمى الكافر لا يبصر ما بين يديه من

وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

المصير إلى الله ولا ما خلفه من الدخول فى الوجود بخلق الله (الثالث) هو أن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فان انسد الطريق الذى قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع وإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذى هو فيه لا يكون موضع إقامة لأنه مهلك فقوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم) إشارة إلى إهلاكهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (فأغشيناهم) بحرف الفاء يقتضى أن يكون الاغشاء بالسد متعلقاً ويكون الإغشاء مرتباً على جعل السد فكيف ذلك ؟ فنقول ذلك من وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك بياناً لأمور مترتبة يكون بعضها سبباً للبعض فكأنه تعالى قال (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) فلا يبصرون أنفسهم لإقماحهم (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً) فلا يبصرون ما فى الآفاق وحينئذ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله (وجعلنا على أبصارهم غشاوة) فلا يبصرون شيئاً أصلا (وثانيهما) هو أن ذلك بيان لكون السد قريباً منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم فان من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقاً بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئاً ، أما غير السد فللحجاب ؛ وأما عين السد فلكون شرط المرئى أن لا يكون قريباً من العين جداً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر السدين من بين الأيدى ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه ؟ نقول : أما على قولنا إنه إشارة إلى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر ، وأما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة ، لأنهم إن قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شىء ومولين عن شىء فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك ، فكيفما يتوجه الكافر يجعل الله بين يديه سداً (ووجه آخر) أحسن مما ذكرنا وهو أنا لما بينا أن جعل السد صار سبباً للاغشاء كان السد ملتزقاً به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة يمنة ولا يسرة فلا حاجة إلى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) يحتمل ما ذكرنا أنهم لا يبصرون شيئاً ، ويحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد . فيظن أنه على الطريقة المستقيمة ، وغير ضال .

ثم إنه تعالى بين أن الإنذار لا ينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والإغشاء والإعماء بقوله تعالى ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ أى الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى الإيمان منهم إذ لا وجود له منهم على التقديرين ، فان قيل إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار ؟ نقول قد أجبنا فى غير هذا الموضع أنه تعالى قال (سواء عليهم) وما قال سواء

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

عليك فالإنذار بالنسبة إلى النبي ﷺ ليس كعدم الإنذار لأن أحدهما يخرج له عن العهدة وسبب في زيادة سيادته عاجلاً وسعادته آجلاً، وأما بالنسبة إليهم على السواء فالإنذار للنبي ﷺ ليخرج عما عليه وينال ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار في دار القرار.

قوله تعالى: ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ والترتيب ظاهر وفي التفسير مسائل.

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال من قبل (لتنذر) وذلك يقتضي الإنذار العام على ما بينا وقال (إنما تنذر) وهو يقتضي التخصيص فكيف الجمع بينهما؟ نقول من وجوه: (الأول) هو أن قوله (لتنذر) أي كيفما كان سواء كان مفيداً أو لم يكن وقوله (إنما تنذر) أي الإنذار المفيد لا يكون إلا بالنسبة إلى من يتبع الذكر ويخشى (الثاني) هو أن الله تعالى لما قال إن الإرسال والإنزال، وذكر أن الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى أهل العناد قال لنبيه ليس إنذارك غير مفيد من جميع الوجوه، فأنذر على سبيل العموم وإنما تنذر بذلك الإنذار العام من يتبع الذكر كأنه يقول يا محمد إنك بإنذارك تهدي ولا تدري من تهدي فأنذر الأسود والأحمر ومقصودك من يتبع إنذارك وينتفع بذكراك (الثالث) هو أن نقول قوله (لتنذر) أي أولاً فإذا أنذرت وبالغت وبلغت واستهزأ البعض وتولى واستكبر وولى، فأعرض بعد ذلك فإنما تنذر الذين اتبعوك (الرابع) وهو قريب من الثالث إنك تنذر الكل بالأصول، وإنما تنذر بالفروع من ترك الصلاة والزكاة من اتبع الذكر وآمن.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من اتبع الذكر) يحتمل وجوهاً (الأول) وهو المشهور من اتبع القرآن (الثاني) من اتبع ما في القرآن من الآيات ويدل عليه قوله تعالى (والقرآن ذي الذكر) فجعل القرآن نفس الذكر (الثالث) من اتبع البرهان فإنه ذكر يكمل الفطرة وعلى كل وجه فمعناه: إنما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فقوله (اتبع الذكر) أي آمن، وقوله (وخشي الرحمن) أي عمل صالحاً وهذا الوجه يتأيد بقوله (فبشره بمغفرة وأجر كريم) لأنا ذكرنا مراراً أن الغفران جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور والأجر الكريم جزاء العمل كما قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) وتفسير الذكر بالقرآن يتأيد بتعريف الذكر بالألف واللام، وقد تقدم ذكر القرآن في قوله تعالى (والقرآن الحكيم) وقوله (وخشي الرحمن) فيه لطيفة وهي أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن ورحيم فالعاقل

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

لا ينبغي أن يترك الخشية فان كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر فالخوف منه أتم مخافة أن ينقطع عنه النعم المتواترة (ونكتة اللطيفة) هي أن من أسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) حتى قال بعض الأئمة هما علمان إذا عرفت هذا فالله اسم ينبئ عن الهيبة والرحمن ينبئ عن العاطفية فقال في موضع يرجو الله، وقال ههنا (وخشي الرحمن) يعني مع كونه ذاهبية لا تقطعوا عنه رجاءكم ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه ، وقوله (بالغيب) يعني بالدليل وإن لم ينته إلى درجة المرئي المشاهد فان عند الانتهاء إلى تلك الدرجة لا يبقى للخشية فائدة ، والمشهور أن المراد بالغيب ما غاب عنا وهو أحوال القيامة ، وقيل إن الوحدانية تدخل فيه ، وقوله (فبشره) فيه إشارة إلى الأمر الثاني من أمري الرسالة فان النبي صلى الله عليه وسلم بشير ونذير وقد ذكر أنه أرسل لينذر وذكر أن الانذار النافع عند اتباع الذكر ، فقال بشر : كما أنذرت ونصحت ، وقوله (بمغفرة) على التنكير أي بمغفرة واسعة تستر من جميع الجوانب حتى لا يرى عليه أثر من آثار النفس ويظهر عليه أنوار الروح الزكية (وأجر كريم) أي ذي كرم ، وقد ذكرنا ما في الكريم في قوله (ورزق كريم) وفي قوله (رزقا كريما) .

قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ .

في الترتيب وجوه (أحدها) أن الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الأصول الثلاثة التي يصير بها المكلف مؤمناً مسلماً ذكر أصلا آخر وهو الحشر (وثانيها) وهو أن الله تعالى لما ذكر الانذار والبشارة بقوله (فبشره بمغفرة) ولم يظهر ذلك بكماله في الدنيا فقال إن لم ير في الدنيا فالله يحيي الموتى ويجزي المنذرين ويجزي المبشرين (وثالثها) أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو إحياء الموتى وفي التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (إنا نحن) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مبتدأ وخبراً كقول القائل : أنا أبو النجم وشعري شعري

ومثل هذا يقال عند الشهرة العظيمة ، وذلك لأن من لا يعرف يقال له من أنت ؟ فيقول أنا ابن فلان فيعرف ومن يكون مشهوراً إذا قيل له من أنت يقول أنا أي لا معرف لي أظهر من نفسي فقال إنا نحن معروفون بأوصاف الكمال ، وإذا عرفنا بأنفسنا فلا تنكر قدرتنا على إحياء الموتى (وثانيهما) أن يكون الخبر (نحيي) كأنه قال إنا نحيي الموتى ، و(نحن) يكون تأكيداً والأول أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنا نحن فيه إشارة إلى التوحيد لأن الاشتراك يوجب التمييز بأمر آخر فإن زيداً إذا شاركه غيره في الاسم فلو قال أنا زيد لا يحصل التعريف التام . لأن للسامع أن يقول : أيما زيد ؟ فيقول ابن عمرو ولو كان هناك زيد آخر أبوه عمرو لا يكفي قوله ابن عمرو ، فلما قال الله (إنا نحن) أي ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى تقول أنا كذا فنمتاز ، وحينئذ تصير الأصول الثلاثة مذكورة : الرسالة والتوحيد والحشر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ونكتب ما قدموا) فيه وجوه (أحدها) المراد ما قدموا وأخروا فاكتفى بذكر أحدهما كما في قوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) والمراد والبرد أيضاً (وثانيها) المعنى ما أسلفوا من الأعمال صالحة كانت أو فاسدة وهو كما قال تعالى (بما قدمت أيديهم) أي بما قدمت في الوجود على غيره وأوجدته (وثالثها) نكتب نياتهم فإنها قبل الأعمال وآثارهم أي أعمالهم على هذا الوجه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ وآثارهم فيه وجوه (الأول) آثارهم أقدامهم فإن جماعة من أصحابه بعدت دورهم عن المساجد فأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم » (والثاني) هي السنن الحسنة ، كالكتب المصنفة والقناطر المبنية ، والحبائس الدارة ، والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التي وضعها ظالم والكتب المضلة ، وآلات الملاهي وأدوات المناهي المعمولة الباقية . وهو في معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجر العامل شيء ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » فما قدموا هو أعمالهم وآثارهم أعمال الشاكرين فيثيبهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها (والثالث) ما ذكرنا أن الآثار الأعمال وما قدموا النيات فإن النية قبل العمل

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الكتابة قبل الإحياء فكيف أخر في الذكر حيث قال نحيي ونكتب ولم يقل نكتب ما قدموا ونحييهم ؟ نقول الكتابة معظمة لأمر الإحياء لأن الإحياء إن لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة في نفسها إن لم تكن إحياء وإعادة لا يبقى لها أثر أصلا فالإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره ، فلهذا قدم الإحياء ، ولأنه تعالى لما قال (إنا نحن) وذلك يفيد العظمة والجبروت والإحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه فقرن بالتعريف الأمر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم وقوله (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون ذلك بياناً لكون ما قدموا وآثارهم أمراً مكتوباً عليهم لا يبدل . فإن القلم جف بما هو كائن ، فلما قال (نكتب ما قدموا) بين أن قبل ذلك كتابة أخرى فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه (وثانيها) أن يكون ذلك مؤكداً لمعنى قوله (ونكتب) لأن من يكتب شيئاً في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين وهذا كقوله تعالى (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) (وثالثها) أن يكون ذلك تعميماً بعد

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣)

التخصيص كأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه ، بل كل شيء محصى في إمام مبين ، وهذا يفيد أن شيئاً من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته ، وهذا كقوله تعالى (وكل شيء فعلوه في الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر) يعني ليس ما في الزبر منحصراً فيما فعلوه بل كل شيء فعلوه مكتوب ، وقوله (أحصيناه) أبلغ من كتبناه لأن من كتب شيئاً مفرقاً يحتاج إلى جمع عدده فقال هو محصى فيه وسمي الكتاب إماماً لأن الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق وإحياء وإماتة اتبعوه وقيل هو اللوح المحفوظ ، وإمام جاء جمعاً في قوله تعالى (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) أي بأئمتهم وحينئذ فإمام إذا كان فرداً فهو ككتاب وحجاب وإذا كان جمعاً فهو كجبال وحبال والمبين هو المظهر للأمور لكونه مظهراً للملائكة ما يفعلون وللناس ما يفعل بهم وهو الفارق يفرق بين أحوال الخلق فيجعل فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير .

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾

وفيه وجهان ، والترتيب ظاهر على الوجهين (الوجه الأول) هو أن يكون المعنى واضرب لأجلهم مثلاً (والثاني) أن يكون المعنى واضرب لأجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلاً أي مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية وعلى الأول نقول لما قال الله (إنك لمن المرسلين) وقال (لتنذر) قال قل لهم (ما كنت بدعاً من الرسل) بل قبلي بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الإقامة ، وعلى الثاني نقول لما قال الله تعالى إن الإنذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبي عليه الصلاة والسلام فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلاً ، أي مثل لهم عند نفسك مثلاً حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والإيذاء ، وأنت جئتهم واحداً وقومك أكثر من قوم الثلاثة فإنهم جاءوا قرية وأنت بعثت إلى العالم ، وفي التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما معنى قول القائل ضرب مثلاً ؟ وقوله تعالى (واضرب) مع أن الضرب في اللغة ، إما إمساس جسم جسماً بعنف ، وإما السير إذا قرن به حرف في كقوله تعالى (إذا ضربتم في الأرض) ؟ نقول قوله ضرب مثلاً معناه مثل مثلاً ، وذلك لأن الضرب اسم للنوع يقال هذه الأشياء من ضرب واحد أي اجعل هذا وذاك من ضرب واحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أصحاب القرية ، معناه واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية فترك المثل وأقيم الأصحاب مقامه في الإعراب كقوله (واسأل القرية) هذا قول الزمخشري في الكشاف ، ويحتمل أن يقال لا حاجة إلى الإضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلاً أو مثل أصحاب القرية بهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذ جاءها المرسلون ، إذ منصوبة لأنها بدل من أصحاب القرية كأنه قال تعالى

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا

(واضرب لهم) وقت مجيء المرسلين ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك ، وهذا أيضاً قول الزمخشري وعلى قولنا إن هذا المثل مضروب لنفس محمد صلى الله عليه وسلم تسلية فيحتمل أن يقال إذ ظرف منصوب بقوله (اضرب) أي اجعل الضرب ، كأنه حين مجيئهم وواقع فيه . والقرية أنطاكية والمرسلون من قوم عيسى وهم أقرب مرسل أرسل إلى قوم إلى زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة كما بين الله تعالى وقوله (إذ أرسلنا) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون إذ أرسلنا بدلا من إذ جاءها كأنه قال اضرب لهم مثلا ، إذ أرسلنا إلى أصحاب القرية اثنين (وثانيهما) وهو الأصح والأوضح أن يكون إذ ظرفاً والفعل الواقع فيه جاءها أي جاءها المرسلون حين أرسلناهم إليهم أي لم يكن مجيئهم من تلقاء أنفسهم وإنما جاءوهم حيث أمروا . وهذا فيه لطيفة : وهي أن في الحكاية أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم إلى أنطاكية فقال تعالى إرسال عيسى عليه السلام هو إرسالنا ورسول رسول الله بإذن الله رسول الله فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وأنت رسول الله فإن تكذيبهم كتكذيبك فتتم التسلية بقوله (إذ أرسلنا) وهذا يؤيد مسألة فقهية وهي أن وكيل الوكيل بإذن الموكل وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه وينعزل إذا عزله الموكل الأول ، وهذا على قولنا (واضرب لهم مثلا) ضرب المثل لأجل محمد ﷺ ظاهر .

وقوله ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ﴾

في بعث الاثنين حكمة بالغة وهي أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى بإذن الله فكان عليهما إنهاء الأمر إلى عيسى والإتيان بما أمر الله ، والله عالم بكل شيء لا يحتاج إلى شاهد يشهد عنده ، وأما عيسى فهو بشر فأمره الله بإرسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى حجة تامة .

وقوله ﴿ فعززنا بثالث ﴾ أي قوينا وقرىء فعززنا بثالث مخففاً من عز إذا غلب فكأنه قال فغلبنا نحن وقهرنا بثالث والأول أظهر وأشهر وترك المفعول حيث لم يقل فعززناهما لمعنى لطيف وهو أن المقصود من بعثهما نصرة الحق لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم بعث رسله إلى الأطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث اثنين ، نقول النبي بعث لتقرير الفروع وهو دون الأصول فاكتفى بواحد فإن خبر الواحد في الفروع مقبول ، وأما هما فبعثا بالأصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين وإلا لما كفى إرسال اثنين أيضاً ولا ثلاثة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الله تعالى لموسى عليه السلام (سنشد عضدك) فذكر المفعول هناك ولم يذكره ههنا مع أن المقصود هناك أيضاً نصرة الحق فنقول موسى عليه السلام كان أفضل من هرون

إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾

وهرون بعث معه إظهاره حيث قال (فأرسله معي) فكان هرون مبعوثاً ليصدق موسى فيما يقول ويقوم بما يأمره . وأما هاهنا فكل واحد مستقل ناطق بالحق فكان هناك المقصود تقوية موسى وإرسال من يؤنس معه وهو هرون ، وأما هاهنا فالمقصود تقوية الحق فظهر الفرق .

ثم بين الله ما جرى منهم وعليهم مثل ما جرى من محمد ﷺ وعليه فقالوا ﴿إنا إليكم مرسلون﴾ كما قال (إنك لمن المرسلين) وبين ما قال القوم بقوله ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ جعلوا كونهم بشراً مثلهم دليلا على عدم الإرسال . وهذا عام من المشركين قالوا في حق محمد (أأنزل عليه الذكر) وإنما ظنوه دليلا بناء على أنهم لم يعتقدوا في الله الاختيار . وإنما قالوا فيه إنه موجب بالذات وقد استوينا في البشرية فلا يمكن الرجحان . والله تعالى رد عليهم قولهم بقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وبقوله (الله يجتبي إليه من يشاء) إلى غير ذلك . وقوله (وما أنزل الرحمن من شيء) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متمماً لما ذكروه فيكون الكل شبهة واحدة . ووجهه هو أنهم قالوا أنتم بشر فما نزلتم من عند الله وما أنزل الله إليكم أحداً فكيف صرتم رسلا لله ؟ (وثانيهما) أن يكون هذا شبهة أخرى مستقلة ووجهه هو أنهم لما قالوا أنتم بشر مثلنا فلا يجوز رجحانكم علينا ذكروا الشبهة من جهة النظر إلى المرسلين ، ثم قالوا شبهة أخرى من جهة المرسل ، وهو أنه تعالى ليس بمنزل شيئاً في هذا العالم ، فإن تصرفه في العالم العلوي وللعلويات التصرف في السفليات على مذهبهم . فالله تعالى لم ينزل شيئاً من الأشياء في الدنيا فكيف أنزل إليكم . وقوله (الرحمن) إشارة إلى الرد عليهم ، لأن الله لما كان رحمن الدنيا والإرسال رحمة ، فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمن . فقال إنهم قالوا : ما أنزل الرحمن شيئاً ، وكيف لا ينزل الرحمن مع كونه رحمن شيئاً هو الرحمة الكاملة .

قوله تعالى : ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ أي ما أنتم إلا كاذبين .

﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا ، بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين و (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) وأكدوه باللام ، لأن يعلم الله يجري مجرى القسم ، لأن من يقول يعلم الله فيما لا يكون فقد نسب الله إلى الجهل وهو سبب العقاب . كما أن الحنث سببه . وفي قوله (ربنا يعلم) إشارة إلى الرد عليهم حيث قالوا أنتم بشر ، وذلك لأن الله إذا كان يعلم أنهم لمرسلون ، يكون كقوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) يعني هو عالم بالأمور وقادر ، فاختارنا بعلمه لرسالته .

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

ثم قال ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ تسلية لأنفسهم ، أى نحن خرجنا عن عهدة ما علينا رحماً لهم على النظر ، فإنهم لما قالوا (ما علينا إلا البلاغ) كان ذلك يوجب تفكرهم فى أمرهم حيث لم يطلبوا منهم أجراً ولا قصدوا رياسة ، وإنما كان شغلهم التبليغ والذكر ، وذلك مما يحمل العاقل على النظر (والمبين) يحتمل أموراً (أحدها) البلاغ المبين للحق عن الباطل ، أى الفارق بالمعجزة والبرهان (وثانيها) البلاغ المظهر لما أرسلنا للكل ، أى لا يكفى أن نبلغ الرسالة إلى شخص أو شخصين (وثالثها) البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن ، فإذا تم ذلك ولم يقبلوا يحق هنالك الهلاك .

ثم كان جوابهم بعد هذا أنهم ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم ﴾ وذلك أنه لما ظهر من الرسل المبالغة فى البلاغ ظهر منهم الغلو فى التكذيب ، فلما قال المرسلون (إنا إليكم مرسلون) قالوا (إن أنتم إلا تكذبون) ولما أكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا (ربنا يعلم) أكدوا قولهم بالتطير بهم فكأنهم قالوا فى الأول كنتم كاذبين ، وفى الثانى صرتم مصرين على الكذب ، حالفين مقسمين عليه ، واليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع ، فتشاءمنا بكم ثانياً ، وفى الأول كنا نترككم وفى الثانى لا نترككم لكون الشؤم مدركنا بسببكم فقالوا ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ وقوله لنرجمنكم يحتمل وجهين (أحدهما) لنشتمنكم من الرجم بالقول وعلى هذا فقوله (وليمسنكم) ترقى كأنهم قالوا ولا نكتفى بالشتم بل يؤدى ذلك إلى الضرب والإيلام الحسى (وثانيهما) أن يكون المراد الرجم بالحجارة ، وحينئذ فقوله (وليمسنكم) بيان للرجم ، يعنى ولا يكون الرجم رجماً قليلا نرجمكم بحجر وحجرين ، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت وهو عذاب أليم ، ويكون المراد (لنرجمنكم وليمسنكم) بسبب الرجم عذاب منا أليم ، وقد ذكرنا فى الأليم أنه بمعنى المؤلم ، والفعيل بمعنى مفعل قليل ، ويحتمل أن يقال هو من باب قوله (عيشة راضية) أى ذات رضا ، فالعذاب الأليم هو ذو ألم ، وحينئذ يكون فعيلا بمعنى فاعل وهو كثير .

ثم أجابهم المرسلون بقولهم ﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ أى شؤمكم معكم وهو الكفر .

ثم قالوا ﴿ أئن ذكرتم ﴾ جواباً عن قولهم (لنرجمنكم) يعنى أتفعلون بنا ذلك وإن ذكرتم أى بين لكم الأمر بالمعجز والبرهان ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ حيث تجعلون من يتبرك به كمن

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٠)

يتشاءم به وتقصدون إيلام من يجب في حقه الإكرام أو (مسرفون) حيث تكفرون ، ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان ، فإن الكافر مسيء ، فإذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل ويصر يكون مسرفاً ، والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك في كثير من الأشياء ، أما في التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك في الإيلام والإكرام ، وأما في الكفر فلأن الواجب اتباع الدليل ، فإن لم يوجد به فلا أقل من أن لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الإيمان ، فإن قيل بل للإضراب فما الأمر المضرب عنه ؟ نقول يحتمل أن يقال قوله (أئن ذكرتم) وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل إلى الكذب بقولهم (إن أنتم إلا تكذبون) فكأنهم قالوا أنحن كاذبون وإن جئنا بالبرهان ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) ويحتمل أن يقال أنحن مشئومون ، وإن جئنا ببيان صحة ما نحن عليه ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) ويحتمل أن يقال أنحن مستحقون للرجم والإيلام ، وإن بينا صحة ما أتينا به ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) وأما الحكاية فمشهورة ، وهي أن عيسى عليه السلام بعث رجلين إلى أنطاكية فدعيا إلى التوحيد وأظهرا المعجزة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فحبسهما الملك ، فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة ، وقرب نفسه إلى الملك بحسن التدبير ، ثم قال له : إني أسمع أن في الحبس رجلين يدعيان أمراً بديعاً ، أفلا يحضران حتى نسمع كلامهما ؟ قال الملك بلى ، فأحضرا وذكرا مقالتهما الحقة ، فقال لهما شمعون : فهل لكما آية ؟ قالا نعم ، فأبرآ الأكمه والأبرص وأحييا الموتى ، فقال شمعون : أيها الملك ، إن شئت أن تغلبهم ، فقل للآلهة التي تعبدونها تفعل شيئاً من ذلك ، فقال الملك : أنت لا يخفى عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم ، فقال شمعون : فإذن ظهر الحق من جانبهم ، فآمن الملك وقوم وكفر آخرون ، وكانت الغلبة للمكذبين .

قوله تعالى : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين ﴾ .

وفي فائدته وتعلقه بما قبله وجهان : (أحدهما) أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعي ، وعلى هذا فقوله (من أقصى المدينة) فيه بلاغة باهرة ، وذلك لأنه لما (جاء من أقصى المدينة رجل) وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة (وثانيهما) أن ضرب المثل لما كان لمحمد ﷺ تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ من ذكر الرسل سعي المؤمنين في تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا ، ووصول الجزاء الأوفى إليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد ، كما أن ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد ﷺ ، وفي التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (وجاء من أقصى المدينة رجل) في تنكير الرجل مع أنه كان معروفاً معلوماً عند الله فائدتان : (الأول) أن يكون تعظيماً لشأنه أي رجل كامل في الرجولية

اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي

(الثانية) أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال إنهم تواطئوا ، والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الأصنام وقد آمن بمحمد ﷺ قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله ، ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (يسعى) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ، ليكونوا في النصح باذلين جهدهم ، وقد ذكرنا فائدة قوله (من أقصى المدينة) وهي تبليغهم الرسالة بحيث انتهى إلى من في (أقصى المدينة) والمدينة هي أنطاكية ، وهي كانت كبيرة شاسعة وهي الآن دون ذلك ومع هذا فهي كبيرة وقوله تعالى (قال ياقوم اتبعوا المرسلين) فيه معان لطيفة (الأول) في قوله (ياقوم) فإنه ينبىء عن إشفاق عليهم وشفقة فإن إضافتهم إلى نفسه بقوله (ياقوم) يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيراً ، وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون ياقوم اتبعون فإن قيل قال هذا الرجل (اتبعوا المرسلين) وقال ذلك اتبعوني فما الفرق ؟ نقول هذا الرجل جاءهم وفي أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته، فقال اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل ، وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مراراً فقال اتبعوني في الإيمان بموسى وهرون عليهما السلام ، واعلموا أنه لو لم يكن خيراً لما اخترته لنفسي وأنتم تعلمون أني اخترته ، ولم يكن للرجل الذي جاء من أقصى المدينة أن يقول أنتم تعلمون اتباعي لهم (الثاني) جمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه فقوله (اتبعوا) نصيحة وقوله (المرسلين) إظهار أنه آمن (الثالث) قدم إظهار النصيحة على إظهار الإيمان لأنه كان ساعياً في النصح ، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل وقوله (رجل يسعى) يدل على كونه مريداً للنصح وما ذكر في حكايته أنه كان يقتل وهو يقول « اللهم اهد قومي » .

قوله تعالى : ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ وهذا في غاية الحسن وذلك من حيث إنه لما قال (اتبعوا المرسلين) كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لا شك أن الخلق في الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة ، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه ، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين ، إما مغالاة الدليل في طلب الأجرة ، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق ، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق ، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين ، أليسوا بمهتدين ، فاتبعوهم .

قوله تعالى : ﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني ﴾ لما قال (وهم مهتدون) بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد إلى عبادة الحي القيوم ، ومن عبادة ما لا ينفع إلى عبادة من منه كل نفع (وفيه لطائف) الأول قوله (مالي) أي مالي مانع من جانبي ، إشارة إلى أن الأمر من جهة المعبود ظاهر لا خفاء فيه ، فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولا مانع من جانبي فلا جرم

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾

عدته ، وفي العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة أخرى (ولطيفة ثانية) وهي أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذي فطركم ، لم يكن في البيان مثل قوله (ومالي) لأنه لما قال (ومالي) وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لأنه أعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع ، وأما لو قال (مالكم) جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه ، فإن قيل قال الله (مالكم لا ترجون لله وقاراً) نقول القائل هناك غير مدعو ، وإنما هو داع وههنا الرجل مدعو إلى الإيمان فقال (ومالي لا أعبد) وقد طلب مني ذلك (الثانية) قوله (الذي فطرني) إشارة إلى وجود المقتضي فإن قوله (ومالي) إشارة إلى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضي ، فقوله (الذي فطرني) ينبيء عن الاقتضاء ، فإن الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك إكرامه وتعظيمه ، ومنعم بالإيجاد والمنعم يجب على المنعم شكر نعمته (الثالثة) قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضي مع أن المستحسن تقديم المقتضي حيث وجد المقتضي ولا مانع ، فيوجد لأن المقتضي لظهوره كان مستغنياً عن البيان رأساً فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان لوجود الحاجة إليه (الرابعة) اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال (ومالي لا أعبد) بإسناد العبادة إلى نفسه اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة على نفسه ، وبيان ذلك هو أن خالق عمرو يجب على زيد عبادته لأن من خلق عمراً لا يكون إلا كامل القدرة شامل العلم واجب الوجود وهو مستحق للعبادة بالنسبة إلى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر إيجاباً .

وأعلم أن المشهور في قوله (فطرني) خلقني اختراعاً وابتداعاً ، والغريب فيه أن يقال (فطرني) أي جعلني على الفطرة كما قال الله تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها) وعلى هذا فقوله (ومالي لا أعبد) أي لم يوجد في مانع فأنا باق على فطرة ربي والفطرة كافية في الشهادة والعبادة فإن قيل فعلى هذا يختلف معنى الفطر في قوله (فاطر السموات) نقول قد قيل بأن (فاطر السموات) من الفطر الذي هو الشق فالمحذور لازم أو نقول المعنى فيهما واحد كأنه قال فطر المكلف على فطرته وفطر السموات على فطرتها والأول من التفسير أظهر .

قوله تعالى : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ إشارة إلى الخوف والرجاء كما قال ادعوه خوفاً وطمعاً وذلك لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى وفيه أيضاً معنى لطيف وهو أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مراراً (فالأول) عابد يعبد الله لكونه إلهاً مالكاً سواء أنعم بعد ذلك أو لم ينعم ، كالعبد الذي يجب عليه خدمة سيده سواء أحسن إليه أو أساء (والثاني) عابد يعبد

ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً

الله تقدمة الرتبة إليه (والثالث) عابد يعبد الله خوفاً فالأول من يخدم المولى ، ومثال الثاني من يخدم الغائم لفضل الغانم عنده من القسم الأعلى وقال (ومالي لا أعبد الذي فطرني) أي هو مالكي أعبده لا أنظر إلى ما يعطيني ولا أنظر إلى أن لا يعذبني ولا يحسنهم دون ذلك فقال (وإليه ترجعون) أي خوفكم منه ورجاؤكم فيه فكيف لا تعبدونه ، ولهذا لم يقل وإليه أرجع كما قال فطرني لأنه صار عابداً من القسم الأول فرجوعه إلى الله لا يكون إلا للإكرام وليس سبب عبادته ذلك بل غيره .

قوله تعالى : ﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ لتتم التوحيد ، فإن التوحيد بين التعطيل والإشراك ، فقال ومالي لا أعبد إشارة إلى وجود الإله وقال (أأتخذ من دونه) إشارة إلى نفي غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله ، وفي الآية أيضاً لطائف (الأولى) ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر ، وذلك أن من أخبر عن شيء فقال مثلاً لا أعبد يصح من السامع أن يقول له لم لا تعبد فيسأله عن السبب ، فإذا قال (أأتخذ) يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذي يطالب به عند الإخبار كأنه يقول استشرتك فدلني والمستشار يتفكر ، فكأنه يقول تفكر في الأمر تفهم من غير إخبار مني (الثانية) قوله من دونه وهي لطيفة عجيبة ، وبيانها هو أنه لما بين أنه يعبد الله بقوله (الذي فطرني) بين أن من دونه لا تجوز عبادته فإن عبد غير الله وجب عبادة كل شيء مشارك للمعبود الذي اتخذ غير الله ، لأن الكل محتاج مفتقر حادث ، فلو قال لا أتخذ آلهة لقيل له ذلك يختلف إن اتخذت إلهاً غير الذي فطرك ، ويلزمك عقلاً أن تتخذ آلهة لا حصر لها ، وإن كان إلهك ربك وخالقك فلا يجوز أن تتخذ آلهة (الثالثة) قوله (أأتخذ) إشارة إلى أن غيره ليس بإله لأن المتخذ لا يكون إله ، ولهذا قال تعالى (ما اتخذ صاحبة ولا ولداً) وقال (الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً) لأنه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز ، وإنما النصارى قالوا تبنى الله عيسى وسماه ولداً فقال (ولم يتخذ ولداً) ولا يقال قال الله تعالى (فاتخذه وكيلاً) في حق الله تعالى حيث قال (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) نقول ذلك أمر متجدد ، وذلك لأن الإنسان في أول الأمر يكون قبل الضعيف ضعيف القوة ، فلا يجوز أن يترك أسباب الدنيا ويقول إني أتوكل فلا يحسن من الواحد منا أن لا يشتغل بأمر أصلاً ويترك أطفاله في ورطة الحاجة ولا يوصل إلى أهله نفقتهم ويجلس في مسجد وقلبه متعلق بعطاء زيد وعمرو ، فإذا قوي بالعبادة قلبه ونسي نفسه فضلاً عن غيره وأقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا وأسبابها وفوض أمره إلى الله حينئذ يكون من الأبرار الأخيار ، فقال الله لرسوله أنت علمت أن الأمور كلها بيد الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت أن المشرق والمغرب وما فيهما وما يقع بينهما بأمر الله ، ولا إله يطلب لقضاء

﴿ إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾

الحوائج إلا هو فاتخذه وكيلا ، وفوض جميع أمورك إليه فقد ارتقيت عن درجة من يؤمر بالكسب الحلال وكنت من قبل تحرز في الحلال وهي قوله (فاتخذه وكيلا) أي في جميع أمورك ، وقوله تعالى (لا تغن عني) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون كالوصف كأنه قال أأتخذ آلهة غير مغنية عند إرادة الرحمن بي ضراً (وثانيهما) أن يكون كلاماً مستأنفاً كأنه قال لا أتخذ من دونه آلهة .

قوله تعالى : ﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (إن يردن الرحمن بضر) ولم يقل إن يرد الرحمن بي ضراً ، وكذلك قال تعالى (إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره) ولم يقل إن أراد الله بي ضراً ، نقول الفعل إذا كان متعدياً إلى مفعول واحد تعدى إليه من غير حرف كالذي يتعدى بحرف في موضع ذهب به وخرج به ، ثم إن المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ما هو أولى بوقوع الفعل عليه ويجعل الآخر مفعولا بحرف فإذا قال القائل مثلا ؟ كيف حال فلان : يقول اختصه الملك بالكرامة والنعمة فإذا قال كيف كرامة فلان ؟ يقول اختصها الملك به فيجعل المسئول عنه مفعولا بغير حرف لأنه هو المقصود إذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء في البؤس والرخاء وليس الضر بمقصود بيانه ، كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على إيمانه بحكم وعد الله ، ويؤيد هذا قوله من قبل (الذي فطرني) حيث جعل نفسه مفعول الفطرة ، وكذلك جعلها مفعول الإرادة وذكر الضر وقع تبعاً وكذا القول في قوله تعالى (إن أرادني الله بضر) المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله وليس الضر بخصوصه مقصوداً بالذكر ويؤيده ما تقدم حيث قال تعالى (أليس الله بكاف عبده) يعني هو تحت إرادته ، ويتأيد ما ذكرناه بالنظر في قوله تعالى (قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً) حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر والمفعول بحرف هو المكلف ، وذلك لأن المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلا له ، وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر مقصوداً بالذكر لزجرهم ، فإن قيل فقد ذكر الله الرحمة أيضاً حيث قال (أو أراد بكم رحمة) فتكون المقصود ذلك ، ويدل عليه قوله تعالى (ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) وإنما ذكر الرحمة تتمة للأمر بالتقسيم الحاصر ، وكذلك إذا تأملت في قوله تعالى (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً) فإن الكلام أيضاً مع الكفار وذكر النفع وقع تبعاً لحصر الأمر بالتقسيم ، ويدل عليه قوله تعالى (بل كان الله بما تعملون خبيراً) فإنه للتخويف ، وهذا كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) ، والمقصود إني على هدى وأنتم في ضلال ، ولو قال هكذا لمنع مانع فقال بالتقسيم كذلك ههنا

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي

هم المرسلون . قال المفسرون أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال : إني آمنت بربكم فاسمعوا قولي واشهدوا لي (وثانيها) هم الكفار كأنه لما نصحهم وما نفعهم قال فأنا آمنت فاسمعون (وثالثها) بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم ، كما قلنا في قول الواعظ حيث يقول يا مسكين ما أكثر أملك وما أنزر عملك يريد به كل سامع يسمعه وفي قوله (فاسمعون) فوائد (أحدها) أنه كلام مترو متفكر حيث قال (فاسمعون) فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين يتفكر (وثانيها) أنه ينبه القوم ويقول إني أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك (وثالثها) أن يكون المراد السماع الذي بمعنى القبول ، يقول القائل نصحته فسمع قولي أي قبله ، فإن قلت لم قال من قبل (وما لي لا أعبد الذي فطرني) وقال هنا (آمنت بربكم) ولم يقل آمنت بربي ؟ نقول قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر ، لأنه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذي دعوه إليه ولو قال بربي لعلهم كانوا يقولون كل كافر يقول لي رب وأنا مؤمن بربي ، وأما على قولنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد ، وذلك لأنه لما قال (أعبد الذي فطرني) ثم قال (آمنت بربكم) فهم أنه يقول ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني وهو بعينه ربكم ، بخلاف ما لو قال آمنت بربي فيقول الكافر وأنا أيضاً آمنت بربي ومثل هذا قوله تعالى (الله ربنا وربكم) .

قوله تعالى : ﴿قيل ادخل الجنة﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه قتل ثم قيل له ادخل الجنة بعد القتل (وثانيهما) قيل ادخل الجنة عقيب قوله آمنت وعلى الأول .

قوله تعالى : ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ يكون بعد موته والله أخبر بقوله ، وعلى الثاني قال ذلك في حياته وكأنه سمع الرسل أنه من الداخلين الجنة وصدقهم وقطع به وعلمه ، فقال يا ليت قومي يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت ، وفي معنى قوله تعالى (قيل) وجهان كما أن في وقت ذلك وجهان (أحدهما) قيل من القول (والثاني) ادخل الجنة ، وهذا كما في قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن) ليس المراد القول في وجه بل هو الفعل أي يفعله في حينه من غير تأخير وتراخ وكذلك في قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعي) في وجه جعل الأرض بالعة ماءها .

قوله تعالى : ﴿بما غفر لي ربي﴾ وجوه (أحدها) أن ما استفهامية كأنه قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي حتى يشتغلوا به وهو ضعيف ، وإلا لكان الأحسن أن تكون ما محذوفة الألف يقال بم وفيم وعم ولم (وثانيها) خبرية كأنه قال يا ليت قومي يعلمون بالذي غفر لي ربي (وثالثها) مصدرية ، كأنه قال يا ليت قومي يعلمون بمغفرة ربي لي ، والوجهان الأخيران هما المختاران .

وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ

قوله تعالى: ﴿ وجعلني من المكرمين ﴾ قد ذكرنا أن الإيمان والعمل الصالح يوجبان أمرين هما الغفران والإكرام كما في قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) والرجل كان من المؤمنين الصالحين، والمكرم على ضد المهان والإهانة بالحاجة والإكرام بالاستغناء فيغني الله الصالح عن كل أحد ويدفع جميع حاجاته بنفسه.

ثم إنه تعالى لما بين حاله بين حال المتخلفين المخالفين له من قومه بقوله تعالى ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾ إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً على أسهل وجه فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم، وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ههنا (وما أنزلنا) بإسناد الفعل إلى النفس، وقال في بيان حال المؤمن قيل ادخل الجنة بإسناد القول إلى غير مذكور، وذلك لأن العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم، وأما في (ادخل الجنة) فقال قيل ليكون هو كالمهنأ بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه ادخل الجنة خالداً فيها، وكثيراً ما ورد في القرآن قوله تعالى (وقيل ادخلوا) إشارة إلى أن الدخول يكون دخولاً بإكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رءوس الأشهاد يهنئه كل أحد.

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم أضاف القوم إليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قوماً لهم فإن الواحد يكون له قوم هم آله وأصحابه والرسول لكونه مرسلاً يكون جميع الخلق وجميع من أرسل إليهم قوماً له؟ نقول لوجهين (أحدهما) ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة أكرم أحدهما غاية الإكرام بسبب الإيمان وأهين الآخر غاية الإهانة بسبب الكفر، وهذا من قوم أولئك في النسب (وثانيهما) أن العذاب كان مختصاً بأقارب ذلك، لأن غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ خصص عدم الإنزال بما بعده والله تعالى لم ينزل عليهم جنداً قبله أيضاً فما فائدة التخصيص؟ نقول استحقاقهم العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الهلاك أنه لم يكن بجند.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (من السماء) وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل إليهم جنداً من الأرض فما فائدة التقييد؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون المراد وما أنزلنا عليهم جنداً بأمر من السماء فيكون للعموم (وثانيهما) أن العذاب نزل عليهم من السماء فبين أن النازل لم يكن جنداً لهم عظمة وإنما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم.

وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ

﴿ المسألة الخامسة ﴾ : ﴿ وما كنا منزلين ﴾ أية فائدة فيه مع أن قوله (وما أنزلنا) يستلزم أنه لا يكون من المنزلين ؟ نقول قوله (وما كنا) أي ما كان ينبغي لنا أن ننزل لأن الأمر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال ، أو نقول (وما أنزلنا . وما كنا منزلين) في مثل تلك الواقعة جنداً في غير تلك الواقعة . فإن قيل فكيف أنزل الله جنوداً في يوم بدر وفي غير ذلك حيث قال (وأنزل جنوداً لم تروها) ؟ نقول ذلك تعظيماً لمحمد صلى الله عليه وسلم وإلا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافياً في استئصالهم وما كان رسل عيسى عليه السلام في درجة محمد ﷺ .

ثم بين الله تعالى ما كان بقوله ﴿ إن كانت ﴾ الواقعة ﴿ إلا صيحة ﴾ وقال الزمخشري أصله إن كانت شيء إلا صيحة فكان الأصل أن يذكر ، لكنه تعالى أنث لما بعده من المفسر وهو الصيحة .

قوله تعالى : ﴿ واحدة ﴾ تأكيد لكون الأمر هيناً عند الله .

قوله تعالى : ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك فإن خمودهم كان مع الصيحة وفي وقتها لم يتأخر ، ووصفهم بالخمود في غاية الحسن وذلك لأن الحي فيه الحرارة الغريزية وكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم وهم كانوا كذلك . أما الغضب فإنهم قتلوا مؤمناً كان ينصحهم ، وأما الشهوة فلأنهم احتملوا العذاب الدائم بسبب استيفاء اللذات الحالية فإذن كانوا كالنار الموقدة ، ولأنهم كانوا جبارين مستكبرين كالنار ومن خلق منها فقال (فإذا هم خامدون) (وفيه وجه آخر) وهو أن العناصر الأربعة يخرج بعضها عن طبيعته التي خلقه الله عليها ويصير العنصر الآخر بإرادة الله فالأحجار تصير مياهاً ، والمياه تصير أحجاراً وكذلك الماء يصير هواء عند الغليان والسخونة والهواء يصير ماء للبرد ولكن ذلك في العادة بزمان ، وأما الهواء فيصير ناراً والنار تصير هواء بالاشتعال والخمود في أسرع زمان ، فقال خامدين إذ بها خمود النار في السرعة كانطفاء سراج أو شعلة .

قوله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ أي هذا وقت الحسرة فاحضري يا حسرة والتنكير للتكثير ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الألف واللام في العباد يحتمل وجهين (أحدهما) للمعهود وهم الذين أخذتهم الصيحة فيا حسرة على أولئك (وثانيهما) لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من المتحسر ؟ نقول فيه وجوه (الأول) لا متحسر أصلاً في الحقيقة إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب .

مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾

(وههنا بحث لغوي) وهو أن المفعول قد يحذف رأساً إذا كان الغرض غير متعلق به يقال إن فلاناً يعطي ويمنع ولا يذكر ذلك في معطى إذ المقصود أن له المنع والإعطاء ، ورفض المفعول كثير وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل ، والوجه فيه ما ذكرنا أن ذكر المتحسر غير مقصود وإنما المقصود أن الحسرة متحققة في ذلك الوقت (الثاني) أن قائل يا حسرة هو الله على الاستعارة تعظيما للأمر وتهويلا له وحينئذ يكون كالألفاظ التي وردت في حق الله كالضحك والنسيان والسخر والتعجب والتمني . أو نقول ليس معنى قولنا يا حسرة ويا ندامة أن القائل متحسر أو نادم بل المعنى أنه مخبر عن وقوع الندامة ولا يحتاج إلى تجوز في بيان كونه تعالى قال (يا حسرة) بل يجري به على حقيقته إلا في النداء ، فإن النداء مجاز والمراد الإخبار (الثالث) المتلهفون من المسلمين والملائكة ألا ترى إلى ما حكي عن حبيب أنه حين القتل كان يقول اللهم اهد قومي وبعد ما قتلوه وأدخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون ، فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم له وعليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرئ (يا حسرة) بالتنوين ، و(يا حسرة العباد) بالإضافة من غير كلمة على ، وقرئ يا حسرة على بالهاء إجراء للوصل مجرى الوقف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ من المراد بالعباد ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) الرسل الثلاثة كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس يا حسرة عليهم يا ليتهم كانوا حاضرين شأننا لنؤمن بهم (وثانيها) هم قوم حبيب (وثالثها) كل من كفر وأصر واستكبر ، وعلى الأول فإطلاق العباد على المؤمنين كما في قوله (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقوله (يا عبادي الذين أسرفوا) وعلى الثاني فإطلاق العباد على الكفار ، ولفرق بين العبد مطلقاً وبين المضاف إلى الله تعالى فإن الإضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفاً تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف ما لا يكون في قولك البيت ، وعلى هذا فقوله تعالى (وعباد الرحمن) من قبيل قوله (إن عبادي) وكذلك (عباد الله) .

ثم بين الله تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن ﴾ وهذا سبب الندامة وذلك لأن من جاءه ملك من بادية ، وأكرمه بنفسه ، وطلب منه أمراً هيناً فكذبه ولم يجبه إلى ما دعاه ، ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه أنه ذاك ، يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه . فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم بإعزاز الله إياهم وجعلهم نوابه كما قال (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وجاؤا وعرضوا أنفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة في الحس ، ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس ظهرت عظمتهم عند الله لهم ، وكان ما يدعون إليه أمراً هيناً نفعه عائد إليهم من عبادة الله وما كانوا يسألون عليه أجراً ، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة ، وكيف لا وهم لم يقتنعوا بالإعراض حتى آذوا واستهزؤا واستخفوا واستهانوا

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)

وقوله (ما يأتيهم) الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى قوم حبيب ، أي ما يأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة (إلا كانوا به يستهزءون) على قولنا الحسرة عليهم ، ويجوز أن يكون عائداً إلى الكفار المصرين .

ثم إن الله تعالى لما بين حال الأولين قال للحاضرين ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ أي الباقون لايرون ما جرى على من تقدمهم ، ويحتمل أن يقال : إن الذين قيل في حقهم (ياحسرة) هم الذين قال في حقهم (ألم يروا) ومعناه أن كل مهلك تقدمه قوم كذبوا وأهلكوا إلى قوم نوح وقبله .

وقوله (أنهم إليهم لا يرجعون) بدل في المعنى عن قوله (كم أهلكنا) وذلك لأن معنى (كم أهلكنا) ألم يروا كثرة إهلاكنا . وفيه معنى : ألم يروا المهلكين الكثيرين أنهم إليهم لا يرجعون ، وحينئذ يكون كبدل الاشتمال ، لأن قوله (أنهم إليهم لا يرجعون) حال من أحوال المهلكين ، أي أهلكوا بحيث لا رجوع لهم إليهم فيصير كقولك : ألا ترى زيداً أدبه ، وعلى هذا فقوله (أنهم إليهم لا يرجعون) فيه وجهان (أحدهما) أهلكوا إهلاكاً لا رجوع لهم إلى من في الدنيا (وثانيهما) هو أنهم لا يرجعون إليهم ، أي الباقون لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة ، يعني أهلكناهم وقطعنا نسلهم ، ولا شك في أن الإهلاك الذي يكون مع قطع النسل أتم وأعم ، والوجه الأول أشهر نقلا ، والثاني أظهر عقلا .

قوله تعالى : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ لما بين الإهلاك بين أنه ليس من أهلكه الله تركه ، بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب ، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ، ونعم ما قال القائل :

ولو أنا إذا متنا تركنا … لكان الموت راحة كل حي

ولكنا إذا متنا بعثنا … ونسأل بعده عن كل شي

وقوله (وإن كل لما) في إن وجهان (أحدهما) أنها مخففة من الثقيلة واللام في لما فارقة بينها وبين النافية ، وما زائدة مؤكدة في المعنى ، والقراءة حينئذ بالتخفيف في لما (وثانيهما) أنها نافية ولما بمعنى إلا ، قال سيبويه : يقال نشدتك بالله لما فعلت ، بمعنى إلا فعلت ، والقراءة حينئذ بالتشديد في لما ، ويؤيد هذا ما روي أن أبياً قرأ (وما كل إلا جميع) وفي قول سيبويه لما بمعنى إلا وارد معنى مناسب وهو أن لما كأنها حرفا نفي جمعا وهما لم وما فتأكد النفي ، ولهذا يقال في

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

جواب من قال قد فعل لما يفعل ، وفي جواب من قال فعل لم يفعل ، وإلا كأنها حرفا نفي إن ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر . قال الزمخشري : فإن قال قائل كل وجميع بمعنى واحد ، فكيف جعل جميعاً خبراً لكل حيث دخلت اللام عليه ، إذ التقدير وإن كل لجميع ، نقول معنى جميع مجموع ، ومعنى كل كل فرد بحيث لا يخرج عن الحكم أحد ، فصار المعنى كل فرد مجموع مع الآخر مضموم إليه ، ويمكن أن يقال محضرون ، يعني عما ذكره ، وذلك لأنه لو قال: وإن جميع لجميع محضرون ، لكان كلاماً صحيحاً ولم يوجد ما ذكره من الجواب ، بل الصحيح أن محضرون كالصفة للجميع ، فكأنه قال جميع جميع محضرون ، كما يقال الرجل رجل عالم ، والنبي نبي مرسل ، والواو في وإن كل لعطف الحكاية على الحكاية ، كأنه يقول بينت لك ما ذكرت ، وأبين أن كلا لدينا محضرون ، وكذلك الواو في قوله تعالى :

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾

كأنه يقول : وأقول أيضاً آية لهم الأرض الميتة وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما وجه تعلق هذا بما قبله ؟ نقول مناسب لما قبله من وجوه (أحدها) أنه لما قال (وإن كل لما جميع) كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعاً لإنكارهم واستبعادهم وإصرارهم وعنادهم ، فقال (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) كذلك نحيي الموتى (وثانيها) أنه لما ذكر حال المرسلين وإهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر ما يدل عليه ، وبدأ بالأرض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم منها عند الحركة والسكون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأرض آية مطلقاً فلم خصصها بهم حيث قال (وآية لهم) نقول : الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشيء بأبلغ الوجوه ، وأما من عرف الشيء بطريق الرؤية لا يذكر له دليل ، فإن النبي وعباد الله المخلصين عرفوا الله قبل الأرض والسماء ، فليست الأرض معرفة لهم ، وهذا كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقال (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) يعني أنت كفاك ربك معرفاً ، به عرفت كل شيء فهو شهيد لك على كل شيء ، وأما هؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والأنفس ، وكذلك ههنا آية لهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن قلنا إن الآية مذكورة للاستدلال على جواز إحياء الموتى فيكفي قوله (أحييناها) ولا حاجة إلى قوله (وأخرجنا منها حباً) وغير ذلك، وإن قلنا إنها للاستدلال على وجود الإله ووحدانيته فلا فائدة في قوله (الأرض الميتة أحييناها) لأن نفس الأرض دليل ظاهر وبرهان باهر، ثم بعد أنها غير كافية فقوله (الميتة أحييناها) كاف في التوحيد فما فائدة قوله (وأخرجنا منها حباً) نقول مذكورة للاستدلال عليها ولكل ما ذكره الله تعالى فائدة. أما قوله (وأخرجنا منها حباً) فله فائدة بالنسبة إلى بيان إحياء الموتى، وذلك لأنه لما أحيا الأرض وأخرج منها حباً كان ذلك إحياء تاماً لأن الأرض الخضرة التي لا تنبت الزرع ولا تخرج الحب دون ما تنبته في الحياة، فكأنه قال تعالى الذي أحيا الأرض إحياء كاملاً منبتاً للزرع يحيي الموتى إحياء كاملاً بحيث تدرك الأمور، وأما بالنسبة إلى التوحيد فلأن فيه تعديد النعم كأنه يقول آية لهم الأرض فإنها مكانهم ومهدهم الذي فيه تحريكهم وإسكانهم والأمر الضروري الذي عنده وجودهم وإمكانهم وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهي مكان لهم لا بد لهم منها فهي نعمة ثم إحياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فإنها تصير أحسن وأنزه، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة فإن قوتهم يصير في مكانهم، وكان يمكن أن يجعل الله رزقهم في السماء أو في الهواء فلا يحصل لهم الوثوق، ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لأن الأرض تنبت الحب في كل سنة، وأما الأشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجوداً، ثم فجرنا فيها العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم أنها أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر، وبالنسبة إلى بيان إحياء الموتى كل ذلك مفيد وذلك لأن قوله (وأخرجنا منها حباً) كالإشارة إلى الأمر الضروري الذي لا بد منه وقوله (وجعلنا فيها جنات) كالأمر المحتاج إليه الذي إن لم يكن لا يبقى الإنسان لكنه يبقى مختل الحال وقوله (وفجرنا فيها من العيون) إشارة إلى الزينة التي إن لم تكن لا تفنى الإنسان ولا يبقى في ورطة الحاجة، لكنه لا يكون على أحسن ما ينبغي، وكأن حال الإنسان بالحب كحال الفقير الذي له ما يسد خلته من بعض الوجوه ولا يدفع حاجته من كل الوجوه وبالثمار يستمر حاله كحال المكتفي وبالعيون الجارية التي يعتمد عليها الإنسان ويقوى بها قلبه كالمستغني المدخر لقوت سنين، فيقول الله عز وجل كما فعلنا في موات الأرض كذلك نفعل في الأموات في الأرض فنحييهم ونعطيهم ما لا بد لهم منه في بقائهم وتكوينهم من الأعضاء المحتاج إليها وقواها كالعين والقوة الباصرة والأذن والقوة السامعة وغيرهما ونزيد لهم ما هو زينة كالعقل الكامل والإدراك الشامل فيكون كأنه قال نحيي الموتى إحياء تاماً كما أحيينا الأرض إحياء تاماً.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال عند ذكر الحب (فمنه يأكلون) وفي الأشجار والثمار قال (ليأكلوا من ثمره) وذلك لأن الحب قوت لا بد منه فقال (فمنه يأكلون) أي هم آكلوه، وأما الثمار فليست كذلك. فكأنه تعالى قال إنا كنا ما أخرجناها كانوا يبقون من غير أكل فأخرجناها ليأكلوها.

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في تخصيص النخيل والأعناب بالذكر من سائر الفواكه لأن ألذ المطعوم الحلاوة ، وهي فيهما أتم ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة ، ولا كذلك غيرهما ولأنهما أعم نفعاً فإنهما تحمل من البلاد إلى الأماكن البعيدة ، فإن قيل فقد ذكر الله الرمان والزيتون في الأنعام والعنب والزيتون والتين في مواضع ، فنقول في الأنعام وغيرها المقصود ذكر الفواكه والثمار ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ﴾ وإلى قوله ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ فاستوفى الأنواع بالذكر وههنا المقصود ذكر صفات الأرض فاختار منها الألذ الأنفع ، وقد ذكرنا في سورة الأنعام ما يستفاد منه الفرق بين هذه وبين قوله تعالى ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ .

﴿ المسألة السادسة ﴾ في المواضع التي ذكر الله تعالى النخل لم يذكر التمر بلفظ شجرته وهي النخلة ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والأعناب ، ولم يذكر الكرم وذلك لأن العنب شجرته بالنسبة إلى ثمرته حقيرة قليلة الفائدة والنخل بالنسبة إلى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى ، فإن كثيراً من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولهذا شبه بالحيوان فاختار منهما ما هو الأعجب منهما . وقوله تعالى ﴿ وفجرنا فيها من العيون ﴾ آية عظيمة لأن الأرض أجزاؤها بحكم العادة لا تصعد ونحن نرى منابع الأنهار والعيون في المواضع المرتفعة وذلك دليل القدرة والاختيار والقائلون بالطبائع قالوا إن الجبال كالقباب المبنية والأبخرة ترتفع إليها كما ترتفع إلى سقوف الحمامات وتتكون هناك قطرات من الماء ثم تجتمع فإن لم تكن قوية تحصل المياه الراكدة كالآبار وتجري في القنوات ، وإن كانت قوية تشق الأرض وتخرج أنهاراً جارية وتجتمع فتحصل الأنهار العظيمة وتمدها مياه الأمطار والثلوج ، فنقول اختصاص بعض الجبال بالعيون دليل ظاهر على الاختيار وما ذكروه تعسف ، فالحق هو أن الله تعالى خلق الماء في المواضع المرتفعة وساقه في الأنهار والسواقي أو صعد الماء من المواضع المتسفلة إلى الأماكن المرتفعة بأمر الله وجرى في الأودية إلى البقاع التي أنعم الله على أهلها

قوله تعالى : ﴿ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ والترتيب ظاهر ويظهر أيضاً في التفسير وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لم أخر التنبيه على الانتفاع بقوله ﴿ ليأكلوا ﴾ عن ذكر الأشجار حتى قال ﴿ وفجرنا فيها من العيون ﴾ وقال في الحب ﴿ فمنه يأكلون ﴾ عقيب ذكر الحب ، ولم يقل عقيب ذكر النخل والأعناب ليأكلوا ؟ نقول الحب قوت وهو يتم وجوده بمياه الأمطار ولهذا نرى أكثر البلاد لا يكون بها شيء من الأشجار والزرع والحراثة لا تبطل هناك اعتماداً على ماء السماء ، وهذا لطف من الله حيث جعل ما يحتاج إليه الإنسان أعم وجوداً . وأما الثمار فلا تتم إلا بالأنهار ولا تصير الأشجار حاملة للثمار إلا بعد وجود الأنهار فلهذا أخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير في قوله ﴿ من ثمره ﴾ عائد إلى أي شيء ؟ نقول الأظهر أنه عائد إلى الله أي

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

الله بالعبادة وهم تركوها ولم يقتصروا بالترك بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك فقال (سبحان الذي خلق الأزواج) وغيره لم يخلق شيئاً فقال أو نقول . لما بين أنهم أنكروا الآيات ولم يشكروا بين ما ينبغي أن يكون عليه العاقل فقال (سبحان الذي خلق الأزواج كلها) أو نقول لما بين الآيات قال : (سبحان الذي خلق) ما ذكره عن أن يكون له شريك أو يكون عاجزاً عن إحياء الموتى وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (كلها) يدل على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن الزوج هو الصنف وأفعال العباد أصناف ولها أشباه هي واقعة تحت أجناس الأعراض فتكون من الكل الذي قال الله فيها إنه خلق الأزواج كلها ، لا يقال بما تنبت الأرض ، يخرج الكلام عن العموم لأن من قال أعطيت زيداً كل ما كان لي يكون للعموم إن اقتصر عليه ، فإذا قال بعده من الثياب لا يبقى الكلام على عمومه لأنا نقول ذلك إذا كانت من لبيان التخصيص . أما إذا كانت لتأكيد العموم فلا ، بدليل أن من قال أعطيته كل شيء من الدواب والثياب والعبيد والجواري يفهم منه أنه يعدد الأصناف لتأكيد العموم ويؤيد هذا قوله تعالى في حم (الذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) من غير تقييد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الله تعالى أموراً ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله (مما تنبت الأرض) يدخل فيها ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله (ومن أنفسهم) يدخل فيها الدلائل النفسية وقوله (ومما لا يعلمون) يدخل ما في أقطار السموات وتخوم الأرضين وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا في المثال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ومما لا يعلمون) فيه معنى لطيف وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقاً لينزه الله عن الشريك فإن المخلوق لا يصلح شريكاً للخالق ، لكن التوحيد الحقيقي لا يحصل إلا بالاعتراف بأن لا إله إلا الله ، فقال تعالى اعلموا أن المانع من الشريك فيما تعلمون وما لا تعلمون لأن الخلق عام والمانع من الشركة الخلق فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون فإنكم تعلمون أنه مخلوق ومما لا تعلمون فإنه عند الله كله مخلوق لكونه كله ممكناً .

قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ .

لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي فإن دلالة المكان والزمان مناسبة لأن المكان لا تستغني عنه الجواهر والزمان لا تستغني عنه الأعراض ، لأن كل عرض فهو في زمان ومثله مذكور في قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

فالشمس تجري لمجرى مستقرها . وقالت الفلاسفة تجري لمستقرها أي لأمر لو وجدته لاستقرت وهو استخراج الأوضاع الممكنة وهو في غاية السقوط ، وأجاب الله عنه بقوله (ذلك تقدير العزيز العليم) أي ليس لإرادتها وإنما ذلك بإرادة الله وتقديره وتسخيره إياها ، فإن قيل عددت الوجوه الكثيرة وما ذكرت المختار ، فما الوجه المختار عندك ؟ نقول المختار هو أن المراد من المستقر المكان أي تجري لبلوغ مستقرها وهو غاية الارتفاع والانخفاض فإن ذلك يشمل المشارق والمغارب والمجرى الذي لا يختلف والزمان وهو السنة والليل فهو أعم فائدة ، وقوله (ذلك) يحتمل أن يكون إشارة إلى جري الشمس أي ذلك الجري تقدير الله ويحتمل أن يكون إشارة إلى المستقر أي لمستقر لها وذلك المستقر تقدير الله والعزيز الغالب وهو بكمال القدرة يغلب ، والعليم كامل العلم أي الذي قدر على إجرائها على الوجه الأنفع وعلم الأنفع فأجراها على ذلك ، وبيانه من وجوه (الأول) هو أن الشمس في ستة أشهر كل يوم تمر على مسامتة شيء لم تمر من أمسها على تلك المسامتة ، ولو قدر الله مرورها على مسامتة واحدة لاحترقت الأرض التي هي مسامتة لممرها وبقي المجموع مستوليا على الأماكن الأخر فقدر الله لها بعدا لتجمع الرطوبات في باطن الأرض والأشجار في زمان الشتاء ثم قدر قربها بتدريج لتخرج النبات والثمار من الأرض والشجر وتنضج وتجفف ، ثم تبعد لئلا يحترق وجه الأرض وأغصان الأشجار (الثاني) هو أن الله قدر لها في كل يوم طلوعا وفي كل ليلة غروبا لئلا تكل القوى والأبصار بالسهر والتعب ولا يخرب العالم بترك العمارة بسبب الظلمة الدائمة (الثالث) جعل سيرها أبطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لأنها كاملة النور فلو كانت بطيئة السير لدامت زمانا كثيرا في مسامتة شيء واحد فتحرقه ، ولو كانت سريعة السير لما حصل لها لبث بقدر ما ينضج الثمار في بقعة واحدة .

قوله تعالى : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ .

قال الزمخشري لا بد من تقدير لفظ يتم به معنى الكلام لأن القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى قدرنا مسيره منازل ويحتمل ما ذكره ويحتمل أن يقال المراد منه . والقمر قدرناه ذا منازل لأن ذا الشيء قريب من الشيء ، ولهذا جاز قول القائل عيشة راضية لأن ذا الشيء كالقائم به الشيء فأتوا بلفظ الوصف .

وقوله (حتى عاد كالعرجون القديم) أي رجع في الدقة إلى حالته التي كان عليها من قبل (والعرجون) من الانعراج يقال لعود العذق عرجون ، والقديم المتقادم الزمان ، قيل إن ما مضى عليه سنة فهو قديم ، والصحيح أن هذه بعينها لا تشترط في جواز إطلاق القديم عليه وإنما تعتبر العادة ، حتى لا يقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين إنها بناء قديم أو هي قديمة

لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

ويقال لبعض الأشياء إنه قديم ، وإن لم يكن له مدة ، وإنما يقال بيت قديم وبناء قديم ولم يجز أن يقال في العالم إنه قديم ، لأن القديم في البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه ، وإطلاق القديم على العالم لا يعتاد إلا عند من يعتقد أنه لا أول له ولا سابق عليه .

قوله تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ .

إشارة إلى أن كل شيء من الأشياء المذكورة خلق على وفق الحكمة ، فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر وإلا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فلا تدرك القمر وقوله (ولا الليل سابق النهار) قيل في تفسيره إن سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهي سلطان النهار ، وقيل معناه ولا الليل سابق النهار أي الليل لا يدخل وقت النهار والثاني بعيد لأن ذلك يقع إيضاحاً للواضح والأول صحيح إن أريد به ما بينته وهو أن معنى قوله تعالى (ولا الليل سابق النهار) أن القمر إذا كان على أفق المشرق أيام الاستقبال تكون الشمس في مقابلته على أفق المغرب ثم إن عند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر ، كأن لها حركة واحدة مع أن الشمس تتأخر عن القمر في ليلة مقداراً ظاهراً في الحس ، فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدركه الشمس ، وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرك القمر ، لبقي القمر والشمس مدة مديدة في مكان واحد ، لأن حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى في جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة ، وهي الدورة اليومية وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكباً أصلاً ، لأن كل كوكب من الكواكب إذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب إلى الموضع الذي فيه الكوكب الآخر بالنسبة إلينا تقدم ذلك الكوكب ، فبهذه الحركة لا يسبق القمر الشمس ، فتبين أن سلطان الليل لا يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس ، فقوله (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) إشارة إلى حركتها البطيئة التي تتم الدورة في سنة وقوله (ولا الليل سابق النهار) إشارة إلى حركتها اليومية التي بها تعود من المشرق إلى المشرق مرة أخرى في يوم وليلة ، وعلى هذا فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الحكمة في إطلاق الليل وإرادة سلطانه وهو القمر ، وماذا يكون لو قال ولا القمر سابق الشمس ؟ نقول لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم أن الإشارة إلى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض ، فإن الشمس إذا كانت لا تدرك القمر والقمر أسرع ظاهراً ، وإذا قال

ولا القمر سابق يظن أن القمر لا يسبق الشمس بالسرعة فقال الليل والنهار ليعلم أن الإشارة إلى الحركة التي بها تتم الدورة في مدة يوم وليلة ، ويكون جميع الكواكب أو عندها طلوع وغروب في الليل والنهار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة في قوله تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك) بصيغة الفعل وقوله (ولا الليل سابق النهار) بصيغة اسم الفاعل ، ولم يقل ولا الليل يسبق ولا قال مدركة ؟ فنقول الحركة الأولية التي للشمس ، ولا يدرك بها القمر مختصة بالشمس ، فجعلها كالصادرة منها ، وذكر بصيغة الفعل لأن صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل فلا يقال هو يخيط ولا يكون يصدر منه الخياطة ، والحركة الثانية ليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشتركة بسبب حركة فلك ليس ذلك فلكاً لكوكب من الكواكب ، فالحركة ليست كالصادرة منه فأطلق اسم الفاعل لأنه لا يستلزم صدور الفعل يقال فلان خياط وإن لم يكن يخيط ، فإن قيل قوله تعالى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) يدل على خلاف ما ذكرتم ، لأن النهار إذا كان يطلب الليل فالليل سابقه ، وقلتم إن قوله (ولا الليل سابق النهار) معناه ما ذكرتم فيكون الليل سابقاً ولا يكون سابقاً ، نقول قد ذكرنا أن المراد بالليل ههنا سلطان الليل وهو القمر ، وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة ، والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقيب الآخر فكأنه طالبه ، فإن قيل لم ذكر ههنا (سابق النهار) وقد ذكر هناك يطلبه ، ولم يقل طالبه ؟ نقول ذلك لما بينا من أن المراد في هذه السورة من الليل كواكب الليل ، وهي في هذه الحركة كأنها لا حركة لها ولا تسبق ، وليس من شأنها أنها سابقة ، والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان والزمان لا قرار له فهو يطلب حثيثاً لصدور التقضي منه ، وقوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) يحقق ما ذكرنا أي للكل طلوع وغروب في يوم وليلة لا يسبق بعضها بعضاً ، بالنسبة إلى هذه الحركة وكل حركة في فلك تخصه وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التنوين في قوله وكل عوض عن الإضافة معناه كل واحد وإسقاط التنوين للإضافة حتى لا يجتمع التعريف والتنكير في شيء واحد فلما سقط المضاف إليه لفظاً رد التنوين عليه لفظاً ، وفي المعنى معرف بالإضافة ، فإن قيل فهل يختلف الأمر عند الإضافة لفظاً وتركها ؟ فنقول نعم ، وذلك لأن قول القائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم إلى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه ، فإذا قال كل كذا يدخل في الفهم عموم أكثر من العموم عند الإضافة ، وهذا كما في قبل وبعد إذا قلت افعل قبل كذا فإذا حذفت المضاف وقلت افعل قبل أفاد فهم الفعل قبل كل شيء ، فإن قيل فهل بين قولنا كل منهم وبين قولنا كلهم وبين كل فرق ؟ نقول نعم عند قولك كلهم تثبت الأمر للاقتصار عليهم ، وعند قولك كل منهم تثبت الأمر أولا للعموم ، ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم ، وعند قولك كل تثبت الأمر على العموم وتتركه عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان كل نجم في فلك واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال (يسبحون) ؟ نقول الجواب عنه من وجوه : (أحدها) ما بينا أن قوله كل للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب في السماء سيار (ثانيها) أن لفظ كل يجوز أن يوحد نظراً إلى كونه لفظاً موحداً غير مثنى ولا مجموع ، ويجوز أن يجمع لكون معناه جمعاً . وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلى هذا يحسن أن يقول القائل زيد وعمرو كل جاء أو كل جاءوا ولا يقول كل جاءا بالتثنية (وثالثها) لما قال (ولا الليل سابق النهار) والمراد ما في الليل من الكواكب قال (يسبحون)

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفلك ماذا ؟ نقول الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لأن أهل اللغة اتفقوا على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هي الخشبة المسطحة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهي صفحة مستديرة ، فإن قيل فعلى هذا تكون السماء مستديرة ، وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة لها أطراف على جبال وهي كالسقف المستوي ، ويدل عليه قوله تعالى (والسقف المرفوع) نقول ليس في النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة ، ودل الدليل الحسي على كونها مستديرة فوجب المصير إليه . أما الأول فظاهر لأن السقف المقبب لا يخرج عن كونه سقفاً ، وكذلك كونها على جبال ، وأما الدليل الحسي فمن وجوه (أحدها) أن من أمعن في السير في جانب الجنوب يظهر له كواكب مثل سهيل وغيره ظهوراً أبدياً حتى أن من يرصد يراه دائماً ويخفى عليه بنات نعش وغيرها خفاء أبدياً ، ولو كانت السماء مسطحاً مستوياً لبان الكل للكل بخلاف ما إذا كان مستديراً فإن بعضه حينئذ يستتر بأطراف الأرض فلا يرى (الثاني) هو أن الشمس إذا كانت محاذية للحمل(١) مثلاً فإذا غربت ظهر لنا كوكب في منطقة البروج من الحمل إلى الميزان ثم ثم في قليل يستتر الكوكب الذي كان ظهوره بعد غروب الشمس ويظهر الكوكب الذي كان طلوعه بعد طلوع الشمس وبالعكس وهو دليل ظاهر وإن بحث فيه يصير قطعياً (الثالث) هو أن الشمس قبل طلوعها وبعد غروبها يظهر ضوءها ويستنير الجو بعض الاستنارة ثم يطلع ولولا أن بعض السماء مستتر بالأرض وهو محل الشمس فلا يرى جرمها ويظهر نورها لما كان كذا بل كان عند إعادتها إلى السماء يظهر للكل أحد جرمها ونورها معاً لكون السماء مستوية حينئذ مكشوفة كلها لكل أحد (الرابع) القمر إذا انكسف في ساعة من الليل في جانب المشرق ، ثم سئل أهل المغرب عن وقت الكسوف أخبروا عن الخسوف في ساعة أخرى قبل تلك الساعة التي رأى أهل المشرق فيها الخسوف لكن الخسوف في وقت واحد في جميع نواحي العالم والليل مختلف فدل على أن الليل في جانب المشرق قبل الليل في جانب المغرب فالشمس غربت من عند أهل المشرق وهي بعد في السماء ظاهرة لأهل المغرب فعلم استتارها بالأرض ولو كانت مستوية

(١) [illegible]

لما كان كذلك (الخامس) لو كانت السماء مبسوطة لكان القمر عند ما يكون فوق رؤوسنا على المسامتة أقرب إلينا وعند ما يكون على الأفق أبعد منا لأن العمود أصغر من القطر والوتر . وكذلك في الشمس والكواكب كان يجب أن يرى أكبر لأن القريب يرى أكبر وليس كذلك فان قيل جاز أن يكون وهو على الأفق على سطح السماء وعند ما يكون على مسامتة رؤوسنا في عمق السماء غائراً فيها لأن الخرق جائز على السماء . نقول لا نزاع في جواز الخرق لكن القمر حينئذ تكون حركته في دائرة لا على خط مستقيم وهو غرضنا ولأنا نقول لو كان كذلك لكان القمر عند أهل المشرق وهو في منتصف نهارهم أكبر مقداراً لكونه قريباً من رؤوسهم ضرورة فرضه على سطح السماء الأدنى وعندنا في عمق السماء ، وبالجملة فالدلائل كثيرة والإكثار منها يليق بكتب الهيئة التي الغرض منها بيان ذلك العلم . وليس الغرض في التفسير بيان ذلك غير أن القدر الذي أوردناه يكفي في بيان كونه فلكاً مستديراً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا يدل على أن لكل كوكب فلكاً فما قولك فيه ؟ نقول : أما السبعة السيارة (١) فلكل فلك وأما الكواكب الأخر فقيل لكلها فلك واحد . ولنذكر كلاماً مختصراً في هذا الباب من الهيئة حيث وجب الشروع بسبب تفسير الفلك فنقول : قيل إن للقمر فلكاً لأن حركته أسرع من حركة الستة الباقية ، وكذلك لكل كوكب فلك لاختلاف سيرها بالسرعة والبطء والممر ، فإن بعضها يمر في دائرة وبعضها في دائرة أخرى حتى في بعض الأوقات يمر بعضها ببعض ولا يكسفه وفي بعض الأوقات يكسفه فلكل كوكب فلك . ثم إن أهل الهيئة قالوا كل فلك هو جسم كرة وذلك غير لازم بل اللازم أن نقول لكل فلك هو كرة أو صفحة أو دائرة يديرها الكوكب بحركته ، والله تعالى قادر على أن يخلق الكوكب في كرة يكون وجوده فيها كوجود مسمار مغرق في ثخن كرة مجوفة ويدير الكرة فيدور الكوكب بدوران الكرة ، وعلى مذهب أرباب الهيئة حركة الكواكب السيارة على هذا الوجه ، وكذلك قادر على أن يخلق حلقة يحيط بها أربع سطوح متوازية بها فيها أربع دوائر متوازية كحجر الرحى إذا قورناه وأخرجنا من وسطه طاحونة من طواحين اليد وبقي منه حلقة يحيط بها سطوح ودوائر كما ذكرنا وتكون الكواكب فيه وهو فلك تدور تلك الحلقة وتدير الكواكب ، والحركة على هذا الوجه وإن كانت مقدورة لكن لم يذهب إليه أحد ممن يعتبر وكذلك هو قادر على أن يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة في الماء على وجهه تنزل من جانب وتقصد إلى موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) والظاهر أن حركة الكواكب على هذا الوجه ، وأرباب الهيئة أنكروا ذلك وقالوا لا تجوز الحركة

(١) [illegible]
[illegible]
[illegible]

على هذا الوجه لأن الكوكب له جرم فإذا شق السماء وتحرك فإما أن يكون موضع دورانه ينشق ويلتئم كالماء تحركه السمكة أو لا ينشق ولا يلتئم ، بل هناك خلاء يدور الكوكب فيه ، لكن الخلاء محال والسماء لا تقبل الشق والالتئام ، هذا ما اعتمدوا عليه ، ونحن نقول كلاهما جائز ، أما الخلاء فلا يحتاج إليه هنا ، لأن قوله تعالى (يسبحون) يفهم منه أنه ينشق ويلتئم ، وأما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه وشبههم في المحدد للجهات وهي هناك ضعيفة ، ثم إنهم قالوا على ما بينا تخرج الحركات وبه عرفنا الكسوفات . ولو كان لها حركات مختلفة لما وجب الكسوف في الوقت الذي يحكم فيه بالكسوف والخسوف وذلك لأنا نقول للشمس فلكان (أحدهما) مركزه مركز العالم (ثانيهما) مركزه فوق مركز العالم وهو مثل بياض البيض بين صفرته وبين القيض والشمس كرة في الفلك الخارج المركز تدور بدورانه في السنة دورة ، فإذا حصلت في الجانب الأعلى تكون بعيدة عن الأرض فيقال إنها في الأوج ، وإذا حصلت في الجانب الأسفل تكون قريبة من الأرض فتكون في الحضيض ، وأما القمر فله فلك شامل لجميع أجزائه وأفلاكه وفلك آخر هو بعض من الفلك الأول محيط به كالقشرة الفوقانية من البيضة وفلك ثالث في الفلك التحتاني كما كان في الفلك الخارج المركز في فلك الشمس وفي الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفي الكرة القمر مركوز كمسمار في كرة مغروز فيها ويسمى الفلك الفوقاني الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتاني الذي فيه الفلك الحامل الفلك المائل والكرة التي في الحامل تسمى فلك التدوير ، وكذلك قالوا في الكواكب الخمسة الباقية من السيارات غير أن الفوقاني الذي سموه فلك الجوزهر لم يثبتوه لها فأثبتوا أربعة وعشرين فلكا ، الفلك الأعلى وفلك البروج ، والزحل ثلاثة أفلاك المثل والحامل وفلك التدوير ، والمشتري ثلاثة كالزحل ، والمريخ كذلك ثلاثة ، والشمس فلكان المثل والخارج المركز ، والزهرة ثلاثة أفلاك كالعلويات ، وعطارد أربعة أفلاك الثلاثة التي ذكرناها في العلويات ، وفلك آخر يسمونه المدير ، والقمر أربعة أفلاك والرابع يسمونه فلك الجوزهر والمدير ليس كالجوزهر لأن المدير غير محيط بأفلاك عطارد وفلك الجوزهر محيط ، ومنهم من زاد في الخمسة في كل فلك فلكين آخرين وجعل تدويراتها مركبة من ثلاثة أفلاك ، وقالوا إن بسبب هذه الأجرام تختلف حركات الكواكب ويكون لها عروض ورجوع واستقامة وبطء وسرعة . هذا كلامهم على سبيل الاقتباس والاقتصار ونحن نقول لا يبعد من قدرة الله خلق مثل ذلك ، وأما على سبيل الوجوب فلا نسلم ورجوعها واستقامتها بإرادة الله وكذلك عرضها وطولها وبطؤها وسرعتها وقربها وبعدها هذا تمام الكلام .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال المنجمون الكواكب أحياء بدليل أنه تعالى قال (يسبحون) وذلك لا يطلق إلا على العاقل ، نقول إن أردتم القدر الذي يصح به التسبيح فنقول به لأنه ما من شيء من هذه الأشياء إلا وهو يسبح بحمد الله وإن أردتم شيئاً آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما في قوله تعالى في حق الأصنام (ما لكم لا تنطقون) وقوله (ألا تعقلون) .

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ﴾ وفيها مناسبة مع ما تقدم من وجهين (أحدهما) أنه تعالى لما بين إحياء الأرض وهى مكان الحيوانات بين أنه لم يقتصر بل جعل للإنسان طريقاً يتخذ من البحر خيراً ويتوسطه أو يسير فيه كما يسير فى البر وهذا حينئذ كقوله (وحملناكم فى البر والبحر) ويؤيد هذا قوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) إذا فسرناه بأن المراد الإبل فإنها كسفن البرارى (وثانيهما) هو أنه تعالى لما بين سباحة الكواكب فى الأفلاك ذكر ما هو مثله وهو سباحة الفلك فى البحار ، ولها (وجه ثالث) وهى أن الأمور التى أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والأول للحاجة والثانى للزينة فخلق الأرض وإحياؤها من القبيل الأول فإنها المكان الذى لولاه لما وجد الإنسان ولولا إحياؤها لما عاش والليل والنهار فى قوله (وآية لهم الليل) أيضاً من القبيل الأول ، لأنه الزمان الذى لولاه لما حدث الإنسان ، والشمس والقمر وحركتهما لو لم تكن لما عاش ، ثم إنه تعالى لما ذكر من القبيل الأول آيتين ذكر من القبيل الثانى وهو الزينة آيتين (إحداهما) الفلك التى تجرى فى البحر فيستخرج من البحر ما يتزين به كما قال تعالى (ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر) (وثانيتهما) الدواب التى هى فى البر كالفلك فى البحر فى قوله (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) فإن الدواب زينة كما قال تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وقال (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) فيكون استدلالا عليهم بالضرورى والنافع لا يقال بأن النافع ذكره فى قوله (جنات من نخيل وأعناب) فإنها للزينة لأنا نقول ذلك حصل تبعاً للضرورى ، لأن الله تعالى لما خلق الأرض منبتة لدفع الضرورة وأنزل الماء عليها كذلك لزم أن يخرج من الجنة النخيل والأعناب بقدرة الله ، وأما الفلك فمقصود لا تبع ، ثم إذا علمت المناسبة فى الآيات أبحاث لغوية ومعنوية :

(أما اللغوية) فقال المفسرون الذرية هم الآباء أى حملنا آباءكم فى الفلك والألف واللام للتعريف أى فلك نوح وهو مذكور فى قوله (واصنع الفلك) ومعلوم عند العرب فقال الفلك : هذا قول بعضهم ، وأما الأكثرون فعلى أن الذرية لا تطلق إلا على الولد وعلى هذا فلابد من بيان المعنى ، فنقول الفلك إما أن يكون المراد الفلك المعين الذى كان لنوح ، وإما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) وقال تعالى (وترى الفلك فيه مواخر) وقال تعالى (فإذا ركبوا فى الفلك) إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف فى الفلك لبيان الجنس ، فإن كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه (الأول) أن المراد إنا حملنا أولادكم إلى يوم القيامة فى ذلك الفلك ، ولولا ذلك لما بقى للآدمى نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله

(حملنا ذريتهم) بدل قوله (حملناهم) إشارة إلى كمال النعمة أي لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة ، هذا ما قاله الزمخشري ، ويحتمل عندي أن يقال على هذا إنه تعالى إنما خص الذرية بالذكر ، لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة في وجودهم فقال (حملنا ذريتهم) أي لم يكن الحمل حملا لهم ، وإنما كان حملا لما في أصلابهم من المؤمنين كما أن من حمل صندوقاً لا قيمة له وفيه جواهر إذا قيل له لم تحمل هذا الصندوق وتتعب في حمله وهو لا يشترى بشيء ؟ يقول لا أحمل الصندوق وإنما أحمل ما فيه (الثاني) هو أن المراد بالذرية الجنس معناه حملنا أجناسهم وذلك لأن ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء نهى النبي ﷺ عن قتل الذراري ، أي النساء وذلك لأن المرأة وإن كانت صنفاً غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذراريهنا أي أمثالنا فقوله (أنا حملنا ذريتهم) أي أمثالهم وآباؤهم حينئذ تدخل فيهم (الثالث) هو أن الضمير في قوله (وآية لهم) عائد إلى العباد حيث قال (ياحسرة على العباد) وقال بعد ذلك (وآية لهم الأرض) وقال (وآية لهم الليل) وقال (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) إذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير في الموضعين أشخاصاً معينين كما قال تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) ويريد بعضكم بعضاً ، وكذلك إذا تقاتل قوم ومات الكل في القتال ، يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم ، فهم في الموضعين يكون عائداً إلى القوم ولا يكون المراد أشخاصاً معينين ، بل المراد أن بعضهم قتل بعضاً ، فكذلك قوله تعالى (وآية لهم) أي آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم ، أو ذرية بعض منهم ، وأما إن قلنا إن المراد جنس الفلك فهو أظهر ، لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها . فأما جنس الفلك فإنه ظاهر لكل أحد ، وقوله تعالى في سفينة نوح (وجعلناها آية للعالمين) أي بوجود جنسها ومثلها ، ويؤيده قوله تعالى (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) فنقول قوله تعالى (حملنا ذريتهم) أي ذريات العباد ولم يقل حملناهم ، لأن سكون الأرض عام لكل أحد يسكنها فقال (وآية لهم الأرض الميتة) إلى أن قال (فمنه يأكلون) لأن الأكل عام ، وأما الحمل في السفينة فمن الناس من لا يركبها في عمره ولا يحمل فيها ، ولكن ذرية العباد لا بد لهم من ذلك فإن فيهم من يحتاج إليها فيحمل فيها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ جعل الفلك تارة جمعاً حيث قال (وترى الفلك فيه مواخر) جمع ماخرة وأخرى فرداً حيث قال (في الفلك المشحون) فنقول فيه تدقيق مليح من علم اللغة ، وهو أن الكلمة قد تكون حركاتها مثل حركة تلك الكلمة في الصورة ، والحركتان مختلفتان في المعنى مثالها قولك سجد يسجد سجوداً للمصدر وهم قوم سجود في جمع ساجد ، تظن أنهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك ، بل السجود عند كونه مصدراً حركاته أصلية إذا قلنا إن الفعل مشتق من المصدر

وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة من حيث إن الجمع يشتق من الواحد ، وينبغي أن يلحق المشتق تغيير في حركة أو حرف أو في مجموعهما ، فلما جعلناه أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه ، وجئنا بلفظ السجود ، فإذاً السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الألفاظ المشتركة التي وضعت حركة واحدة لمعنيين ، إذا عرفت هذا فنقول الفلك عند كونه واحداً مثل قفل وبرد ، وعند كونه جمعاً مثل خشب وبرد وغيرهما ، فإن قلت فإذا جعلته جمعاً فماذا يكون واحدها ؟ نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل ، وكذا القول في (إمام مبين) وفي قوله (ندعوا كل أناس(١) بإمامهم) أي بأئمتهم عند قوله تعالى (إمام مبين) إمام كزمام وكتاب وعند قوله تعالى (كل أناس بإمامهم) إمام كسهام وكرام وجبال وهذا من دقيق التصريف (وأما المعنوية) فنذكرها في مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ : قال ههنا (حملنا ذريتهم) من عليهم بحمل ذريتهم ، وقال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) من هناك عليهم بحمل أنفسهم ، نقول لأن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ، ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير ، بل يكون قد نفعه مثاله من أحسن إلى ولد إنسان وفرحه فرح بفرحه أبوه ، وإذا دفع واحد الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ولا يكون في الحقيقة قد أزال الألم عن أبيه ، فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر ، ولو قال دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بيان دفع الضرر عنهم ، وههنا أراد بيان المنافع فقال (حملنا ذريتهم) لأن النفع حاصل بنفع الذرية ويدلك على هذا أن ههنا قال (في الفلك المشحون) فإن امتلاء الفلك من الأموال يحصل بذكره بيان المنفعة ، وأما دفع المضرة فلا ، لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به أبطأ وهناك السلامة ، فاختار هناك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجري ، وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن ، فإن قيل قال تعالى (وحملناهم في البر والبحر) ولم يقل (وحملنا ذريتهم) مع أن المقصود في الموضعين بيان النعمة ، لا دفع النقمة ، نقول لما قال (في البر والبحر) عم الخلق لأن ما من أحد إلا وحمل في البر أو البحر ، وأما الحمل في البحر فلم يعم ، فقال إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الأولاد والأقارب والإخوان والأصدقاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (المشحون) يفيد فائدة أخرى غير ما ذكرنا وهي أن الآدمي يرسب في الماء ويغرق ، فحمله في الفلك واقع بقدرته ، فمن الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب في الماء لأن الخفيف يطلب جهة فوق فقال (الفلك المشحون) أثقل من الثقال التي ترسب ، ومع هذا حمل الله الإنسان فيه مع ثقله ، فإن قالوا ذلك لامتناع الخلاء ، نقول قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء في الكتب العقلية ، فإذن ليس حفظ الثقيل فوق الماء إلا بإرادة الله .

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (وآية لهم الأرض) وقال (وآية لهم الليل) ولم يقل وآية لهم الفلك مطلقاً بحيث تعمالهم ، وذلك لأن حملهم في الفلك هو العجب . أما نفس الفلك فليس بعجب لأنه كبيت مبني من خشب . وأما نفس الأرض فعجب ونفس الليل عجب لاقدرة عليهما لأحد إلا لله .

قوله تعالى : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من حيث اللغة والمعنى أما اللغة فقوله لهم يحتمل أن يكون عائداً إلى الذرية ، أي حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين ما يركبون ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى العباد الذين عاد إليهم قوله (وآية لهم) وهو الحق لأن الظاهر عود الضمائر إلى شيء واحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (من) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون صلة تقديره وخلقنا لهم مثله . وهذا على رأى الأخفش ، وسيبويه يقول : من لا يكون صلة إلا عند النفي ، تقول ماجاءني من أحد كما في قوله تعالى (وما مسنا من لغوب) . (وثانيهما) هي مبينة كما في قوله تعالى (يغفر لكم من ذنوبكم) كأنه لما قال (خلقنا لهم) والمخلوق كان أشياء قال من مثل الفلك للبيان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الضمير في (مثله) على قول الأكثرين عائد إلى الفلك فيكون هذا كقوله تعالى (وآخر من شكله أزواج) وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود في زمانهم ويؤيد هذا هو أنه تعالى قال (وإن نشأ نغرقهم) ولو كان المراد الإبل على ما قاله بعض المفسرين لكان قوله (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) فاصلا بين متصلين ، ويحتمل أن يقال الضمير عائد إلى معلوم غير مذكور تقديره أن يقال : وخلقنا لهم من مثل ما ذكرنا من المخلوقات في قوله (خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) وهذا كما قلنا في قوله تعالى (ليأكلوا من ثمره) أن الهاء عائد إلى ماذكرنا أي من ثمر ماذكرنا ، وعلى هذا فقوله (خلقنا لهم) فيه لطيفة ، وهي أن ما من أحد إلا وله ركوب مركوب من الدواب وليس كل أحد يركب الفلك فقال في الفلك حملنا ذريتهم وإن كانوا ما حملناهم ، وأما الخلق فلهم عام وما يركبون فيه وجهان : (أحدهما) هو الفلك الذي مثل فلك نوح (ثانيهما) هو الإبل التي هي سفن البر ، فإن قيل إذا كان المراد سفينة نوح فما وجه مناسبة الكلام ؟ نقول ذكرهم بحال قوم نوح وأن المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم إن آمنوا يفوزوا وإن كذبوا يهلكوا

ثم قال تعالى (وإن نشأ نغرقهم) إشارة إلى فائدتين : (إحداهما) أن في حال النعمة ينبغي أن لا يأمنوا عذاب الله (وثانيتهما) هو أن ذلك جواب سؤال مقدر وهو أن الطبيعي يقول السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لا يرسب فقال ليس كذلك بل لو شاء الله أغرقهم وليس ذلك بمقتضى الطبع ولو صح كلامه لعاد ذلك لهذا أن يقول : ألست توافق أن من السفن ما ينقلب

فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾

ويشكر ، ومنها ما يبقيه ثاقباً لم يرسب وكل ذلك بمشيئة الله فإن شاء الله إغراقهم أغرقهم من غير شيء من هذه الأسباب كما هو مذهب أهل السنة أو بشيء من تلك الأسباب كما تسلم أنت .

قوله تعالى : ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ أي لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق .

قوله تعالى : ﴿ ولا هم ينقذون ﴾ إذا أدركهم الغرق وذلك لأن الخلاص من العذاب ، إما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال لا صريخ لهم يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه ، وهذا مثل قوله تعالى (لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) فقوله (لا صريخ لهم ولا هم ينقذون) فيه فائدة أخرى غير الحصر وهي أنه تعالى قال لا صريخ لهم ولم يقل ولا منقذ لهم وذلك لأن من لا يكون من شأنه أن ينصر لا يشرع في النصرة مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه ، وإنما ينصر ويغيث من يكون من شأنه أن يغيث فقال لا صريخ لهم ، وأما من لا يكون من شأنه أن ينقذ إذا رأى من يعز عليه في ضر يشرع في الإنقاذ ، وإن لم يثق بنفسه في الإنقاذ ولا يغلب على ظنه . وإنما يبذل المجهود فقال (ولا هم ينقذون) ولم يقل ولا منقذ لهم .

ثم استثنى فقال ﴿ إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ وهو يفيد أمرين : (أحدهما) انقسام الإنقاذ إلى قسمين الرحمة والمتاع ، أي فيمن علم الله منه أنه يؤمن فينقذه الله رحمة ، وفيمن علم أنه لا يؤمن فليتمتع زماناً ويزداد إثماً (وثانيهما) أنه بيان لكون الإنقاذ غير مفيد الدوام بل الزوال في الدنيا لا بد منه فينقذه الله رحمة ويمتعه إلى حين ، ثم يميته فالزوال لازم أن يقع .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما عدد الآيات بقوله (وآية لهم الأرض ، وآية لهم الليل ، وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفد اليقين ، قال فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فإن من أخبر بوقوع عذاب يتقيه ، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطاً فقال تعالى إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به وإذا قيل لهم اتقوا لا يتقون فهم في غاية الجهل ونهاية الغفلة ، لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان ، ولا مثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط . ويدل على ما ذكرنا قوله تعالى (لعلكم ترحمون) بحرف التمني أي في شككم فإن من خفي عليه وجه البرهان لا يترك طريقة الاحتراز والاحتياط ، وجواب قوله (إذا قيل لهم اتقوا) محذوف معناه وإذا قيل لهم ذلك لا يتقون أو يعرضون ، وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه وهو قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) وفي قوله تعالى (ما بين أيديكم وما خلفكم)

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

وجوه : (أحدها) (ما بين أيديكم) الآخرة فإنهم مستقبلون لها (وما خلفكم) الدنيا فإنهم تاركون لها (وثانيها) (ما بين أيديكم) من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى (وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون) وما خلفكم من الموت الطالب لكم إن نجوتم من هذه الأشياء فلا نجاة لكم منه يدل عليه قوله تعالى (ومتاعاً إلى حين) (وثالثها) ما بين أيديكم من أمر محمد ﷺ فإنه حاضر عندكم وما خلفكم من أمر الحشر فإنكم إذا اتقيتم تكذيب محمد ﷺ والتكذيب بالحشر رحمكم الله وقوله تعالى (لعلكم ترحمون) مع أن الرحمة واجبة ، فيه وجوه ذكرناها مراراً ونزيد ههنا وجهاً آخر وهو أنه تعالى لما قال (اتقوا) بمعنى أنكم إن لم تقطعوا بناء على البراهين فاتقوا احتياطاً قال (لعلكم ترحمون) يعني أرباب اليقين يرحمون جزماً وأرباب الاحتياط يرجى أن يرحموا ، والأحق ما ذكرنا من وجهين : (أحدهما) اتقوا راجين الرحمة فإن الله لا يجب عليه شيء (وثانيهما) هو أن الاتقاء نظراً إليه أمر يفيد القطع بالرحمة فإن كان يقطع به أحد لأمر من خارج فذلك لا يمنع الرجاء فإن الملك إذا كان في قلبه أن يعطي من يخدمه أكثر من أجرته أضعافاً مضاعفة لكن الخدمة لا تقتضي ذلك ، يصح منه أن يقول افعل كذا ولا يبعد أن يصل إليك أجرتك أكثر مما تستحق .

قوله تعالى : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ .

وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) . (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) يعني إذا جاءتهم الرسل كذبوهم فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا إليها وقوله (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون) إلى قوله (لعلكم ترحمون) كلام بين كلامين متصلين ويحتمل أن يقال هو متصل بما قبله من الآية وبيانه هو أنه تعالى لما قال (وإذا قيل لهم اتقوا) وكان فيه تقدير أعرضوا قال ليس إعراضهم مقتصراً على ذلك بل هم عن كل آية معرضون أو يقال إذا قيل لهم اتقوا اقترحوا آيات مثل إنزال الملائكة وغيره فقال (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) وعلى هذا كانوا في المعنى يكون زائداً معناه إلا يعرضون عنها أي لا تنفعهم الآيات ومن كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من

أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾ .

إشارة إلى أنهم يخلون بجميع ما على المكلف ، وذلك لأن المكلف عليه التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم اتقوا ، فلم يتقوا وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم (أنفقوا) فلم ينفقوا (وفيه لطائف) الأولى خوطبوا بأدنى الدرجات فى التعظيم والشفقة فلم يأتوا بشيء منه وعباد الله المخلصون خوطبوا بالأدنى فأتوا بالأعلى إنما قلنا ذلك لأنهم فى التقوى أمروا بأن يتقوا ما بين أيديهم من العذاب أو الآخرة وما خلفهم من الموت أو العذاب وهو أدنى ما يكون من الاتقاء ، وأما الخاص فيتقى تغير قلب الملك عليه وإن لم يعاقبه ومتى العذاب لا يكون إلا البعيد ، فهم لم يتقوا معصية الله ولم يتقوا عذاب الله ، والمخلصون اتقوا الله واجتنبوا مخالفته سواء كان يعاقبهم عليه أو لا يعاقبهم ، وأما فى الشفقة فقيل لهم (أنفقوا مما) أى بعض ما هو لله فى أيديكم فلم ينفقوا ، والمخلصون آثروا على أنفسهم وبذلوا كل ما فى أيديهم بل أنفسهم صرفوها إلى نفع عباد الله ودفع الضرر عنهم (الثانية) كما أن فى جانب التعظيم ما كان فائدة التعظيم راجعة إلا إليهم فإن الله مستغن عن تعظيمهم كذلك فى جانب الشفقة ما كان فائدة الشفقة راجعة إلا إليهم ، فإن من لا يرزقه المتمول لا يموت إلا بأجله ولا بد من وصول رزقه إليه ، لكن السعيد من قدر الله إيصال الرزق على يده إلى غيره (الثالثة) قوله (مما رزقكم) إشارة إلى أمرين (أحدهما) أن البخل به فى غاية القبح فإن أبخل البخلاء من يبخل بمال الغير (وثانيهما) أنه لا ينبغى أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فإن الله رزقكم فإذا أنفقتم فهو يخلفه لكم ثانياً كما رزقكم أولا وفيه مسائل أيضاً :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عند قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتقوا) حذف الجواب ، وههنا أجاب وأتى بأكثر من الجواب وذلك لأنه تعالى لو قال (وإذا قيل لهم أنفقوا) قالوا (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) لكان كافياً ، فما الفائدة فى قوله تعالى (قال الذين كفروا للذين آمنوا) ؟ نقول الكفار كانوا يقولون بأن الإطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به ، وإنما أرادوا بذلك القول رداً على المؤمنين فقالوا نحن نطعم الضيوف معتقدين بأن أفعالنا لنا ، ولولا إطعامنا لما اندفع حاجة الضيف وأنتم تقولون إن إلهكم يرزق من يشاء ، فلم تقولون لنا أنفقوا ؟ فلما كان غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الإطعام ; قال تعالى عنهم (قال الذين كفروا للذين آمنوا) إشارة إلى الرد ، وأما فى قولهم (اتقوا ما بين أيديكم) فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا وأعرض الله عن ذكر إعراضهم لحصول العلم به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة فى تغيير اللفظ فى جوابهم حيث لم يقولوا أننفق على من لو يشاء الله رزقه ، وذلك لأنهم أمروا بالإنفاق فى قوله (وإذا قيل لهم أنفقوا) فكان جوابهم بأن

يقولوا أنفق ثم قالوا (أنطعم) ؟ نقول فيه بيان غاية مخالفتهم وذلك لأنهم إذا أمروا بالإنفاق والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره لم يأتوا بالإنفاق ولا بأقل منه وهو الإطعام وقالوا لا نطعم ، وهذا كما يقول القائل لغيره أعط زيداً ديناراً يقول لا أعطيه درهماً مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه ديناراً ولكن المبالغة في هذا الوجه أتم فكذلك ههنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كان كلامهم حقاً فإن الله لو شاء أطعمه فلماذا ذكره في معرض الذم ؟ نقول لأن مرادهم كان الإنكار لقدرة الله أو لعدم جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد بين الله ذلك في قوله (مما رزقكم) فإنه يدل على قدرته ويصحح أمره بالإعطاء لأن من كان له في يد الغير مال وله في خزائنه مال فهو مخير إن أراد أعطى مما في خزائنه وإن أراد أمر من عنده المال بالإعطاء ولا يجوز أن يقول من بيده ماله في خزائنك أكثر مما في يدي أعطه منه ، وقوله (إن أنتم إلا في ضلال مبين) إشارة إلى اعتقادهم أنهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وأن أمرهم بالإنفاق مع قولهم بقدرة الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفاسد وفيه مباحث لغوية ومعنوية .

﴿ أما اللغوية ﴾ فنقول (إن) وردت للنفي بمعنى ما ؛ وكان الأصل في إن أن تكون للشرط والأصل في ما أن تكون للنفي لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتقارضا واستعمل ما في الشرط واستعمل إن في النفي ، أما الوجه المشترك فهو أن كل واحد منهما حرف مركب من حرفين متقاربين فإن الهمزة تقرب من الألف والميم من النون ولا بد من أن يكون المعنى الذي يدخل عليه ما وإن لا يكون ثابتاً ، أما في ما فظاهر ، وأما في إن فلأنك إذا قلت إن جاءني زيد أكرمه ينبغي أن لا يكون له في الحال مجيء فاستعمل إن مكان ما ، وقيل إن زيد قائم أي ما زيد بقائم واستعمل ما في الشرط تقول ما تصنع أصنع ، والذي يدل على ما ذكرنا أن ما النافية تستعمل حيث لا تستعمل إن وذلك لأنك تقول ما إن جلس زيد فتجعل إن صلة ولا تقول إن جلس زيد بمعنى النفي وبمعنى الشرط تقول إما ترين فتجعل إن أصلاً وما صلة ، فدلنا هذا على أن إن في الشرط أصل وما دخيل وما في النفي بالعكس .

﴿ البحث الثاني ﴾ قد ذكرنا أن قوله (إن أنتم إلا) يفيد ما لا يفيد قوله (أنتم في ضلال) لأنه يوجب الحصر وأنه ليسوا في غير الضلال .

﴿ البحث الثالث ﴾ وصف الضلال بالمبين قد ذكرنا معناه أنه لظهوره يبين نفسه أنه ضلال أي في ضلال لا يخفى على أحد أنه ضلال .

﴿ البحث الرابع ﴾ قد ذكرنا أن قوله (في ضلال) يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين ، وقوله في مواضع على بينة (وعلى هدى) إشارة إلى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه

﴿ وأما المعنوية ﴾ فهي أنهم إنما وصفوا الذين آمنوا بكونهم في ضلال مبين لكونهم ظانين أن المؤمن كلامه متناقض ومن تناقض كلامه يكون في غاية الضلال ، وإنما قلنا ذلك لأنهم قالوا (أنطعم من

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً

لو يشاء الله أطعمه) إشارة إلى أن الله إن شاء أن يطعمهم كان يطعمهم فلا نقدر على إطعامهم لأنه يكون تحصيلا للحاصل ، وإن لم يشأ الله إطعامهم لا يقدر أحد على إطعامهم لامتناع وقوع ما لم يشأ الله فلا قدرة لنا على الإطعام ، فكيف تأمروننا بالإطعام (ووجه آخر) وهو أنهم قالوا : أراد الله تجويعهم ولو أطعمناهم يكون ذلك سعياً في إبطال فعل الله ، وأنه لا يجوز ، وأنتم تقولون أطعموهم فهو ضلال ، ولم يكن في الضلال إلا هم حيث نظروا إلى المراد ولم ينظروا إلى الطلب والأمر ، وذلك لأن العبد إذا أمره السيد بأمر لا ينبغي أن يكشف سبب الأمر والاطلاع على المقصود الذي أمر به لأجله ، مثاله : الملك إذا أراد الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال لعبده أحضر المركوب ، فلو تطلع واستكشف المقصود الذي لأجله الركوب لنسب إلى أنه يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه ويكشف سره ، فالأدب في الطاعة وهو اتباع الأمر لا تتبع المراد ، فالله تعالى إذا قال (أنفقوا مما رزقكم) لا يجوز أن يقولوا : لم لم يطعمهم الله مما في خزائنه .

قوله تعالى : ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهو إشارة إلى ما اعتقدوه وهو أن التقوى المأمور بها في قوله (وإذا قيل لهم اتقوا) والإنفاق المذكور في قوله تعالى (وإذا قيل لهم أنفقوا) لا فائدة فيه لأن الوعد لا حقيقة له وقوله (متى هذا الوعد) أي متى يقع الموعود به ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ هو أن إن للشرط وهي تستدعي جزاء ومتى استفهام لا يصلح جزاء فما الجواب ؟ نقول هي في الصورة استفهام ، وفي المعنى إنكار كأنهم قالوا إن كنتم صادقين في وقوع الحشر فقولوا متى يكون .

﴿المسألة الثانية﴾ الخطاب مع من في قولهم (إن كنتم) ؟ نقول الظاهر أنه مع الأنبياء لأنهم لما أنكروا الرسالة قالوا إن كنتم يا أيها المدعون للرسالة صادقين فأخبرونا متى يكون .

﴿المسألة الثالثة﴾ ليس في هذا الموضع وعد فالإشارة بقوله (هذا الوعد) إلى أي وعد ؟ نقول هو ما في قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم) من قيام الساعة ، أو نقول هو معلوم وإن لم يكن مذكوراً لكون الأنبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب .

قوله تعالى : ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾ أي لا ينتظرون إلا الصيحة المعلومة والتنكير للتكثير ، فإن قيل هم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها ، فنقول الانتظار فعل لأنهم كانوا يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حلم الله وقدرته وعلمه فإنهم لا يقولون أو نقول لما لم يكن قولهم متى استفهاماً حقيقياً قال ينظرون انتظاراً غير حقيقي لأن القائل متى يفهم منه الانتظار نظراً إلى قوله ، وقد ذكروا ههنا في الصيحة أموراً تدل على

﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

موصوفة وعظمها (أحدها) التنكير يقال لفلان مال أي كثير وله قلب أي جريء (وثانيها) واحدة أي لا يحتاج معها إلى ثانية (وثالثها) تأخذهم أي تعمهم بالأخذ وتصل إلى من في مشارق الأرض ومغاربها، ولا شك أن مثلها لا يكون إلا عظيما.

وقوله ﴿تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ مما يعظم به الأمر لأن الصيحة المعتادة إذا وردت على غافل يرجف فإن المقبل على مهم إذا صاح به صائح يرجف فؤاده بخلاف المنتظر للصيحة، فإذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذي هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والإيجاف أعظم، ويحتمل أن يقال (يخصمون) في البعث ويقولون لا يكون ذلك أصلا فيكونون غافلين عنه بخلاف من يعتقد أنه يكون فيتأهب وينتظر وقوعه فإنه لا يرجف، وهذا هو المراد بقوله تعالى (فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء) أي اعتقد وقوعها فاستعد لها، ومثاله فيمن شام برقاً وعلم أن سيكون رعد ومن لم يشمه ولم يعلم ثم رعد الرعد ترى الشائم العالم ثابتاً والغافل الذاهل مغشياً عليه. ثم بين شدة الأخذ وهي بحيث لا تمهلهم إلى أن يوصوا. وفيه أمور مبينة للشدة (أحدها) عدم الاستطاعة فإن قول القائل فلان في هذه الحال لا يوصي دون قوله لا يستطيع التوصية لأن من لا يوصي قد يستطيعها (الثاني) التوصية وهي بالقول والقول يوجد أسرع مما يوجد الفعل فقال (لا يستطيعون) كلمة فكيف فعلا يحتاج إلى زمان طويل من أداء الواجبات ورد المظالم (الثالث) اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لا قدرة له على أهم الكلمات فإن وقت الموت فالحاجة إلى التوصية أمس (الرابع) التنكير في التوصية للتعميم أي لا يقدر على توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة. ولأن التوصية قد تحصل بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها (الخامس) قوله (ولا إلى أهلهم يرجعون) بيان لشدة الحاجة إلى التوصية لأن من يرجو الوصول إلى أهله قد يمسك عن الوصية لعدم الحاجة إليها، وأما من يقطع بأنه لا وصول له إلى أهله فلا بد له من التوصية. فإذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة.

وفي قوله (ولا إلى أهلهم يرجعون) وجهان (أحدهما) ما ذكرنا أنهم يقطعون بأنهم لا يمهلون إلى أن يجتمعوا بأهاليهم وذلك يوجب الحاجة إلى التوصية (وثانيهما) أنهم إلى أهليهم لا يرجعون، يعني يموتون ولا رجوع لهم إلى الدنيا، ومن يسافر سفراً ويعلم أنه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتي بالوصية

ثم بين ما بعد الصيحة الأولى فقال ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾

أي نفخ فيه [مرة] أخرى كما قال تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى في موضع آخر (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وقال ههنا (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) والقيام غير النسلان وقوله في الموضعين (فإذا هم) يقتضي أن يكونا معاً نقول (الجواب) عنه من وجهين (أحدهما) أن القيام لا ينافي المشي السريع لأن الماشي قائم ولا ينافي النظر (وثانيهما) أن السرعة تجيء الأمور كأن الكل في زمان واحد كقول القائل :

مكر مفر مقبل مدبر معـــا كجلمود صخر حطه السيل من عل

﴿ المسألة الثانية ﴾ كيف صارت النفختان مؤثرتين في أمرين متضادين الأحياء والإماتة ؟ نقول لا مؤثر غير الله والنفخ علامة . ثم إن الصوت الهائل يزلزل الأجسام فعند الحياة كانت أجزاء الحي مجتمعة فزلزلها فحصل فيها تفريق . وحالة الموت كانت الأجزاء متفرقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع فالحاصل أن النفختين يؤثران زلزالاً وانتقالاً للأجرام فعند الاجتماع تتفرق وعند الافتراق تجتمع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما التحقيق في إذا التي للمفاجأة ؟ نقول هي إذا التي للظرف معناه نفخ في الصور فإذا نفخ فيه هم ينسلون لكن الشيء قد يكون ظرفاً للشيء معلوماً كونه ظرفاً ، فعند الكلام يعلم كونه ظرفاً وعند المشاهدة لا يتجدد علم كقول القائل إذا طلعت الشمس أضاء الجو وغير ذلك ، فإذا رأى إضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد ، وأما إذا قلت خرجت فإذا أسد بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الأسد بالباب . لكنه لم يكن معلوماً فإذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفاً له مفاجأة عند الإحساس فقيل إذا للمفاجأة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أين يكون في ذلك الوقت أجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال ؟ نقول يجمع الله أجزاء كل واحد في الموضع الذي قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الموضع موضع ذكر الهيبة وتقدم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على الرحمة فلو قال بدل الرب المضاف إليهم لفظاً دالاً على الهيبة هل يكون أليق أم لا ؟ قلنا : هذا اللفظ أحسن ما يكون ، لأن من أساء واضطر إلى التوجه إلى من أحسن إليه يكون ذلك أشد ألماً وأكثر ندماً من غيره .

﴿ المسألة السادسة ﴾ المنسي إذا توجه إلى المحسن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، والنسلان هو سرعة المشي فكيف يوجد منهم ذلك ؟ نقول (ينسلون) من غير اختيارهم ، وقد ذكرنا في تفسير قوله (فإذا هم ينظرون) أنه أراد أن يبين كمال قدرته ونفوذ إرادته حيث ينفخ في الصور فيكون في وقته جمع وتركيب وإحياء وقيام وعدو في زمان واحد . فقوله (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) يعني في زمان واحد ينتهون إلى حد العدو وهي النسلان الذي لا يكون إلا بعد مراتب .

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢)

قوله تعالى : ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾

يعني لما بعثوا قالوا ذلك ، لأن قوله (ونفخ في الصور) يدل على أنهم بعثوا وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لو قال قائل : لو قال الله تعالى فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون يقولون يا ويلنا كان أليق ، نقول معاذ الله ، وذلك لأن قوله (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) على ما ذكرنا إشارة إلى أنه تعالى في أسرع زمان يجمع أجزاءهم ويؤلفها ويحييها ويحركها ، بحيث يقع نسلانهم في وقت النفخ ، مع أن ذلك لا بد له من الجمع والتأليف ، فلو قال يقولون ، لكان ذلك مثل الحال لينسلون ، أي ينسلون قائلين يا ويلنا وليس كذلك ، فإن قولهم يا ويلنا قبل أن ينسلوا ، وإنما ذكر النسلان لما ذكرنا من الفوائد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل : قد عرفت معنى النداء في مثل يا حسرة ويا حسرتنا ويا ويلنا ، ولكن ما الفرق بين قولهم وقول الله حيث قال (يا حسرة على العباد) من غير إضافة ، وقالوا يا حسرتنا ويا حسرتنا ويا ويلنا ؟ نقول حيث كان القائل هو المكلف لم يكن لأحد علم إلا بحاله أو بحال من قرب منه ، فكان كل واحد مشغولا بنفسه ، فكان كل واحد يقول : يا حسرتنا ويا ويلنا ، فقوله (قالوا يا ويلنا) أي كل واحد قال يا ويلي ، وأما حيث قال الله قال على سبيل العموم لشمول علمه بحالهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما وجه تعلق (من بعثنا من مرقدنا) بقولهم (يا ويلنا) ؟ نقول لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل ، فقالوا (يا ويلنا من بعثنا) أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياماً فنبهنا ؟ وهذا كما إذا كان إنسان موعوداً بأن يأتيه عدو لا يطيقه ، ثم يرى رجلا هائلا يقبل عليه فيرتجف في نفسه ويقول : هذا ذاك أم لا ؟ ويدل على ما ذكرنا قولهم (من مرقدنا) حيث جعلوا القبور موضع الرقاد إشارة إلى أنهم شكوا في أنهم كانوا نياماً فنبهوا أو كانوا موتى وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الأمرين ، فقالوا (من بعثنا) إشارة إلى ظنهم أنه بعثهم الموعود به ، وقالوا (من مرقدنا) إشارة إلى توهمهم احتمال الانتباه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا إشارة إلى ماذا ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) أنه إشارة إلى المرقد كأنهم قالوا (من بعثنا من مرقدنا هذا) فيكون صفة للمرقد يقال كلامي هذا صدق (وثانيهما) هذا إشارة إلى البعث ، أي هذا البعث ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إذا كان هذا صفة المرقد فكيف يصح قوله تعالى (ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) ؟ نقول يكون ما وعد الرحمن ، مبتدأ خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمن حق ، والمرسلون صدقوا ، أو يقال ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون حق ، والأول أظهر لقلة

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

الإضمار ، أو يقال ما وعد الرحمن خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ما وعد الرحمن من البعث ليس تنبيهاً من قبلهم ، وصدق المرسلون فيما أخبروكم به .

﴿المسألة السادسة﴾ إن قلنا (هذا) إشارة إلى المرقد أو إلى البعث ، فجواب الاستفهام بقولهم من بعثنا أين يكون ؟ نقول : لما كان غرضهم من قولهم (من بعثنا) حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه حصل الجواب بقوله هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيهاً ، كما أن الخائف إذا قال لغيره ماذا تقول أيقتلني فلان ؟ فله أن يقول لا تخف ويسكت ، لعلمه أن غرضه إزالة الرعب عنه وبه يحصل الجواب .

قوله تعالى : ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾

أي ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة ، يدل على النفخة قوله تعالى (ونفخ في الصور) ويحتمل أن يقال إن كانت الواقعة ، وقرئت الصيحة مرفوعة على أن كان هي التامة ، بمعنى ما وقعت إلا صيحة ، وقال الزمخشري : لو كان كذلك لكان الأحسن أن يقال : إن كان ، لأن المعنى حينئذ ما وقع شيء إلا صيحة . لكن التأنيث جائز إحالة على الظاهر ، ويمكن أن يقول الذي قرأ بالرفع إن قوله (إذا وقعت الواقعة) تأنيث تهويل ومبالغة ، يدل عليه قوله (ليس لوقعتها كاذبة) فهنا للمبالغة فكذلك ههنا قال (إن كانت إلا صيحة) مؤنثة تأنيث تهويل ، ولهذا جاءت أسماء يوم الحشر كلها مؤنثة كالقيامة والقارعة والحاقة والطامة والصاخة إلى غيرها ، والزمخشري يقول كاذبة بمعنى ليس لوقعتها نفس كاذبة ، وتأنيث أسماء الحشر لكون الحشر مسمى بالقيامة ، وقوله (محضرون) دل على أن كونهم (ينسلون) إجباري لا اختياري .

ثم بين ما يكون في ذلك اليوم بقوله تعالى ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾

فقوله (لا تظلم نفس) ليأمن المؤمن (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) لييأس المجرم الكافر وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما الفائدة في الخطاب عند الإشارة إلى يأس المجرم بقوله (ولا تجزون) وترك الخطاب في الإشارة إلى أمان المؤمن من العذاب بقوله (لا تظلم) ولم يقل ولا تظلمون أيها المؤمنون ؟ نقول لأن قوله (لا تظلم نفس شيئاً) يفيد العموم وهو كذلك فإنها لا تظلم أبداً (ولا تجزون) مختص بالكافر ، فإن الله يجزي المؤمن وإن لم يعمل فإن الله فضلا مختصاً بالمؤمن وعدلا عاماً ، وفيه بشارة .

إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما المقتضي لذكر فاء التعقيب ؟ نقول لما قال (محضرون) مجموعون والجمع للفصل والحساب ، فكأنه تعالى قال إذا جمعوا لم يجمعوا إلا للفصل بالعدل ، فلا ظلم عند الجمع للعدل ، فصار عدم الظلم مرتباً على الإحضار للعدل ، ولهذا يقول القائل الوالي أو القاضي : جلس للعدل فلا ظلم ، أي ذلك يقتضي هذا ويستعقبه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لا يجزون عين ما كانوا يعملون ، بل يجزون بما كانوا أو على ما كانوا وقوله (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) يدل على أن الجزاء بعين العمل ، لا يقال جزى يتعدى بنفسه وبالباء ، يقال جزيته خيراً وجزيته بخير ، لأن ذلك ليس من هذا لأنك إذا قلت جزيته بخير لا يكون الخير مفعولك ، بل تكون الباء للمقابلة والسببية كأنك تقول جزيته جزاء بسبب ما فعل ، فنقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) أن يكون ذلك إشارة على وجه المبالغة إلى عدم الزيادة وذلك لأن الشيء لا يزيد على عينه ، فنقول قوله تعالى (يجزون بما كانوا يعملون) في المساواة كأنه عين ما عملوا ، يقال فلان يجازيني حرفاً بحرف أي لا يترك شيئاً ، وهذا يوجب اليأس العظيم (الثاني) هو أن ما غير راجع إلى الخصوص ، وإنما هي للجنس تقديره ولا تجزون إلا جنس العمل أي إن كان حسنة فحسنة ، وإن كانت سيئة فسيئة فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة ، وهذا كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

ثم بين حال المحسن وقال ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ﴾ .

وقوله (في شغل) يحتمل وجوهاً : (أحدها) (في شغل) عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب ، فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب ، وقوله (فاكهون) يكون متمماً لبيان سلامتهم فإنه لو قال (في شغل) جاز أن يقال هم في (شغل) عظيم من التفكر في اليوم وأهواله ، فإن من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع في ماله ، يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه ، فقال (فاكهون) أي شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور (وثانيها) أن يكون ذلك بياناً لحالهم ولا يريد أنهم شغلوا عن شيء بل يكون معناه هم في عمل ، ثم بين عملهم بأنه ليس بشاق ، بل هو مشتهى محبوب (وثالثها) في شغل عما توقعوه فإنهم تصوروا في الدنيا أموراً وقالوا نحن إذا دخلنا الجنة لا نطلب إلا كذا وكذا ، فرأوا ما لم يخطر ببالهم فاشتغلوا به ، وفيه وجوه غير هذه ضعيفة (أحدها) قيل افتضاض الأبكار وهذا ما ذكرناه في الوجه الثالث أن الإنسان

قد يترجح في نظره الآن مداعبة الكواعب فيقول في الجنة ألتذ بها ، ثم إن الله ربما يؤتيه ما يشغله عنها (وثانيها) قيل في ضرب الأوتار وهو من قبيل ما ذكرناه توهم (وثالثها) في التزاور (ورابعها) في ضيافة الله وهو قريب مما قلنا لأن ضيافة الله تكون بألذ ما يمكن وحينئذ تشغله تلك عما توهمه في دنياه وقوله (فاكهون) خبر إن ، و(في شغل) بيان ما فيكاهتهم فيه يقال زيد على عمله مقبل ، وفي بيته جالس فلا يكون الجار والمجرور خبراً ولو نصبت جالساً لكان الجار والمجرور خبراً . وكذلك لو قال في شغل فاكهين لكان معناه أصحاب الجنة مشغولون فاكهين على الحال وقرىء بالنصب والفاكه(١) الملتذ المتنعم به ومنه الفاكهة لأنها لا تكون في السعة إلا للذة فلا تؤكل لدفع ألم الجوع ، وفيه معنى لطيف ، وهو أنه أشار بقوله (في شغل) عن عدمهم الألم فلا ألم عندهم ، ثم بين بقوله (فاكهون) عن وجدانهم اللذة وعادم الألم قد لا يكون واجداً للذة ، فبين أنهم على أتم حال ثم بين الكمال بقوله (هم وأزواجهم) وذلك لأن من يكون في لذة قد تتنغص عليه بسبب تفكره في حال من يهمه أمره فقال (هم وأزواجهم) أيضاً فلا يبقى لهم تعلق قلب ، وأما من في النار من أقاربهم وإخوانهم فيكونون هم عنهم في شغل ، ولا يكون بسببهم عندهم ألم ولا يشتهون حضورهم والأزواج يحتمل وجهين : (أحدهما) أشكالهم في الإحسان وأمثالهم في الإيمان كما قال تعالى (من شكله أزواج) ، (وثانيهما) الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل كما في قوله تعالى (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) وقوله تعالى (ويذرون أزواجاً) فإن المراد ليس هو الأشكال ، وقوله (في ظلال) جمع ظل وظلل جمع ظلة والمراد به الوقاية عن مكان الألم ، فإن الجالس تحت كن لا يخشى المطر ولا حر الشمس فيكون به مستعداً لدفع الألم ، فكذلك لهم من ظل الله ما يقيهم الأسواء ، كما قال تعالى (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) وقال (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) إشارة إلى عدم الآلام (وفيه لطيفة) أيضاً وهي أن حال المكلف ، إما أن يكون اختلالها بسبب ما فيه من الشغل ، وإن كان في مكان عال كالقاعد في حر الشمس في البستان المنزه أو يكون بسبب المكان ، وإن كان الشغل مطلوباً كملاعبة الكواعب في المكان المكشوف ، وإما أن يكون بسبب المأكل كالمتفرج في البستان إذا أعوزه الطعام ، وإما بسبب فقد الحبيب ، وإلى هذا يشير أهل القلب في شرائط السماع بقولهم : الزمان والمكان والإخوان فقال تعالى (في شغل فاكهون) إشارة إلى أنهم ليسوا في تعب وقال (هم وأزواجهم) إشارة إلى عدم الوحدة الموحشة وقال (في ظلال على الأرائك متكئون) إشارة إلى المكان وقال (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) إشارة إلى دفع جميع حوائجهم وقوله (متكئون) إشارة إلى أدل وضع على القوة والفراغة فإن القائم قد يقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم . وأما المتكىء فلا يتكىء إلا عند الفراغ والقدرة لأن المريض لا يقدر على الاتكاء ، وإنما يكون مضطجعاً أو مستلقياً (والأرائك) جمع أريكة وهي السرير الذي عليه الفرش وهو تحت الحجلات فيكون مرئياً هو

(١) في نسخة بولاق : والفاكه ، [illegible] واسع ، وقد تكلم [illegible] [illegible] .

وما فوقه وقوله (لهم فيها فاكهة) إشارة إلى أن لا جوع هناك ، وليس الأكل لدفع ألم الجوع ، وإنما مأكولهم فاكهة ، ولو كان لحماً طرياً ، لا يقال قوله تعالى (ولحم طير مما يشتهون) يدل على التغاير وصدق الشهوة وهو الجوع لأنا نقول قوله (مما يشتهون) يؤكد معنى عدم الألم لأن أكل الشيء قد يكون للتداوي من غير شهوة فقال مما يشتهون لأن لحم الطير في الدنيا يؤكل في حالتين (إحداهما) حالة التنعم (والثانية) حالة ضعف المعدة وحينئذ لا يأكل لحم طير يشتهيه ، وإنما يأكل ما يوافقه ويأمره به الطبيب ، وأما أنه يدل على التغاير ، فنقول مسلم ذلك لأن الخاص يخالف العام ، على أن ذلك لا يقدح في غرضنا ، لأنا نقول إنما اختار من أنواع المأكول الفاكهة في هذا الموضع لأنها أدل على التنعم والتلذذ وعدم الجوع والتنكير لبيان الكمال ، وقد ذكرناه مراراً وقوله (لهم فيها فاكهة) ولم يقل يأكلون ، إشارة إلى كون زمام الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين وقوله (ولهم ما يدعون) فيه وجوه : (أحدها) (لهم فيها ما يدعون) لأنفسهم أي دعاؤهم مستجاب ، وحينئذ يكون هذا افتعالا بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحيل ، وعلى هذا فليس معناه أنهم يدعون لأنفسهم دعاء فيستجاب دعاؤهم بعد الطلب بل معناه ولهم ما يدعون لأنفسهم أي ذلك لهم فلا حاجة لهم إلى الدعاء والطلب ، كما أن الملك إذا طلب منه مملوكه شيئاً يقول لك ذلك فيفهم منه تارة أن طلبك مجاب وأن هذا أمر هين بأن تعطى ما طلبت ، ويفهم تارة منه الرد وبيان أن ذلك لك حاصل فلم تطلبه فقال تعالى (ولهم ما يدعون) ويطلبون فلا طلب لهم وتقريره هو أن يكون ما يدعون بمعنى ما يصح أن يطلب ويدعى يعني كل ما يصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب ، أو نقول المراد الطلب والإجابة وذلك لأن الطلب من الله أيضاً فيه لذة فلو قطع الله الأسباب بينهم وبينه لما كان يطيب لهم فأبقى أشياء يعطيهم إياها عند الطلب ليكون لهم عند الطلب لذة وعند العطاء ، فإن كون المملوك بحيث يتمكن من أن يخاطب الملك في حوائجه منصب عظيم ، والملك الجبار قد يدفع حوائج المماليك بأسرها قصداً منه لئلا يخاطب (الثاني) ما يدعون ما يتداعون وحينئذ يكون افتعالا بمعنى التفاعل كالاقتتال بمعنى التقاتل . ومعناه ما ذكرناه أن كل ما يصح أن يدعو أحد صاحبه إليه أو يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم (الثالث) ما يتمنونه (الرابع) بمعنى الدعوى ومعناه حينئذ أنهم كانوا يدعون في الدنيا أن لهم الله وهو مولاهم وأن الكافرين لا مولى لهم . فقال لهم في الجنة ما يدعون به في الدنيا ، فتكون الحكاية محكية في الدنيا ، كأنه يقول في يومنا هذا لكم أيها المؤمنون غداً ما تدعون اليوم . لا يقال بأن قوله (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال) يدل على أن القول يوم القيامة لأنا نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن قوله (هم) مبتدأ (وأزواجهم) عطف عليهم فيحتمل أن يكون هذا الكلام في يومنا هذا مخبراً أن المؤمن وأزواجه في ظلال غداً وله ما يدعيه (والجواب الثاني)

سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

وهو أولى هو أن نقول : معناه لهم مايدعون أي ما كانوا يدعون . لا يقال بأنه إضمار حيث لاضرورة وإنه غير جائز لأنا نقول على ماذكرنا يبقى الادعاء مستعملاً في معناه المشهور لأن الدعاء هو الإتيان بالدعوى وإنما قلنا إن هذا أولى لأن قوله (سلام قولاً من رب رحيم) هو في دار الآخرة وهو كالتفسير لقوله (مايدعون) ولأن قوله (ما يدعون) مذكور بين جمل كلها في الآخرة ما يدعون أيضاً ينبغي أن يكون في الآخرة وفي الآخرة لا يبقى دعوى وبينة لظهور الأمور والفصل بين أهل الثبور والحبور .

قوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ هو أكمل الأشياء وهو آخرها الذي لا شيء فوقه ولنبينه في مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الرافع لقوله (سلام) ؟ نقول يحتمل ذلك وجوهاً (أحدها) هو بدل مما يدعون كأنه تعالى لما قال (لهم ما يدعون) بينه ببدله فقال لهم سلام فيكون في المعنى كالمبتدأ الذي خبره جار ومجرور، كما يقال في الدار رجل ولزيد مال ، وإن كان في النحو ليس كذلك بل هو بدل وبدل النكرة من المعرفة جائز فتكون ما بمعنى الذي معرفة وسلام نكرة ، ويحتمل على هذا أن يقال ما في قوله تعالى (ما يدعون) لا موصوفة ولا موصولة بل هي نكرة تقديره لهم شيء يدعون ثم بين بذكر البدل فقال (سلام) والأول هو الصحيح (وثانيها) سلام خبر ما ولهم لبيان الجهة تقديره ما يدعون سالم لهم أي خالص والسلام بمعنى السالم الخالص أو السليم يقال عبد سلام أي سليم من العيوب كما يقال لزيد الشرف متوفر والجار والمجرور يكون لبيان من له ذلك والشرف هو المبتدأ ومتوفر خبره (وثالثها) قوله تعالى (سلام) منقطع عما تقدم وسلام مبتدأ وخبره محذوف تقديره سلام عليهم فيكون ذلك إخباراً من الله تعالى في يومنا هذا كأنه تعالى حكى لنا وقال (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل) ثم لما بين كمال حالهم قال سلام عليهم ، وهذا كما في قوله تعالى (سلام على نوح ، سلام على المرسلين) فيكون الله تعالى أحسن إلى عباده المؤمنين كما أحسن إلى عباده المرسلين وهذا وجه مبتكر جيد ما يدل عليه منقول ، أو نقول تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعاً من الالتفات حيث قال لهم كذا وكذا ، ثم قال سلام عليكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قولاً ، منصوب بماذا ؟ نقول يحتمل وجوهاً (أحدها) نصب على المصدر تقديره على قولنا المراد لهم سلام هو أن يقال لهم سلام يقوله الله قولاً أو تقوله الملائكة قولاً وعلى قولنا ما يدعون سالم لهم تقديره قال الله ذلك قولاً ووعدهم بأن لهم ما يدعون سالم وعداً وعلى قولنا سلام عليهم تقديره أقوله قولاً وقوله (من رب رحيم) يكون لبيان أن السلام منه أي سلام عليهم من رب رحيم أقوله قولاً ، ويحتمل أن يقال على هذا إنه تمييز لأن السلام قد يكون قولاً وقد

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

يكون فعلا فإن من يدخل على الملك فيطأطئ رأسه يقول سلمت على الملك . وهو حينئذ كقول القائل السمع موجود حكماً لا حساً وهذا ممنوع عنه قطعاً لا طبعاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال في السلام من رب رحيم وقال في غيره من أنواع الإكرام (نزلا من غفور رحيم) فهل بينهما فرق ؟ نقول نعم . أما هاهنا فلأن النزل ما يرزق النزيل أولا . وذلك وإن كان يدل على ما بعده فإن النزيل إذا أكرم أولا يدل على أنه مكرم وإذا أخل بإكرامه في الأول يدل على أنه مهان دائماً غير أن ذلك غير مقطوع به ، لجواز أن يكون الملك واسع الرزق فيرزق نزيله أولا ولا يمنع منه الطعام والشراب ويناقشه في غيره فقال غفور مما صدر من العبد ليأمن العبد ولا يقول بأن الإطعام قد يوجد ممن يعاقب بعده والسلام يظهر مزية تعظيمه للمسلم عليه لا بتقرره فقال (رب غفور) لأن رب شيء ، الملك الذي إذا نظر إلى علو مرتبته لا يرجى منه الالتفات إليه بالتعظيم ، فإذا سلم عليه يتعجب منه وقيل الطفل هو سيده ويتم عليه .

قوله تعالى . ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ وفيه وجوه منها تبين وجه الترتيب أيضاً (الأول) امتازوا في أنفسكم وتفرقوا كما قال تعالى (تكاد تميز من الغيظ) أي يتميز بعضها من بعض غير أن يموج من الحسرة والندامة ووجه الترتيب حينئذ أن المجرم يرى عزة المؤمن ورفعته وزوال دركته وضعته فيتحسر فيقال لهم (امتازوا اليوم) إذ لا دواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم (الثاني) امتازوا عن المؤمنين وذلك لأنهم يكونون شاهدين لما يصل إلى المؤمن من الثواب والإكرام ثم يقال لهم تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم أبداً (الثالث) امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان الذي أشار إليه بقوله تعالى (هم وأزواجهم) فأهل النار تكون لهم عذاب الأليم وعذاب الفرقة أيضاً ولا عذاب فوق الفرقة . بل العقلاء قالوا بأن كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال ، فإن من قطعت يده أو أحرق جسمه فإنما يتألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض ، لكن التفرق الجسمي دون التفرق العقلي (الرابع) امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم فما لكم اليوم حميم ولا شفيع (الخامس) امتازوا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير . والمجرم هو الذي يأتي بالجريمة ، ويحتمل أن يقال إن المراد منه أن الله تعالى يقول امتازوا فتظهر عليهم سيماء يعرفون بها ، كما قال تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم) وحينئذ يكون قوله تعالى امتازوا أمر تكوين ، كما أنه يقول (كن فيكون) كذلك يقول امتازوا فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم أو في وجوههم سواد .

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾

لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين كان لقائل أن يقول : إن الإنسان كان ظلوماً جهولاً ، والجهل من الأعذار ، فقال الله ذلك عذر عند عدم الإنذار ، وقد سبق إيضاح السبل بإيضاح الرسل ، وعهدنا إليكم وتلونا عليكم ما ينبغي أن تفعلوه وما لا ينبغي ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في اللغات التي في (أعهد) وهي كثيرة (الأولى) كسر همزة إعهد وحروف الاستقبال كلها تكسر إلا الياء فلا يقال يعلم ويعلم (والثانية) كسر الهاء من باب ضرب يضرب (الثالثة) قلب العين حرفاً ألم أحهد وذلك في كل عين بعدها هاء (الرابعة) إدغام الهاء في الحاء بعد القلب فيقال ألم أحد ، وقد سمع قوم يقولون دحا محا ، أي دعها معها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في معنى أعهد وجوه : أقربها وأقواها ألم أوص إليكم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في هذا العهد وجوه (الأول) أنه هو العهد الذي كان مع أبينا آدم بقوله (وعهدنا إلى آدم) ، (الثاني) أنه هو الذي كان مع ذرية آدم بقوله تعالى (ألست بربكم قالوا بلى) فإن ذلك يقتضي أن لا نعبد غير الله (الثالث) وهو الأقوى ، أن ذلك كان مع كل قوم على لسان رسول ، ولذلك اتفق العقلاء على أن الشيطان يأمر بالشر ، وإن اختلفوا في حقيقته وكيفيته .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (لا تعبدوا الشيطان) معناه لا تطيعوه ، بدليل أن المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب ، بل الانقياد لأمره والطاعة له فالطاعة عبادة ، لا يقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الأمراء حيث أمرنا بطاعتهم في قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) لأنا نقول طاعتهم إذا كانت بأمر الله ، لا تكون إلا عبادة لله وطاعة له ، وكيف لا ونفس السجود والركوع للغير إذا كان بأمر الله لا يكون إلا عبادة لله ، ألا ترى أن الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك إلا عبادة لله ، وإنما عبادة الأمراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه ، فإن قيل فماذا نقول طاعة الشيطان من طاعة الرحمن ، مع أنا لا نسمع من الشيطان خيراً ولا نرى منه أثراً ؟ نقول عبادة الشيطان في مخالفة أمر الله أو الإتيان بما أمر الله لا لأنه أمر به ، ففي بعض الأوقات يكون الشيطان يأمرك وهو في غيرك ، وفي بعض الأوقات يأمرك وهو فيك ، فإذا جاءك شخص يأمرك بشيء ، فانظر إن كان ذلك موافقاً لأمر الله أو ليس موافقاً ، فإن لم يكن موافقاً فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به ، فإن أطعته فقد عبدت الشيطان ، وإن دعتك نفسك إلى فعل فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أو ليس كذلك ، فإن لم يكن مأذوناً فيه فنفسك هي الشيطان ، أو معها الشيطان يدعوك ، فإن اتبعته فقد عبدته ، ثم إن الشيطان يأمر أولاً بمخالفة

الله ظاهراً ، فمن أطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه ، بل يقول له اعبد الله كي لا تهان ، وترتفع عند الناس منزلتك ، وينتفع بك إخوانك وأعوانك . فإن أجاب إليه فقد عبده لكن عبادة الشيطان على تفاوت ، وذلك لأن الأعمال منها ما يقع والقلب موافق فيه جنانه ولسانه وأركانه ، ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح أو الأركان ، فمن الناس من يرتكب جريمة كارهاً بقلبه لما يقترف من ذنبه ، مستغفراً لربه ، يعترف بسوء ما يقترف فهو عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة ، ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب ، كما أنك تجد كثيراً من الناس يفرح بكونه متردداً إلى أبواب الظلمة للسعاية ، ويعد من المحاسن كونه صار يأمر الملوك ويفتخر به بلسانه ، وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملاك بالظلم والملاك ينقاد لهم ، أو يفرحون بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون ، فرحين بما ورد عليهم من الأمر ، إذا عرفت هذا فالعبادة التي بالأعضاء الظاهرة ، والبواطن طاهرة مكفرة بالأسقام والآلام ، كما ورد في الأخبار ، ومن ذلك قوله ﷺ « الحمى من فيح جهنم » وقوله ﷺ « السيف محاء للذنوب » أي لمثل هذه الذنوب ، ويدل عليه ما قال ﷺ في الحدود « إنها كفارات » ، وما يكون بالقلوب فلا خلاص عنه إلا بالتوبة والندم وإقبال القلب على الرب ، وما يكون باللسان فهو من قبيل ما يكون بالقلب في الظاهر ، والمثال يوضح الحال فنقول إذا كان عند السلطان أمير وله غلمان هم من خواص الأمير وأتباع يعدادهم من عوام الناس ، فإذا صدر من الأمير مخالفة ومسارة مع عدو السلطان ومصادقة بينهما ، لا يغفر الملك عن ذلك إلا إذا كان في غاية الصفح ، أو يكون للأمير عنده يد سابقة أو توبة لاحقة ، فإن صدر من خواص الأمير مخالفة وهو به عالم ولم يزجره ، عدت المخالفة موجودة منه ، وإن كان كارهاً وأظهر الإنكار حسنت معاتبته دون معاقبته ، لأن إقدام خواصه على المخالفة دليل على سوء التربية ، فإن كان الصادر من الحواشي الأباعد وبلغ الأمير ولم يزجره عوتب الأمير ، وإن زجرهم استحق الأمير بذلك الزجر الإكرام ، وحسن من الملك أن يتعدى إلى المزجور الإحسان والإنعام إن علم حصول انزجاره ، إذا علمت هذا فالقلب أمير واللسان خاصته والأعضاء خدمه ، فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب ، فإن أقبل على محبة غير الله فهو الوبال العظيم والضلال المبين المستعقب للعقاب الأليم والعذاب المهين ، وما يصدر من اللسان فهو محسوب على القلب ولا يقبل قوله إن لم ينكر فعله وما يصدر من الأعضاء والقلب قد أظهر عليه الإنكار وحصل له الانزجار فهو الذنب الذي حكى النبي ﷺ عن ربه أنه قال « لو لم تذنبوا لخلقت أقواماً يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم » ، (وههنا لطيفة) وهي أن الشيطان قد يرجع عن عبد من عباد الله فرحاً فيظن أنه قد حصل مقصوده من الإغواء حيث يرى ذلك العبد ارتكب الذنب ظاهراً ويكون ذلك سرابا لمزية العبد . فإن بالذنب ينكسر قلب العبد فيتخلص من الإعجاب بنفسه وعبادته ، ويصير أقرب من المقربين ، لأن من يذنب مقرب عند الله كما قال تعالى (لهم درجات عند ربهم) والمذنب التائب النادم منكسر القلب والله عنده كما قال ﷺ حاكياً عن ربه « أنا عند المنكسرة قلوبهم » وفرق

بين من يكون عند الله ، وبين من يكون عنده الله ، ولعل ما يحكى من الذنوب الصادرة عن الأنبياء من هذا القبيل تحصل لهم الفضيلة على الملائكة حيث تبجحوا بأنفسهم بقولهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وقد يرجع الشيطان عن آخر يكون قد أمره بشيء لم يفعله والشخص يظن أنه غلب الشيطان ورده خائباً فيتبجح في نفسه وهو لا يعلم أن الشيطان رجع عنه عمل المقصود مقبولا غير مردود . ومن هذا يتبين أمر أصولي وهو أن الناس اختلفوا في أن الذنب هل يخرج من الإيمان أم لا ؟ وسبب النزاع وقوع نظر الخصمين على أمرين متباينين فالذنب الذي بالجسد لا بالقلب لا يخرج بل قد يزيد في الإيمان والذي بالقلب يخاف منه الخروج عن ربقة الإيمان ولذلك اختلفوا في عصمة الأنبياء من الذنوب ، والأشبه أن الجسدي جائز عليهم والقرآن دليل عليه ، والقلبي لا يجوز عليهم . ثم إنه تعالى لما نهى عباده عن عبادة الشيطان ذكر ما يحملهم على قبول ما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه بقوله (إنه لكم عدو مبين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من أين حصلت العداوة بين الشيطان والإنسان ؟ فنقول ابتداؤها من الشيطان وسببه تكريم الله بني آدم ، لما رأى إبليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم فعاداه الله تعالى والأولى منه لؤم والثاني من الله كرم . أما الأول فلأن الملك إذا أكرم شخصاً ولم ينقص من الآخر شيئاً إذ لا ضيق في الخزانة ، فعداوة من يعادي ذلك المكرم لا تكون إلا لؤماً ، وأما الثاني فلأن الملك إذا علم أن إكرامه ليس إلا منه وذلك لأن الضعيف ما كان يقدر أن يصل إلى بعض تلك المنزلة لولا إكرام الملك ، يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك أو ينسب إلى خزانته ضيقاً ، وكلاهما يحسن التعذيب عليه فمعاديه إتماماً الإكرام وإكمالا للإفضال ، ثم إن كثيراً من الناس على مذهب إبليس إذا رأوا واحداً عند ملك محترماً يعادونه ويسعوا فيه إقامة لسنة إبليس ، فالملك إن لم يكن متخلقاً بأخلاق الله لا يبعد الساعي ويسمع كلامه ويترك إكرام ذلك الشخص واحترامه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من أين إبانة عداوة إبليس ؟ نقول لما أكرم الله آدم عاداه إبليس وظن أنه يبقى في منزلته وآدم في منزلته مثل متباغضين عند الملك والله كان عالماً بالضمائر فأبعده وأظهر أمره فأظهر هو من نفسه ما كان يخفيه لزوال ما كان يحمله على الإخفاء فقال (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) وقال (لأحتنكن ذريته) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا كان الشيطان للإنسان عدواً مبيناً فما بال الإنسان يميل إلى مراضيه من الشرب والزنا ، ويكره مساخطه من المجاهدة والعبادة ؟ نقول سبب ذلك استعانة الشيطان بأعوان من عند الإنسان وترك استعانة الإنسان بالله ، فيستعين بشهوته التي خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سبباً لفساد حاله ويدعوه بها إلى مسالك المهالك ، وكذلك يستعين بغضبه الذي خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سبباً لوباله وفساد أحواله ، وميل الإنسان إلى المعاصي كميل المريض إلى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال ، فترى المحموم يريد الماء البارد

وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

وهو يزيد فى مرضه . ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء يميل إلى الأكل الكثير ولا يشبع بشيء وهو يزيد فى معدته فساداً ، وصحيح المزاج لا يشتهي إلا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبىء لا يستغنى الإنسان به عن استنشاق الهواء وهو الفاسد لمزاجه ولا طريق له غير إصلاح الهواء بالروائح الطيبة والأشياء الزكية والرش بالخل والماورد من جملة المصلحات . فكذلك الإنسان فى الدنيا لا يستغنى عن أمورها وهى المعينات للشيطان وطريقه ترك الهوى وتقليل التأميل وتعريف الهوى بالذكر الطيب والزهد ، فإذا صح مزاج عقله لا يميل إلا إلى الحق ولا يبقى عليه فى التكاليف كلفة ويحصل له مع الأمور الإلهية ألفة . وحينئذ يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان .

قوله تعالى : ﴿ وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾ لما منع عبادة الشيطان حمل على عبادة الرحمن والشارع طبيب الأرواح كما أن الطبيب طبيب الأشباح ، وكما أن الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا وهى الحمية التى هى رأس الدواء لئلا يزيد مرضه ، ثم يقول له تناول الدواء الفلانى تقوية لقوته المقاومة للمرض ، كذلك الشارع منع من الفساد وهو اتباع الشيطان وحمل على المصلح وهو عبادة الرحمن وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عند المنع من عبادة الشيطان قال (إنه لكم عدو مبين) لأن العداوة أبلغ الموانع من الاتباع ، وعند الأمر بعبادة الرحمن لم يقل إنه لكم حبيب لأن المحبة لا توجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة ، فيقول إنه يحبنى فلا حاجة إلى تحمل المشقة فى تحصيل مراضيه ، بل ذكر ما هو أبلغ الأشياء فى الحمل على العبادة وذلك كونه طريقاً مستقيما ، وذلك لأن الإنسان فى دار الدنيا فى منزل قفر مخوف وهو متوجه إلى دار إقامة فيها إخوانه . والنازل فى بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شيء أحب من طريق قريب آمن ، فلما قال الله تعالى (هذا صراط مستقيم) كان ذلك سبباً حاملا على السلوك ، وفى ضمن قوله تعالى (هذا صراط) إشارة إلى أن الإنسان مسافر لأنه لو كان فى دار إقامة فقوله (هذا صراط مستقيم) لا يكون له معنى لأن المقيم يقول وماذا أفعل بالطريق وأنا من المقيمين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ماذا يدل على كونه طريقاً مستقيما ؟ نقول الإنسان مسافر إما مسافرة راجع إلى وطنه ، وإما مسافرة تاجر له متاع يتجر فيه ، وعلى الوجهين فالله هو المقصد ، وأما الوطن فلأنه لا يوطن إلا فى مأمن ولا أمن إلا بملك لا يزول ملكه لأن عند زوال ملك الملوك لا يبقى الأمن والراحة ، والله سبحانه هو الذى ملكه دائم وكل ما عداه فهو فان . وأما التجارة فلأن التاجر لا يقصد إلا إلى موضع يسمع أو يعلم أن متاعه هناك رواجا والله تعالى يقول إن العمل الصالح

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾

عنده مثاب عليه مقابل بأضعاف مايستحق ، والله هو المقصد ، وعبادته توجه إليه ، ولا شك أن القاصد لجهة إذا توجه اليها يكون على الطريق المستقيم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ العبادة تنبىء عن معنى التذلل ، فلما قال لا تعبدوا الشيطان لزم أن يتكبر الإنسان على ما سوى الله ولما قال (وأن اعبدوني) ينبغي أن لا يتكبر على الله لكن التكبر على ما سوى الله ليس معناه أنه يرى نفسه خيراً من غيره ، فإن نفسه من جملة ما سوى الله ، فينبغي أن لا يلتفت اليها ولو كانت متحملة بعبادة الله ، بل معنى التكبر على ماسوى الله أن لا ينقاد لشيء إلا بإذن الله وفي هذا التكبر غاية التواضع فإنه حينئذ لا ينقاد إلى نفسه ويحفظ نفسه في التفوق على غيره فلا يتفوق فيحصل التواضع التام ولا ينقاد لأمر الملوك إذا خالفوا أمر الله فيحصل التكبير التام فيرى نفسه بهذا التكبر دون الفقير وفوق الأمير .

ثم إن الله تعالى ذكر ما ينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى ﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الجبل ست لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد وكسرهما مع التخفيف وضمهما معه وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في معنى الجبل الجيم والباء واللام لاتخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الأجسام الكثيرة ، وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب ، وشاة جبلة إذا كانت مجتمعة اللبن الكثير ، لايقال البلجة تنقض ما ذكرتم فإنها تنبىء عن التفرق فإن الأبلج خلاف المقرون لأنا نقول هي لاجتماع الأماكن الخالية التي تسع المتمكنات ، فإن البلجة والبلدة بمعنى والبلد سمي بلداً للاجتماع لا للتفرق ، فالجبل الجمع العظيم حتى قيل إن دون العشرة آلاف لايكون جبلاً وإن لم يكن صحيحاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف الإضلال ؟ نقول على وجهين : (أحدهما) أن الإضلال تولية عن المقصد وصد عنه فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله وبعبادة غيره فهو تولية فإن لم يقدر يأمره بعبادة الله لأمر غير الله من رياسة وجاه وغيرهما فهو صد ، وهو يفضي إلى التولية لأن مقصوده لو حصل ترك الله وأقبل على ذلك الغير فيحصل التولية .

ثم بين مآل أهل الضلال بقوله تعالى ﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴾ .

وحال الضال كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدوه فوقع في مشقة ولو أقام في وطنه لعل

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾

ذلك العدو كان لا يظفر به أو يرحمه ، كذلك حال من لم يتحرك لطاعة ولا عصيان كالمجانين وحال من استعمل عقله فأخطأ الطريق ، فإن المجنون من أهل النجاة وإن لم يكن من أهل الدرجات ، وقد قيل بأن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء ، وذلك ظاهر في المحسوس فإن من لم يعرف الطريق إذا أقام مكانه لا يبعد عن الطريق كثيراً ومن سار إلى خلاف المقصد يبعد عنه كثيراً .

ثم بين أنهم واصلون إليها حاصلون فيها بقوله تعالى ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ .

وفي هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه : (أحدها) قوله تعالى (اصلوها) فإنه أمر تنكيل وإهانة كقوله (ذق إنك أنت العزيز الكريم) . (والثاني) قوله (اليوم) يعني العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وأيامها قد انقضت وبقي اليوم العذاب (الثالث) وقوله تعالى (بما كنتم تكفرون) فإن الكفر والكفران ينبيء عن نعمة كانت يكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام ولهذا كثيراً ما يقول العبد المجرم افعلوا بي ما يأمر به السيد ولا تحضروني بين يديه وإلى هذا المعنى أشار القائل :

أليس بكاف لذي نعمة حياء المسيء من المحسن

قوله تعالى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ في الترتيب وجوه : (الأول) أنهم حين يسمعون قوله تعالى (بما كنتم تكفرون) يريدون [أن] ينكروا كفرهم كما قال تعالى عنهم ما أشركنا وقالوا آمنا به فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الإنكار وينطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم (الثاني) لما قال الله تعالى لهم (ألم أعهد إليكم) لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان ، وفي الختم على الأفواه وجوه : أقواها ، أن الله تعالى يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه في قدرة الله يسير ، أما الإسكات فلا خفاء به ، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على الممكنات والوجه الآخر أنهم لا يتكلمون بشيء لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم فيقفون ناكسي الرؤوس وقوف القنوط اليؤوس لا يجد عذراً فيعتذر ولا مجال توبة فيستغفر ، وتكلم الأيدي ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار حتى تنطق به الأيدي والأبصار ، كما يقول القائل : الحيطان تبكي على صاحب الدار ، إشارة إلى ظهور الحزن ، والأول الصحيح وفيه لطائف لفظية ومعنوية .

أما اللفظية (فالأولى منها) هي أن الله تعالى أسند فعل الختم إلى نفسه وقال (نختم) وأسند

وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾

وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل، لأنه لو قال تعالى (نختم على أفواههم) وتنطق أيديهم يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبراً وقهراً والإقرار بالإجبار غير مقبول فقال تعالى (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) أي باختيارها بعدما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم (الثانية) منها هي أن الله تعالى قال (تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) جعل الشهادة للأرجل والكلام للأيدي لأن الأفعال تسند إلى الأيدي قال تعالى (وما عملته أيديهم) أي ما عملوه وقال (ولا تلقوا بأيديكم) أي ولا تلقوا بأنفسكم فإذاً الأيدي كالعاملة، والشاهد على العامل ينبغي أن يكون غيره فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود لبعد إضافة الأفعال إليها، وأما المعنوية (فالأولى) منها أن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة، وإن كان من الشهود العدول وغير الصديقين من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة فجعل الله الشاهد عليهم منهم. لا يقال الأيدي والأرجل أيضاً صدرت الذنوب منها فهي فسقة فينبغي أن لا تقبل شهادتها، لأنا نقول في رد شهادتها قبول شهادتها، لأنها إن كذبت في مثل ذلك اليوم فقد صدر الذنب منها في ذلك اليوم، والمذنب في ذلك اليوم مع ظهور الأمور، لا بد من أن يكون مذنباً في الدنيا، وإن صدقت في ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب في الدنيا، وهذا كمن قال لفاسق: إن كذبت في نهار هذا اليوم فعبدي حر، فقال الفاسق: كذبت في نهار هذا اليوم عتق العبد، لأنه إن صدق في قوله كذبت في نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووجب الجزاء، وإن كذب في قوله كذبت فقد كذب في نهار ذلك اليوم، فوجد الشرط أيضاً بخلاف ما لو قال في اليوم الثاني كذبت في نهار اليوم الذي علقت عتق عبدك على كذبي فيه.

﴿ المسألة الثانية ﴾ الختم لازم الكفار في الدنيا على قلوبهم وفي الآخرة على أفواههم، ففي الوقت الذي كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم، كما قال تعالى (ذلك قولهم بأفواههم) فلما ختم على أفواههم أيضاً لزم أن يكون قولهم بأعضائهم، لأن الإنسان لا يملك غير القلب واللسان والأعضاء، فإذا لم يبق القلب واللسان تعين الجوارح والأركان.

قوله تعالى: ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴾

قد ذكرنا مراراً أن الصراط المستقيم هو بين الجبر والقدر وهو الطريقة الوسطى، والله تعالى في كل موضع ذكر ما يتمسك به الجبرية ذكر عقيبه ما يتمسك به القدرية وبالعكس، وههنا

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

كذلك لما قال الله تعالى (وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقال (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) وكان ذلك متمسك القدرية حيث أسند الله الكفر والكسب إليهم وأحال بالأثر والنذر عليهم ، ذكر عقيبه ما يدل على أن كفرهم وكسبهم بمشيئة الله ، وذلك لأن الكفر يعمي البصيرة بضعف القوة العاقلة ، وعمى البصيرة بإرادة الله ومشيئته ، وإذا شاء أعمى البصائر ، كما أنه لو شاء لطمس على أعينهم المبصرة ، وسلب القوة العقلية باختياره ومشيئته ، كما أنه سلب القوة الجسمية بمشيئته ، حتى لو شاء لمسخ المكلف على مكانه وأقامه بحيث لا يتحرك يمنة ولا يسرة ، ولا يقدر على المضي والرجوع . فإعماء البصائر عنده كإعماء الأبصار ، وسلب القوة العقلية كسلب القوة الجسمية . فقال (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) إشارة إلى أنه لو شاء وأراد إعماء بصائرهم فضلوا ، وأنه لو شاء طمس أعينهم فما اهتدوا إلى طريقتهم الظاهرة ، وشاء واختار سلب قوة عقولهم فزلوا ، وأنه لو شاء سلب قوة أجسامهم ومسخهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر . وفي الآيتين أبحاث لطيفة :

(البحث الأول) في قوله (فاستبقوا الصراط) قال الزمخشري فيه وجوه (الأول) أنه يكون فيه حذف حرف إلى وإيصال الفعل من غير حرف وأصله فاستبقوا إلى الصراط (الثاني) أن يكون المراد من الاستباق الابتدار فأعمله إعمال الابتدار (الثالث) أن يجعل الصراط مسبوقاً لا مسبوقاً إليه ، يقال سبقنا فسبقتهم ، وحينئذ يكون مبالغة في الاهتداء إلى الطريق . كأنه يقول الصراط الذي هو مسلوكهم سبقوا طالبين له فلا يهتدون إليه ، وإن داموا عليه إذا طمس الله على أعينهم لا يبصرونه ، فكيف إن لم يكونوا على الصراط .

(البحث الثاني) قدم الطمس والإعماء على المسخ والإقعاد ليكون الكلام مدرجاً ، كأنه قال إن أعميناهم لم يروا الطريق الذي هم عليه وحينئذ لا يهتدون إليه ، وإن قال قائل الأعمى قد يهتدي إلى الطريق بأمارات عقلية أو حسية غير حس البصر كالأصوات والمشي بحس اللمس ، فارتقى وقال لو مسخناهم وسلبنا قوتهم بالكلية لا يهتدون إلى الصراط بوجه من الوجوه .

(البحث الثالث) قدم المضي على الرجوع ، لأن الرجوع أهون من المضي ، لأن المضي لا ينبئ عن سلوك الطريق من قبل ، وأما الرجوع فينبئ عنه ، ولا شك أن سلوك طريق قد رؤي مرة أهون من سلوك طريق لم ير ، فقال (لا يستطيعون مضياً) ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذي هو أهون من المضي .

قوله تعالى : ﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون ﴾

قد ذكرنا أن قوله تعالى (ألم أعهد إليكم) قطع الأعذار بسبق الإنذار ، ثم لما قرر ذلك

وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾

وأنه شرع في قطع عذر آخر ، وهو أن الكافر يقول لم يكن لبثنا في الدنيا إلا يسيراً ، ولو عمرتنا لما وجدت منا تقصيراً . فقال الله تعالى (أفلا تعقلون) أنكم كلما دخلتم في السن ضعفتم وقد عمرناكم مقدار ما تتمكنون من البحث والإدراك ، كما قال تعالى (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ثم إنكم علمتم أن الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم ويذهب زمان الإمكان ، فلو عمرناكم أكثر من ذلك لكان بعده زمان الإزمان ، ومن لم يأت بالواجب زمان الإمكان ما كان يأتي به زمان الإزمان .

قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ .

في الترتيب وجهان ، قد ذكرنا أن الله في كل موضع ذكر أصلين من الأصول الثلاثة ، وهي الوحدانية والرسالة والحشر ، ذكر الأصل الثالث منها ، وههنا ذكر الأصلين الوحدانية والحشر ، أما الوحدانية ففي قوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان) وفي قوله (وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) وأما الحشر ففي قوله تعالى (اصلوها اليوم) وفي قوله (اليوم نختم على أفواههم) إلى غير ذلك ، فلما ذكرهما وبينهما ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة فقال (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) وقوله (وما علمناه الشعر) إشارة إلى أنه معلم من عند الله فعلمه ما أراد ولم يعلمه ما لم يرد ، وفي تفسير الآية مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ خص الشعر بنفي التعليم ، مع أن الكفار كانوا ينسبون إلى النبي ﷺ أشياء من جملتها السحر ، ولم يقل وما علمناه السحر ، وكذلك كانوا ينسبونه إلى الكهانة ، ولم يقل وما علمناه الكهانة ، فنقول أما الكهانة فكانوا ينسبون النبي ﷺ إليها عندما كان يخبر عن الغيوب ويكون كما يقول . وأما السحر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكلم الحصى والجذع وغير ذلك . وأما الشعر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدى إلا بالقرآن ، كما قال تعالى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) إلى غير ذلك ، ولم يقل إن كنتم في شك من رسالتي فأنطقوا الجذوع أو أشبعوا الخلق العظيم أو أخبروا بالغيوب ، فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه إلى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفي التعليم .

﴿ البحث الثاني ﴾ ما معنى قوله (وما ينبغي له) ؟ قلنا قال قوم ما كان يتأتى له ، وآخرون ما يتسهل له حتى أنه إن تمثل بيت شعر سمع منه مزاحفاً يروى أنه كان يقول صلى الله عليه وسلم « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » . (وفيه وجه) أحسن من ذلك وهو أن يحمل ما ينبغي له على مفهومه الظاهر وهو أن الشعر ما كان يليق به ولا يصلح له ، وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ، فالشارع يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى ، والشاعر يكون المعنى منه تبعاً للفظ ، لأنه يقصد لفظاً به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج إلى تحيل المعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ ، وعلى هذا نقول : الشعر هو الكلام الموزون الذي قصد إلى وزنه قصداً أولياً ، وأما من يقصد المعنى فيصدر موزوناً مقفى فلا يكون شاعراً ، ألا ترى إلى قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ليس بشعر ، والشاعر إذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعدد ما في الآية تقطيعه بفاعلاتن فاعلاتن يكون شعراً لأنه قصد الإتيان بألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك والمعنى تبعه ، والحكيم قصد المعنى فجاء على تلك الألفاظ ، وعلى هذا يحصل الجواب عن قول من يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر بيت شعر وهو قوله :

أنا النبي لا كذب … أنا ابن عبد المطلب

أو بيتين لأنا نقول ذلك ليس بشعر لعدم قصده إلى الوزن والقافية ، وعلى هذا لو صدر من النبي صلى الله عليه وسلم كلام كثير موزون مقفى لا يكون شعراً ، لعدم قصده اللفظ قصداً أولياً ، ويؤيد ما ذكرنا أنك إذا تتبعت كلام الناس في الأسواق تجد فيه ما يكون موزوناً واقعاً في بحر من بحور الشعر ولا يسمى المتكلم به شاعراً ولا الكلام شعراً لفقد القصد إلى اللفظ أولاً ، ثم قوله تعالى (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) يحقق ذلك المعنى أي هو ذكر وموعظة للقصد إلى المعنى ، والشعر لفظ مزخرف بالقافية والوزن (وههنا لطيفة) وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من الشعر لحكمة » يعني قد يقصد الشاعر اللفظ فيوافقه معنى حكمي كما أن الحكيم قد يقصد معنى فيوافقه وزن شعري ، لكن الحكيم بسبب ذلك الوزن لا يصير شاعراً والشاعر بسبب ذلك الذكر يصير حكيماً حيث سمى النبي ﷺ شعره حكمة ، ونفى الله كون النبي شاعراً ، وذلك لأن اللفظ قالب المعنى والمعنى قلب اللفظ وروحه فإذا وجد القلب لا نظر إلى القالب ، فيكون الحكيم الموزون كلامه حكيماً ، ولا يخرجه عن الحكمة وزن كلامه ، والشاعر الموعظ كلامه حكيماً .

قوله تعالى : ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ .

قرىء بالتاء والياء ، بالتاء خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم وبالياء على وجهين (أحدهما) أن يكون المنذر هو النبي صلى الله عليه وسلم حيث سبق ذكره في قوله (وما علمناه) وقوله (وما ينبغي له) ، (وثانيهما) أن يكون المراد أن القرآن ينذر والأول أقرب إلى المعنى (والثاني) أقرب إلى اللفظ ، أما الأول فلأن المنذر صفة للرسل أكثر وروداً من المنذر صفة للكتب (وأما الثاني) فلأن القرآن أقرب المذكورين إلى قوله (لينذر) وقوله (من كان حياً) أي من

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

كان حي القلب، ويحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد من كان حياً في علم الله فينذره به فيؤمن (والثاني) أن يكون المراد لينذر به من كان حياً في نفس الأمر، أي من آمن فينذره بما على المعاصي من العقاب ويبشره بما على الطاعة من الثواب (ويحق القول على الكافرين) أما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقوله تعالى (حقت كلمة العذاب) وذلك لأن الله تعالى قال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فإذاً جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب، وأما القول المقول في الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الأصولية الدينية فإن القرآن فيه ذكر الدلائل التي بها تثبت المطالب.

ثم إنه تعالى أعاد الوحدانية ودلائل دالة عليها فقال تعالى ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً﴾ أي من جملة ما عملت أيدينا أي ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وإرادتنا.

قوله تعالى: ﴿فهم لها مالكون﴾ إشارة إلى تمام الإنعام في خلق الأنعام، فإنه تعالى لو خلقها ولم يملكها الإنسان ما كان ينتفع بها.

وقوله ﴿وذللناها لهم﴾ زيادة إنعام فإن المملوك إذا كان آبداً متمرداً لا ينتفع، فلو كان الإنسان يملك الأنعام وهي عادة صادة لما تم الإنعام الذي في الركوب وإن كان يحصل الأكل كما في الحيوانات الوحشية، بل ما كان يكمل نعمة الأكل أيضاً إلا بالتعب الذي في الاصطياد، ولعل ذلك لا يتهيأ إلا للبعض وفي البعض.

قوله تعالى: ﴿فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ بيان لمنفعة التذليل إذ لولا التذليل لما وجدت إحدى المنفعتين وكانت الأخرى قليلة الوجود.

ثم بين تعالى غير الركوب والأكل من الفوائد بقوله تعالى ﴿ولهم فيها منافع ومشارب﴾ وذلك لأن من الحيوانات ما لا يركب كالغنم فقال منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة، إن قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فإن من الجلود ما يتخذ أواني للشرب والأدوات من القرب [وغيرها]، وإن قلنا إن المراد المشروب وهو الألبان والأسمان فهي مختصة بالإناث ولكن بسبب الذكور فإن ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والإناث.

قوله تعالى: ﴿أفلا يشكرون﴾ هذه النعم التي توجب العبادة شكراً، ولو شكرتم لزادكم

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ

من فضله ، ولو كفرتم لسلبها منكم ، فما قولكم ، أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها ؟

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ إشارة إلى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها ، فإنهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكراً لأنعمه ، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم ناصرون لهم كما قال عنهم (حرقوه وانصروا آلهتكم) وفي الحقيقة لا هي ناصرة ولا منصورة .

قوله تعالى : ﴿ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾ إشارة إلى الحشر بعد تقرير التوحيد ، وهذا كقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وقوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وقوله (أولئك في العذاب محضرون) وهو يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكون العابدون جنداً لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا (الثاني) أن يكون الأصنام جنداً للعابدين ، وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال (لا يستطيعون نصرهم) أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جنداً لهم ومحضرون لنصرتهم فإن ذلك دال على عدم الاستطاعة ، فإن من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون في غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهباً ولم يجمع أنصاره .

قوله تعالى : ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ إشارة إلى الرسالة لأن الخطاب معه بما يوجب تسلية قلبه دليل اجتبائه واختياره إياه .

قوله تعالى : ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون ذلك تهديداً للمنافقين والكافرين فقوله (ما يسرون) من النفاق (وما يعلنون) من الشرك (والثاني) ما يسرون من العزائم وما يعلنون من التكذيب (الثالث) ما يسرون من العقائد الفاسدة وما يعلنون من الأفعال القبيحة .

ثم إنه تعالى لما ذكر دليلاً من الآفاق على وجوب عبادته بقوله (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً) ذكر دليلاً من الأنفس .

فقال ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ قيل إن المراد بالإنسان أبي بن خلف فإن الآية وردت فيه حيث أخذ عظماً بالياً وأتى النبي ﷺ وقال إنك تقول إن إلهك يحيي هذه العظام فقال رسول الله ﷺ نعم ويدخلك جهنم ، وقد ثبت في أصول الفقه أن الاعتبار بعموم اللفظ

فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ

لا بخصوص السبب، ألا ترى أن قوله تعالى (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) نزلت في واحدة وأراد الكل في الحكم فكذلك كل إنسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه إذا علمت عمومها فنقول فيها لطائف:

(اللطيفة الأولى) قوله (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا) معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة، أو لم يروا خلق الأنعام لهم ولم يقل هنا فقوله تعالى (أو لم ير الإنسان) كلام أعم من قوله (أو لم يروا) لأنه مع حصر الانتفاع وهو مع جميع منفعة فنقول سبب ذلك أن دليل الأنفس أشمل وأكمل وأتم وألزم، فإن الإنسان قد يغفل عن الأنعام وخلقها عند غيبتها ولكن [لا يغفل] هو مع نفسه عن ما يكون وأنه يكون. فقال: إن تغافل عن الحيوان وخلقه فهو لا يغيب عن نفسه، فلهذا قال أو لم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة، فإن سائر النعم بعد وجوده وقوله (من نطفة) إشارة إلى وجه الدلالة، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو، وكذلك الحال في كل عضو، ولما كان خلقه من نطفة متشابهة الأجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة وإلى هذا أشار بقوله تعالى (يسقى بماء واحد).

وقوله (فإذا هو خصيم مبين) فيه لطيفة غريبة وهي أنه تعالى قال اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنالك ما هو أظهر وهو نطقه وفهمه، وذلك لأن النطفة جسم، فهب أن جاهلا يقول إنه استحال وتكون جسما آخر، لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما النطفة؟ فإبداع النطق والفهم أعجب وأغرب من إبداع الخلق والجسم وهو إلى إدراك القدرة والاختيار منه أقرب فقوله (خصيم) أي ناطق وإنما ذكر الخصيم مكان الناطق لأنه أعلى أحوال الناطق، فإن الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصما لا يبين ولا يجتهد مثل ما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه وقوله (مبين) إشارة إلى قوة عقله، واختار الإبانة لأن العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه، لأن المبين بان عنده الشيء ثم أبانه فقوله تعالى (من نطفة) إشارة إلى أدنى ما كان عليه وقوله (خصيم مبين) إشارة إلى أعلى ما حصل عليه وهذا مثل قوله تعالى (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) إلى أن قال تعالى (ثم أنشأناه خلقا آخر) فما تقدم من خلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظاما إشارة إلى التغيرات في الجسم وقوله (ثم أنشأناه خلقا آخر) إشارة إلى ما أشار إليه بقوله (فإذا هو خصيم مبين) أي ناطق عاقل.

قوله تعالى: ﴿وضرب لنا مثلا ونسي خلقه﴾ إشارة إلى بيان الحشر وفي هذه الآيات إلى

قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

آخر السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الإمكان إن شاء الله تعالى. فنقول المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلاً ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الأكثرون، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم في كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال (وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أئنك لمن المصدقين، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) إلى غير ذلك فكذلك ههنا قال (قال من يحيي العظام وهي رميم) على طريق الاستبعاد فبدأ أولاً بإبطال استبعادهم بقوله (ونسي خلقه) أي نسي أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء، ثم جعلنا لهم من النواصي إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجرام وهو النطق والعقل اللذان بهما استحقوا الإكرام فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلاً ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه. ثم إن استبعادهم كان من جهة ما في المعاد من التفتت والتفرق حيث قالوا (من يحيي العظام وهي رميم) اختاروا العظم للذكر لأنه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفوه بما يقوي جانب الاستبعاد من البلى والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما في المعيد من القدرة والعلم فقال (وضرب لنا مثلاً) أي جعل قدرتنا كقدرتهم ونسي خلقه العجيب وبدأه الغريب. ومنهم من ذكر شبهة وإن كانت في آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد وهي على وجهين (أحدهما) أنه بعد العدم لم يبق شيئاً فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود. وأجاب عن هذه الشبهة.

قوله تعالى: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ يعني كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً (وثانيها) أن من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه في أبدان السباع وبعضه في جدران الرباع كيف يجمع؟ وأبعد من هذا هو أن إنساناً إذا أكل إنساناً وصار أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فإن أعيد فأجزاء المأكول إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء.

فقال تعالى في إبطال هذه الشبهة (وهو بكل خلق عليم) ووجهه هو أن في الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية، وفي المأكول كذلك، فإذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلي من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل والأجزاء الأصلية للآكل هي ما كان له قبل الأكل (والله بكل

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

خلق عليم) يعنى الأصل من الفضل فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول وينفخ فيها روحه، وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة فى البقاع المبددة فى الأصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة.

ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وإبطال إنكارهم وعنادهم.

قوله تعالى: ﴿الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه، وهى كحرارة جارية فيه فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه، فإن النار فى الشجر الأخضر الذى يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون. وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فإن الله خلق السموات والأرض فبان لطف قوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون).

قوله تعالى: ﴿أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ قدم ذكر النار فى الشجر على ذكر الخلق الأكبر، لأن استبعادهم كان بالصريح واقعاً على الإحياء حيث قالوا (من يحيى العظام) ولم يقولوا من يجمعها ويؤلفها والنار فى الشجر مناسب الحياة.

قوله تعالى: ﴿بلى وهو الخلاق﴾ إشارة إلى أنه فى القدرة كامل.

قوله تعالى: ﴿العليم﴾ إشارة إلى أن علمه شامل.

ثم أكد بيانه بقوله تعالى ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ وهذا إظهار فساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا لله مثلا وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا قياساً للغائب على الشاهد فقال فى الشاهد الخلق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع إلا فى الأزمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون، فكيف تضربون المثل الأدنى ولله المثل الأعلى من أن يقدر. وفى الآية مباحث.

﴿البحث الأول﴾ قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن المعدوم شيء لأنه يقول لما أراده (كن فيكون) فهو قبل القول له كن لا يكون وهو فى تلك الحالة شيء حيث قال (إنما أمره إذا أراد شيئاً) والجواب أن هذا بيان لعدم تخلف الشيء عن تعلق إرادته به. فقوله (إذا) مفهوم

الحين والوقت والآية دالة على أن المراد شيء حين تعلق الإرادة به ولا دلالة فيها على أنه شيء قبل ما إذا أراد وحينئذ لا يرد ما ذكروه لأن الشيء حين تعلق الإرادة بشيء موجود لا يريده في زمان يكون في زمان آخر بل يكون في زمان تعلق الإرادة ، فإذا الشيء هو الموجود لا المعدوم لا يقال كيف يريد الموجود وهو موجود فيكون ـــ ذلك إيجاداً لموجود ؟ نقول هذا الإشكال من باب المعقولات ونجيب عنه في موضعه ، وإنما غرضنا إبطال تمسكهم باللفظ ، وقد ظهر أن المفهوم من هذا الكلام أنه يريد ما هو شيء إذا أراد ، وليس في الآية أنه إذا أراد ما كان شيئاً قبل تعلق الإرادة .

(البحث الثاني) قالت الكرامية لله إرادة حادثة بدليل قوله تعالى (إذا أراد) ووجه دلالته من أمرين : (أحدهما) من حيث إنه جعل للإرادة زماناً ، فإن إذا ظرف زمان وكل ما هو زماني فهو حادث (وثانيهما) هو أنه تعالى جعل إرادته متصلة بقوله (كن) وقوله (كن) متصل بكون الشيء ووقوعه لأنه تعالى قال (فيكون) بفاء التعقيب لكن الكون حادث ، وما قبل الحادث متصل به حادث ، والفلاسفة وافقوهم في هذا الإشكال من وجه آخر فقالوا إرادته متصلة بأمره وأمره متصل بالكون ولكن إرادته قديمة فالكون قديم فكونات الله قديمة ، والجواب الصالح من التمسك باللفظ هو أن المفهوم من قوله (إذا أراد) من حيث اللغة إذا تعلقت إرادته بالشيء لأن قوله (أراد) فعل ماض ، وإذا دخلت كلمة إذا على الماضي تجعله في معنى المستقبل ، ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد ويريد وعلم ويعلم يجوز أن يدخله الحدوث ، وإنما نقول لله تعالى صفة قديمة هي الإرادة وتلك الصفة إذا تعلقت بشيء نقول أراد ويريد ، وقبل التعلق لا نقول أراد وإنما نقول له إرادة وهو بها مريد ، ولنضرب مثالاً للأفهام الضعيفة ليزول ما يقع في الأوهام السخيفة ، فنقول قولنا فلان خياط نريد به أن له صنعة الخياطة فلو لم يمنع منا أن نقول إنه خاط ثوب زيد أو يخيط ثوب زيد لا يلزم منه نفي صحة قولنا إنه خياط بمعنى أن له صنعة بها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة في ثوب زيد في زمان ماض خاط ثوبه ، وبها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة في ثوب زيد في زمان مستقبل يخيط ثوبه ، وقد اتفق الأعقل فاهم أن الإرادة أمر ثابت إن تعلقت بوجود شيء نقول أراد وجوده أي يريد وجوده ، وإذا علمت هذا فهو في المعنى من كلام أهل السنة تعلق الإرادة حادث وخرج بما ذكرنا جواب الفريقين .

(البحث الثالث) قالت المعتزلة والكرامية كلام الله حرف وصوت وحادث لأن قوله (كن) كلام (وكن) من حرفين ، والحرف من الصوت ، ويلزم من هذا أن كلامه من الحروف والأصوات ، وأما أنه حادث فلما تقدم من الوجهين : (أحدهما) أنه زماني (والثاني) أنه متصل بالكون والكون حادث ، والجواب يعلم مما ذكرنا ، وذلك لأن الكلام صفة إذا تعلقت بشيء نقول قال ويقول فتعلق الخطاب حادث والكلام قديم فقوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فيه تعلق وإضافة لأن قوله تعالى (يقول له) باللام للإضافة صريح في التعلق

فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

ونحن نقول إن قوله لشيء إذا أردناه حادث لأنه مع التعلق، وإنما القديم قوله وكلامه لا مع التعلق وكل قديم وحادث إذا اجتمعا يكون مجموعهما لا تحقق في الأزل وإذا تحققا جميعاً فيما لا يزال فيسمى بالحدوث ولكن الإطلاق موهم، فننكره، ولا نقول المجموع حادث من غير بيان مرادنا. فإن ذلك قد يفهم منه أن الجميع حادث، بل نحقق الإشارة بوجود العبارة ونقول أحد طرفي المجموع قديم والآخر حادث ولم يكن الآخر معه في الأزل. وأما قوله (كن) من الحروف، فنقول الكلام يطلق على معنيين (أحدهما) ما عند المتكلم (والثاني) ما عند السامع. ثم إن أحدهما يطلق عليه أنه هو الآخر ومن هذا يظهر فوائد. أما بيان ما ذكرناه، فلأن الإنسان إذا قال لغيره عندي كلام أريد أن أقوله لك غداً. ثم إن السامع أتاه غداً وسأله عن الكلام الذي كان عنده أمس، فيقول له إني أريد أن تحضر عندي اليوم، فهذا الكلام أطلق عليه المتكلم أنه كان عنده أمس ولم يكن عند السامع، ثم حصل عند السامع بحرف وصوت ويطلق عليه أن هذا الذي سمعت هو الذي كان عندي، ويعلم كل عاقل أن الصوت لم يكن عند المتكلم أمس ولا الحرف، لأن الكلام الذي عنده جاز أن يذكره بالعربي فيكون له حروف، وجاز أن يذكره بالفارسية فيكون له حروف أخر، والكلام الذي عنده يعبر به بواحد والحروف مختلفة كثيرة، فإذاً معنى قوله هذا ما كان عندي، هو أن هذا يؤدي إليك ما كان عندي، وهذا أيضاً مجاز، لأن الذي عنده ما انتقل إليه، وإنما علم ذلك وحصل عنده به علم مستفاد من السمع أو البصر في القراءة والكتابة أو الإشارة. إذا علمت هذا فالكلام الذي عند الله وصفة له ليس بحرف على ما بان، والذي يحصل عند السامع حرف وصوت وأحدهما الآخر لما ذكرنا من المعنى ولتوسع الإطلاق، فإذا قال تعالى (يقول له) حصل قائل وسامع، فاعتبرها من جانب السامع لكون وجود الفعل من السامع لذلك القول فعبر عنه بالكاف والنون الذي يحدث عند السامع ويحدث به المطلوب.

قوله تعالى ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾

لما تقررت الوحدانية والإعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة، قال تعالى وتنزه عن الشريك (الذي بيده ملكوت كل شيء) وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكاً، وقالوا بأن الإعادة لا تكون، فقال (وإليه ترجعون) رداً عليهم في الأمرين. وقد ذكرنا ما يتعلق بالنحو في قوله: سبحان. أي سبحوا تسبيح الذي أو سبح من في السموات والأرض تسبيح الذي (فسبحان) علم للتسبيح، والتسبيح هو التنزيه. والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت، وهو فعلول أو فعلوت فيه كلام. ومن قال هو فعلول جعله ملحقاً به.

ثم إن النبي ﷺ قال «إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس» وقال الغزالي فيه : إن ذلك لأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر ، والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه ، فجعله قلب القرآن لذلك . واستحسنه فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى(١) سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام

ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين فابتداؤها بيان الرسالة بقوله : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ ودليلها ما قدمه عليها بقوله : ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ وما أخره عنها بقوله ﴿ لتنذر قوماً ﴾ وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ إشارة إلى التوحيد ، وقوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ إشارة إلى الحشر . وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائلها وثوابها ، ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذي بالجنان . وأما وظيفة اللسان التي هي القول كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بالقول الثابت ﴾ ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ ﴿ وإليه يصعد الكلم الطيب ﴾ إلى غير هذه مما في غير هذه السورة ، ووظيفة الأركان وهو العمل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ ﴿ ولا تقتلوا النفس ﴾ وقوله : ﴿ واعملوا صالحاً ﴾ وأيضاً مما في غير هذه السورة . فلما لم يكن فيها إلا أعمال القلب لا غير سماها قلباً ، ولهذا ورد في الأخبار أن النبي ﷺ ندب إلى تلقين يس لمن دنا منه الموت ، وقراءتها عند رأسه ، لأن في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة ، والأعضاء الظاهرة ساقطة البنية ، لكن القلب يكون قد أقبل على الله ورجع عن كل ما سواه ، فيقرأ عنده وعند رأسه ما يزداد به قوة قلبه ، ويشتد تصديقه بالأصول الثلاثة وهو أعلم بأسرار كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ لا يعلمها إلا الله ورسوله ، وما ذكرناه ظن لا نقطع به ، ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين .

تم تفسير هذه السورة . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين .

---

(١) [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والصافات صفاً ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً ، إن إلهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة (والصافات صفاً) بإدغام التاء فيما يليه ، وكذلك في قوله (فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً) والباقون بالإظهار . وقال الواحدي رحمه الله : إدغام التاء في الصاد حسن لمقاربة الحرفين ، ألا ترى أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا يجتمعان في الهمس ، والمدغم فيه يزيد على المدغم بالإطباق والصفير ، وإدغام الأنقص في الأزيد حسن ، ولا يجوز أن يدغم الأزيد صوتاً في الأنقص ، وأيضاً إدغام التاء في الزاي في قوله (فالزاجرات زجراً) حسن لأن التاء مهموسة والزاي مجهورة وفيها زيادة صفير كما كان في الصاد ، وأيضاً حسن إدغام التاء في الذال في قوله (فالتاليات ذكراً) لاتفاقهما في أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا ، وأما من قرأ بالإظهار وترك الإدغام فذلك لاختلاف المخارج والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في هذه الأشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل أن تكون صفات ثلاثة لموصوف واحد ، ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة ، أما على التقدير الأول ففيه وجوه (الأول) أنها صفات الملائكة ، وتقريره أن الملائكة يقفون صفوفاً ، إما في السموات لأداء العبادات كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا (وإنا لنحن الصافون) وقيل إنهم يصفون أجنحتهم في الهواء يقفون منتظرين وصول أمر الله إليهم ، ويحتمل أيضاً أن يقال معنى كونهم صفوفاً أن لكل واحد منهم مرتبة معينة ودرجة معينة في الشرف والفضيلة أو في الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف .

وأما قوله (فالزاجرات زجراً) فقال الليث يقال زجرت البعير فأنا أزجره زجراً إذا حثثته ليمضي ، وزجرت فلاناً عن سوء فانزجر أي نهيته فانتهى ، فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللإنسان

كالنهي، فإذا عرفت هذا فنقول في وصف الملائكة بالزجر وجوه (الأول) قال ابن عباس يريد الملائكة الذين وكلوا بالسحاب يزجرونها بمعنى أنهم يأتون بها من موضع إلى موضع (الثاني) المراد منه أن الملائكة لهم تأثيرات في قلوب بني آدم على سبيل الإلهامات فهم يزجرونهم عن المعاصي زجراً (الثالث) لعل الملائكة أيضاً يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم بالشر والإيذاء. وأقول قد ثبت في العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الأثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الموجودات ومتأثر لا يؤثر وهو عالم الأجسام وهو أخس الموجودات وموجود يؤثر في شيء ويتأثر عن شيء آخر وهو عالم الأرواح وذلك لأنها تقبل الأثر من عالم كبرياء الله، ثم إنها تؤثر في عالم الأجسام. واعلم أن الجهة التي باعتبارها تقبل الأثر من عالم كبرياء الله غير الجهة التي باعتبارها تستولي على عالم الأجسام وتقدر على التصرف فيها وقوله (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى الأشرف من الجهة التي باعتبارها تقوى على التأثير في عالم الأجسام إذا عرفت هذا فقوله (والصافات صفاً) إشارة إلى وقوفها صفاً صفاً في مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهي الجهة التي باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الأنوار الإلهية والكمالات الصمدية وقوله تعالى (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى تأثير الجواهر الملكية في تنوير الأرواح القدسية البشرية وإخراجها من القوة إلى الفعل، وذلك لما ثبت أن هذه الأرواح النطقية البشرية بالنسبة إلى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة إلى البحر وكالشعلة بالنسبة إلى الشمس، وأن هذه الأرواح البشرية إنما تنتقل من القوة إلى الفعل في المعارف الإلهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) وقوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقوله تعالى (فالملقيات ذكراً) إذا عرفت هذا فنقول في هذه الآية دقيقة أخرى وهي أن الكمال المطلق للشيء إنما يحصل إذا كان تاماً وفوق التام والمراد بكونه تاماً أن تحصل جميع الكمالات اللائقة به حصولاً بالفعل والمراد بكونه فوق التام أن تفيض منه أصناف الكمالات والسعادات على غيره، ومن المعلوم أن كونه كاملاً في ذاته مقدم على كونه مكملاً لغيره، إذا عرفت هذا فقوله (والصافات صفاً) إشارة إلى استكمال جواهر الملائكة في ذواتها وقت وقوفها في مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة وقوله تعالى (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إزالة ما لا ينبغي عن جواهر الأرواح البشرية وقوله تعالى (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إفاضة الجلايا القدسية والأنوار الإلهية على الأرواح الناطقة البشرية، فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الألفاظ الثلاثة. قال أبو مسلم الأصفهاني لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرءون عن هذه الصفة، والجواب من وجهين (الأول) أن الصافات جمع الجمع فإنه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات (والثاني) أنهم مبرءون عن التأنيث المعنوي. أما التأنيث في

اللفظ فلا . وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة في هذا الوجه (الثاني) أن
تحمل هذه الصفات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم
ملائكة الأرض وبيانه من وجوه (الأول) أن قوله تعالى (والصافات صفاً) المراد الصفوف
الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى قراءة أعوذ بالله من
الشيطان الرجيم كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن إلقاء الوساوس في قلوبهم
في أثناء الصلاة وقوله (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى قراءة القرآن في الصلاة وقيل (فالزاجرات
زجراً) إشارة إلى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت . روى أنه ﷺ
طاف على بيوت أصحابه في الليالي فسمع أبا بكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع
فسأل أبا بكر لم تقرأ هكذا ؟ فقال المعبود سميع عليم وسأل عمر لم تقرأ هكذا فقال أوقظ الوسنان
وأطرد الشيطان (الوجه الثاني) في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة في هذه الآية أن المراد من قوله
(والصافات صفاً) الصفوف الحاصلة من العلماء المحقين الذين يدعون إلى دين الله تعالى والمراد
من قوله (والزاجرات زجراً) اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات . والمراد من قوله تعالى
(فالتاليات ذكراً) اشتغالهم بالدعوة إلى دين الله والترغيب في العمل بشرائع الله (الوجه الثالث)
في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نحملها على أحوال الغزاة والمجاهدين في سبيل الله فقوله
(والصافات صفاً) المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله
صفاً) وأما (الزاجرات زجراً) فالزجرة والصيحة سواء . والمراد منه رفع الصوت بزجر الخيل .
وأما (التاليات ذكراً) فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهم في محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر
الله تعالى بالتهليل والتقديس (الوجه الرابع) في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نجعلها صفات
لآيات القرآن فقوله (والصافات صفاً) المراد آيات القرآن فإنها أنواع مختلفة بعضها في دلائل
التوحيد وبعضها في دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها في دلائل النبوة وبعضها في دلائل المعاد
وبعضها في بيان التكاليف والأحكام وبعضها في تعليم الأخلاق الفاضلة . وهذه الآيات مرتبة
ترتيباً لا يتغير ولا يتبدل فهذه الآيات تشبه أشخاصاً واقفين في صفوف معينة وقوله (فالزاجرات
زجراً) المراد منه الآيات الزاجرة عن الأفعال المنكرة وقوله (فالتاليات ذكراً) المراد منه
الآيات الدالة على وجوب الإقدام على أعمال البر والخير ووصف الآيات بكونها تالية على قانون
ما يقال شعر شاعر وكلام قائل قال تعالى (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) وقال (يس
والقرآن الحكيم) قيل الحكيم بمعنى الحاكم فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير أن نحمل هذه
الألفاظ الثلاثة صفات لشيء واحد (وأما الاحتمال الثاني) وهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة
أشياء متغايرة فقيل المراد بقوله (والصافات صفاً) الطير من قوله تعالى (والطير صافات)
(والزاجرات) كل ما زجر عن معاصي الله (والتاليات) كل ما يتلى من كتاب الله وأنزل فيه

وجه آخر وهو أن مخلوقات الله إما جسمانية وإما روحانية ، أما الجسمانية فإنها مرتبة على طبقات ودرجات لا تتغير ألبتة ، فالأرض وسط العالم وهي محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء ، والهواء محفوف بالنار ، ثم هذه الأربعة محفوفة بكرات الأفلاك إلى آخر العالم الجسماني فهذه الأجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى ، وأما الجواهر الروحانية فهي على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة في صفتين أحدهما التأثير في عالم الأجسام بالتحريك والتصريف وإليه الإشارة بقوله (فالزاجرات زجراً) فإنا قد بينا أن المراد من هذا الزجر السوق والتحريك ، والثاني الإدراك والمعرفة والاستغراق في معرفة الله تعالى والثناء عليه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (فالتاليات ذكراً) ولما كان الجسم أدنى منزلة من الأرواح المستقلة فالتصرف في الجسمانيات أدون منزلة من الأرواح المستغرقة في معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) لا جرم بدأ في المرتبة الأولى بذكر الأجسام فقال (والصافات صفاً) ثم ذكر في المرتبة الثانية الأرواح المدبرة لأجسام هذا العالم ثم ذكر في هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهي الأرواح المقدسة المتوجهة بكليتها إلى معرفة جلال الله والاستغراق في الثناء عليه ، فهذه احتمالات خطرت بالبال ، والعالم بأسرار كلام الله تعالى ليس إلا الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ للناس في هذا الموضع قولان (الأول) قول من يقول القسم ههنا واقع بخالق هذه الأشياء لا بأعيان هذه الأشياء ، واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله (والثاني) أن الحلف بالشيء في مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به ، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله . (والثالث) أن هذا الذي ذكرناه تأكد بما أنه تعالى صرح به في بعض السور وهو قوله تعالى (والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها) ، (والقول الثاني) قول من يقول إن القسم واقع بأعيان هذه الأشياء واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أن القسم وقع بهذه الأشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل (والثاني) أنه تعالى قال (والسماء وما بناها) فعلق لفظ القسم بالسماء ، ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء ، فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بباني السماء لزم التكرار في موضع واحد وأنه لا يجوز (الثالث) أنه لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم من الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها ، لا سيما إذا حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فإنه تكون الحكمة في القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها والله أعلم . فإن قيل ذكر الحلف في هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه (الأول) أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر والأول باطل لأن المؤمن مقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل ، فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات

(الثاني) أنه تعالى حلف في أول هذه السورة على أن الإله واحد، وحلف في أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال (والذاريات ذرواً) إلى قوله (إنما توعدون لصادق، وإن الدين لواقع) وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء. والجواب من وجوه (الأول) أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها بذكر القسم تأكيداً لما تقدم لاسيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (والوجه الثاني) في الجواب أنه تعالى لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى (إن إلهكم لواحد) ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقيني في كون الإله واحداً، وهو قوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) وذلك لأنه تعالى بين في قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد، فههنا لما قال (إن إلهكم لواحد) أردفه بقوله (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) كأنه قيل قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم يدل على كون الإله واحداً فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد (الوجه الثالث) في الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله مثل هذه الحجة والله أعلم.

﴿المسألة الرابعة﴾ أما دلالة أحوال السموات والأرض على وجود الإله القادر العالم الحكيم، وعلى كونه واحداً منزهاً عن الشريك فقد سبق تقريرها في هذا الكتاب مراراً وأطواراً وأما قوله تعالى (ورب المشارق) فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدي المشارق ثلثمائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب فإنها تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم في مغرب، ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لأن لكل كوكب مشرقاً ومغرباً. فإن قيل لم اكتفى بذكر المشارق؟ قلنا لوجهين (الأول) أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله (تقيكم الحر) والثاني أن الشرق أقوى حالاً من الغروب وأكثر نفعاً من الغروب فذكر الشرق تنبيهاً على كثرة إحسان الله تعالى على عباده، ولهذه الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق).

﴿المسألة الخامسة﴾ احتج الأصحاب بقوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما) على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد، قالوا لأن أعمال العباد موجودة فيما بين السموات والأرض، وهذه الآية دالة على أن كل ما حصل بين السموات والأرض فالله ربه ومالكه، فهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلق الله. وإن قالوا الأعراض لا يصح وصفها بأنها حصلت بين السموات والأرض لأن هذا الوصف إنما يليق بما يكون حاصلاً في حيز وجهة والأعراض ليست كذلك، قلنا إنها لما

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝

كانت حاصلة فى الأجسام الحاصلة بين السموات والأرض فهى أيضاً حاصلة بين السماء والأرض

قوله تعالى : ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحوراً ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم بزينة منونة الكواكب بالجر وهو قراءة مسروق بن الأجدع ، قال الفراء وهو رد معرفة على نكرة كما قال (بالناصية ناصية) فرد نكرة على معرفة ، وقال الزجاج الكواكب بدل من الزينة ، لأنها هي كما تقول مررت بأبي عبد الله زيد ، وقرأ عاصم بالتنوين فى الزينة ونصب الكواكب قال الفراء يريد زينا الكواكب ، وقال الزجاج يجوز أن تكون الكواكب فى النصب بدلا من قوله بزينة ، لأن بزينة فى موضع نصب ، وقرأ الباقون بزينة الكواكب بالجر على الإضافة .

﴿المسألة الثانية﴾ بين تعالى أنه زين السماء الدنيا ، وبين أنه إنما زينها لمعنيين (إحداهما) تحصيل الزينة (والثانية) الحفظ من الشيطان المارد ، فوجب أن نحقق الكلام فى هذه المطالب الثلاثة (أما الأول) وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب ، فلقائل أن يقول إنه ثبت فى علم الهيئة أن هذه الثوابت مركوزة فى الكرة الثامنة ، وأن السيارات السبعة مركوزة فى الكرات الست المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) والجواب أن الناس الساكنين على سطح كرة الأرض إذا نظروا إلى السماء فإنهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب ، وعلى أنا قد بينا فى علم الهيئة أن الفلاسفة لم يتم لهم دليل فى بيان أن هذه الكواكب مركوزة فى الفلك الثامن ، ولعلنا شرحنا هذا الكلام فى تفسير سورة (تبارك الذى بيده الملك) فى تفسير قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) . (وأما المطلوب الثانى) وهو كون هذه الكواكب زينة السماء الدنيا ففيه بحثان :

(البحث الأول) أن الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزان به ، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة قال صاحب الكشاف وقوله (بزينة الكواكب) يحتملهما فإن أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل أى بأن زانتها الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أى بأن زان الله الكواكب وحسنها ، لأنها

إنما زينت السماء بعضها فى أنفسها . وإن أردت الاسم فللإضافة وجوّز أن تقع الكواكب بياناً للزينة ، لأن الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها . وأن يراد ما زينت به الكواكب .

(البحث الثانى) فى بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء وجوه : (الأول) أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها ، فإن تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة فى سطح الفلك لاجرم بقى الضوء والنور فى جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيه قال ابن عباس (بزينة الكواكب) أى بضوء الكواكب (الوجه الثانى) يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها (الوجه الثالث) يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها (الوجه الرابع) أن الإنسان إذا نظر فى الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق ، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها فى التركيب والجوهر ، وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة (وأما المطلوب الثالث) وهو قوله (وحفظاً من كل شيطان مارد) ففيه بحثان :

(البحث الأول) فيما يتعلق باللغة فقوله (وحفظاً) أى وحفظناها . قال المبرد إذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله ، مثل قولك أفعل وكرامة لأنه لما قال أفعل علم أن الأسماء لا تعطف على الأفعال . فكان المعنى أفعل ذلك وأكرمك كرامة ، قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب و (من كل شيطان مارد) يريد الذى تمرد على الله قيل إنه الذى لا يتمكن منه ، وأصله من الملاسة ومنه قوله (صرح ممرد) ومنه الأمرد وذكرنا تفسير المارد عند قوله (مردوا على النفاق) .

(البحث الثانى) فيما يتعلق بالمباحث العقلية فى هذا الموضع ، فنقول الاستقصاء فيه مذكور فى قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) قال المفسرون الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرون به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب فانه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها ، وفى ههنا سؤالات :

(السؤال الأول) هذه الشهب هل هى من الكواكب التى زين الله السماء بها أم لا ؟ والأول باطل لأن هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير من أعداد كواكب السماء . ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد البتة فإن أعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير البتة . وأيضاً فجعلها رجوماً للشياطين مما يوجب وقوع النقصان فى زينة السماء فكان الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض ، وأما القسم الثانى وهو أن يقال إن هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة فى الفلك فهذا أيضاً مشكل لأنه تعالى قال فى سورة (تبارك الذى بيده الملك) : (ولقد زينا السماء الدنيا

بمصابيح (وجعلناها رجوماً للشياطين) فالضمير في قوله (وجعلناها) عائد إلى المصابيح ، فوجب أن تكون تلك المصابيح هي الرجوم بأعيانها من غير تفاوت . والجواب أن هذه الشهب غير تلك الكواكب الباقية . وأما قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) فنقول كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصابيح لأهل الأرض إلا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ، ومنها ما لا يكون كذلك ، وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوماً للشياطين ، وبهذا التقدير فقد زال الإشكال ، والله أعلم .

(السؤال الثاني) كيف يجوز أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون بالتجربة أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم البتة ، وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل ، فكيف من الشياطين الذين لهم مزية في معرفة الحيل الدقيقة (والجواب) أن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين وإلا لم يقصدوا إليه ، وإنما يمنعون من المصير إلى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة ، فربما صاروا إلى موضع تصيبهم فيه الشهب ، وربما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب ، فلما هلكوا في بعض الأوقات ، وسلموا في بعض الأوقات ، جاز أن يصيروا إلى مواضع يغلب على ظنونهم أنه لا تصيبهم الشهب فيها ، كما يجوز فيمن يسلك البحر أن يسلك في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة . هذا ما ذكره أبو علي الجبائي من الجواب عن هذا السؤال في تفسيره ، ولقائل أن يقول : إنهم إذا صعدوا فإما أن يصلوا إلى مواضع الملائكة ، أو إلى غير تلك المواضع ، فإن وصلوا إلى مواضع الملائكة احترقوا ، وإن وصلوا إلى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلا ، فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل ، وإذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود محال وجب أن يمتنعوا عن هذا العمل وأن لا يقدموا عليه أصلا بخلاف حال المسافرين في البحر ، فإن الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود ، أما ههنا فالشيطان الذي يسلم من الإحتراق إنما يسلم إذا لم يصل إلى مواضع الملائكة ، وإذا لم يصل إلى تلك المواضع لم يفز بالمقصود ، فوجب أن لا يعود إلى هذا العمل البتة ، والأقرب في الجواب أن نقول هذه الواقعة إنما تتفق في الندرة ، فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين والله أعلم .

(السؤال الثالث) قالوا دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجيء النبي ﷺ ، لأن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي ﷺ بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا في سبب حدوثه ، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجيء النبي ﷺ امتنع حمله على مجيء النبي ﷺ ، أجاب القاضي بأن الأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي ﷺ لكنها كثرت في زمان النبي ﷺ فصارت بسبب الكثرة معجزة .

(السؤال الرابع) الشيطان مخلوق من النار ، قال تعالى حكاية عن إبليس (خلقتني من نار) وقال (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) ولهذا السبب يقدر على الصعود إلى السموات ، وإذا كان كذلك فكيف يعقل إحراق النار بالنار ؟ والجواب يحتمل أن الشياطين وإن كانوا من النيران إلا أنها نيران ضعيفة ، فإذا وصلت نيران الشهب إليهم ، وتلك النيران أقوى حالا منهم لاجرم صار الأقوى مبطلا للأضعف . ألا ترى أن السراج الضعيف إذا وضع في النار القوية فإنه ينطفئ ، فكذلك هنا .

(السؤال الخامس) أن مقر الملائكة هو السطح الأعلى من الفلك ، والشياطين لا يمكنهم الوصول إلا إلى الأقرب من السطح الأسفل من الفلك ، فيبقى جرم الفلك مانعاً من وصول الشياطين إلى القرب من الملائكة ، ولعل الفلك عظيم المقدار ومع حصول هذا المانع العظيم ، كيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة ، فإن قلتم إن الله تعالى يقوي سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، فنقول فعلى هذا التقدير إذا كان الله تعالى يقوي سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، وجب أن لا يبقى سمع الشيطان ، وإن كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة في رميه بالرجوم ؟ (فالجواب) مذهبنا أن أفعال الله تعالى غير معللة ، فيفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله ، فهذا ما يتعلق بمباحث هذا الباب ، وإذا أضيف ما كتبناه هنا إلى ما كتبناه في سورة الملك ، وفي سائر الآيات المشتملة على هذه المسألة بلغ تمام الكفاية في هذا الباب ، والله أعلم .

وأما قوله ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (لا يسمعون) بتشديد السين والميم وأصله يتسمعون ، فأدغمت التاء في السين لاشتراكهما في الهمس ، والتسمع تطلب السماع يقال تسمع سمع أو لم يسمع ، والباقون بتخفيف السين ، واختار أبو عبيد التشديد في يسمعون ، قال لأن العرب تقول تسمعت إلى فلان ويقولون سمعت فلاناً ، ولا يكادون يقولون سمعت إلى فلان ، وقيل في تقوية هذه القراءة إذا نفى التسمع ، فقد نفى سمعه ، وحجة القراءة الثانية قوله تعالى (إنهم عن السمع لمعزولون) وروى مجاهد عن ابن عباس : أن الشياطين يسمعون إلى الملأ الأعلى ، ثم يمنعون فلا يسمعون ، وللأولين أن يجيبوا فيقولوا التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لا يمنع من كونهم معزولين أيضاً عن التسمع بدلالة هذه الآية ، بل هو أقوى في ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء ، فإن الذي منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعاً من السمع أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفرق بين قولك سمعت حديث فلان ، وبين قولك سمعت إلى حديثه ، بأن قولك سمعت حديثه يفيد الإدراك ، وسمعت إلى حديثه يفيد الإصغاء مع الإدراك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في قوله (لا يسمعون إلى الملإ الأعلى) قولان (الأول) وهو المشهور أن تقدير الكلام لئلا يسمعوا، فلما حذف الناصب عاد الفعل إلى الرفع كما قال (يبين الله لكم أن تضلوا) وكما قال (رواسي أن تميد بكم) قال صاحب الكشاف: حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده، أما اجتماعهما فمن المنكرات التي يجب صون القرآن عنها (والقول الثاني) وهو الذي اختاره صاحب الكشاف أنه كلام مبتدأ منقطع عما قبله، وهو حكاية حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة ويتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب، مدحورون عن ذلك المقصود.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الملأ الأعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات. وأما الإنس والجن فهم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض.

واعلم أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاثة (الأولى) أنهم لا يسمعون (الثانية) أنهم يقذفون من كل جانب دحوراً، وفيه أبحاث:

﴿ الأول ﴾ قد ذكرنا معنى الدحور في سورة الأعراف عند قوله (اخرج منها مذءوماً مدحوراً) قال المبرد الدحور أشد الصغار والذل وقال ابن قتيبة دحرته دحراً ودحوراً أي دفعته وطردته.

﴿ البحث الثاني ﴾ في انتصاب قوله (دحوراً) وجوه (الأول) أنه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحوراً، ودل على الفعل قوله تعالى (ويقذفون) (الثاني) التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام (الثالث) قال مجاهد دحوراً مطرودين، فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور.

﴿ البحث الثالث ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن السلمي دحوراً بفتح الدال قال الفراء كأنه قال يقذفون بما يدحرهم. ثم قال ولست أشتهي الفتح لأنه لو وجه ذلك على صحة لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة إلا أنه جائز في الجملة كما قال الشاعر:

نغالي اللحم للأضياف نيئاً

أي نغالي باللحم (الصفة الثالثة) قوله تعالى (ولهم عذاب واصب) والمعنى أنهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام، وذكرنا تفسير الواصب في سورة النحل عند قوله تعالى (وله الدين واصباً) قالوا كلهم إنه الدائم، قال الواحدي ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير.

ثم قال تعالى (إلا من خطف الخطفة) ذكرنا معنى الخطف في سورة الحج قال الزجاج وهو أخذ الشيء بسرعة، وأصل خطف اختطف قال صاحب الكشاف (من) في محل الرفع بدل من الواو في لا يسمعون أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خطف الخطفة أي اختلس الكلمة على

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴾ (١١)

وجه المبالغة (فأتبعه) يعني لحقه وأصابه يقال تبعه وأتبعه إذا مضى في أثره وأتبعه إذا لحقه وأصابه من قوله تعالى (فأتبعه الشيطان) وقد مر تفسيره وقوله تعالى (شهاب ثاقب) قال الحسن ثاقب أي مضيء، والقول سمي ثاقباً لأنه يثقب بنوره الهواء، وقال ابن عباس في تفسير قوله (والنجم الثاقب) قال إنه رجل(١) سمي بذلك لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فاستفتهم أم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في بيان النظم اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الأقصى من هذا الكتاب الكريم إثبات الأصول الأربعة وهي الإلهيات والمعاد والنبوة وإثبات القضاء والقدر . فنقول إنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات ما يدل على وجود الصانع ويدل على وحدانيته وهو خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب ، فلما أحكم الكلام في هذا الباب فرع عليها إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة .

واعلم أن الكلام في هذه المسألة يتعلق بطرفين أولهما إثبات الجواز العقلي وثانيهما إثبات الوقوع أما الكلام في المطلوب الأول فاعلم أن الاستدلال على الشيء يقع على وجهين (أحدهما) أن يقال إنه قدر على ما هو أصعب وأشد وأشق منه فوجب أيضاً أن يقدر عليه (والثاني) أن يقال إنه قدر عليه في إحدى الحالتين والفاعل والقابل باقيين كما كانا ، فوجب أن تبقى القدرة عليه في الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقين في بيان أن القول بالبعث والقيامة أمر جائز ممكن .

(أما الطريق الأول) فهو المراد من قوله (فاستفتهم أهم أشد خلقاً) والتقدير كأنه تعالى يقول استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم أشد خلقاً من خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك ، ولا شك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشق وأشد في العرف من خلق القسم الأول ، فلما ثبت بالدلائل المذكورة في إثبات التوحيد كونه تعالى قادراً على هذا القسم الذي هو أشد وأصعب ، فبأن يكون قادراً على إعادة الحياة في هذه الأجساد كان أولى ، ونظير هذه الدلالة قوله تعالى في آخر يس (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) (وأما الطريق الثاني) فهو المراد من قوله (إنا خلقناهم من طين لازب) والمعنى أن هذه الأجسام قابلة للحياة إذ لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حية في المرة الأولى والإله قادر على خلق هذه الحياة في هذه الأجسام ، ولولا كونه تعالى قادراً على هذا المعنى لما حصلت الحياة في المرة الأولى ، ولا شك أن قابلية تلك الأجسام باقية وأن قادرية الله تعالى باقية لأن هذه القابلية وهذه القادرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت بهذين الطريقين أن القول بالبعث والقيامة أمر

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب إنه زحل إذ لا معنى لكونه رجلاً .

ممكن ، ولما بين تعالى إمكان هذا المعنى بهذين الطريقين بين وقوعه بقوله (قل نعم وأنتم داخرون) وذلك لأنه ثبت صدق الرسول ﷺ لأجل ظهور المعجزات عليه والصادق إذا أخبر عن أمر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو في غاية الحسن والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في تفسير ألفاظ هذه الآية ، أما قوله (فاستفتهم) يعني أنه لما ثبت بالدلائل المذكورة كونه تعالى خالقاً للسموات والأرض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم (أهم أشد خلقاً) أم هذه الأشياء ؟ وبينا كونه تعالى خالقاً لها وإذ علم منهم أنهم أقروا أن خلق هذه الأشياء أصعب لأجل أن ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة أن يحكي عنهم صحة أن الأمر كذلك .

ثم قال تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) يعني أنا لما قدرنا على خلق الحياة في ذواتهم أولا وجب أن نبقى قادرين على خلق الحياة فيهم ثانياً لما بينا أن حال القابل وحال الفاعل يمتنع التغير . وفيه دقيقة أخرى وهي أن القوم قالوا كيف يعقل تولد الإنسان لا من النطفة ولا من الأبوين ؟ فكأنه قيل لهم إنكم لما أقررتم بحدوث العالم واعترفتم بأن السموات والأرض وما بينهما إنما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلابد وأن تعترفوا بأن الإنسان الأول إنما حدث لا من الأبوين ، وإذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم الإنسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الأبوين . وأيضاً قد اشتهر عند الجمهور أن آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة في الطين اللازب فكيف يعجز عن إعادة الحياة إلى هذه الذوات . وأما كيفية خلق الإنسان من الطين اللازب فهي مذكورة في السورة المتقدمة ، واعلم أن هذا الوجه إنما يحسن إذا قلنا المراد من قوله تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) هو أنا خلقنا أباهم آدم من طين لازب ، وفيه وجه آخر وهو أن يكون المراد أنا خلقنا كل إنسان من طين لازب ، وتقريره أن الحيوان إنما يتولد من المني ودم الطمث والمني يتولد من الدم فالحيوان إنما يتولد من الدم والدم إنما يتولد من الغذاء ، والغذاء إما حيواني وإما نباتي أما تولد الحيوان الذي صار غذاء فالكلام في كيفية تولده كالكلام في تولد الإنسان . فثبت أن الأصل في الأغذية هو النبات ، والنبات إنما يتولد من امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن كل الخلق متولدون من الطين اللازب ، وإذا ثبت هذا فنقول إن هذه الأجزاء التي منها تركب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها ، وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة في كل الأوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة ، وأما اللازب فقيل اللاصق ، وقيل اللزج وقيل الحر ، وأكثر أهل اللغة على أن الباء في لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم .

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ تقرير الكلام أن يقال إن هؤلاء المنكرين أقروا بأنه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من إعادة الحياة إلى هذه الأجساد . وقد تقرر في صرائح العقول أن القادر على الأشق الأشد يكون قادراً على الأسهل الأيسر، ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقي هؤلاء الأقوام مصرين على إنكار البعث والقيامة وهذا في موضع التعجب الشديد فإنه مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الإصرار فيه . فأنت يا محمد تتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم في طرف الإنكار وصلوا إلى حيث يسخرون منك في قولك بإثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، فهذا هو المراد من قوله (بل عجبت ويسخرون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ حمزة والكسائي (عجبت) بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدي والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم ويحيى بن وثاب والأعمش وقراءة أهل الكوفة واختيار أبي عبيدة ، أما الذين قرأوا بالفتح فقد احتجوا بوجوه (الأول) أن القراءة بالضم تدل على إسناد العجب إلى الله تعالى وذلك محال ، لأن التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشيء ومعلوم أن الجهل على الله محال (والثاني) أن الله تعالى أضاف التعجب إلى محمد صلى الله عليه وسلم في آية أخرى في هذه المسألة فقال (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً) . (والثالث) أنه تعالى قال (بل عجبت ويسخرون) والظاهر أنهم إنما سخروا لأجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب أن يكون ذلك التعجب صادراً منه ، وأما الذين قرأوا بضم التاء ، فقد أجابوا عن الحجة الأولى من وجوه (الأول) أن القراءة بالضم لا نسلم أنها تدل على إسناد التعجب إلى الله تعالى ، وبيانه أنه يكون التقدير قل يا محمد (بل عجبت ويسخرون) ونظيره قوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) معناه أن هؤلاء ما تقولون فيه أنهم هذا النحو من الكلام ، وكذلك قوله تعالى (فما أصبرهم على النار) (الثاني) سلمنا أن ذلك يقتضي إضافة التعجب إلى الله تعالى فلم قلتم إن ذلك محال ؟ ويروى أن شريحاً كان يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لا يليق إلا بمن لا يعلم ، قال الأعمش فذكرت ذلك لإبراهيم فقال إن شريحاً يعجب بعلمه وكان عبد الله أعلم ، وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه أن نقول دل القرآن والخبر على جواز إضافة العجب إلى الله تعالى ، أما القرآن فقوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم) والمعنى وإن تعجب يا محمد من قولهم ، فهو أيضاً عجب عندي ، وأجيب عنه أنه لا يمتنع أن يكون المراد وإن تعجب فعجب قولهم عندكم ، وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم « عجب ربكم من إلكم وقنوطكم ، وعجب ربكم من شاب ليست له صبوة » وإذا ثبت هذا فنقول التعجب من الله تعالى خلاف التعجب من الآدميين كما قال (ويمكرون ويمكر

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾

الله) وقال (سخر الله منهم) وقال تعالى (وهو خادعهم) والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الأحوال من العباد ، وقد ذكرنا أن القانون في هذا الباب أن هذه الألفاظ محمولة على نهايات الأعراض لا على بدايات الأعراض . وكذلك ههنا من تعجب من شيء فانه يستعظمه فالتعجب في حق الله تعالى محمول على أنه تعالى يستعظم تلك الحالة إن كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه ، وإن كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه ، فهذا تمام الكلام في هذه المناظرة ، والأقرب أن يقال القراءة بالضم إن ثبتت بالتواتر وجب المصير إليها ويكون التأويل ما ذكرناه وإن لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء أولى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قرر الدليل القاطع في إثبات إمكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء أولها : أن النبي صلى الله عليه وسلم يتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم يسخرون منه في إصراره على الإثبات ، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم مع أولئك الأقوام كانوا في غاية التباعد وفي طرفي التقيض وثانيها قوله (وإذا ذكروا لا يذكرون) ، وثالثها قوله (وإذا رأوا آية يستسخرون) ويجب أن يكون المراد من هذا الثاني والثالث غير الأول لأن العطف يوجب التغاير ولأن التكرير خلاف الأصل ، والذي عندي في هذا الباب أن يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون من مات وصار تراباً وتفرقت أجزاؤه في العالم كيف يعقل عوده بعينه ؟ وبلغوا في هذا الاستبعاد إلى حيث كانوا يسخرون ممن يذهب إلى هذا المذهب وإذا كان كذلك فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين (أحدهما) أن يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل أن يقال لهم : هل تعلمون أن خلق السموات والأرض أشد وأصعب من إعادة إنسان بعد موته ؟ وهل تعلمون أن القادر على الأصعب الأشق يجب أن يكون قادراً على الأسهل الأيسر ؟ فهذا الدليل وإن كان جلياً قوياً إلا أن أولئك المنكرين إذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لا يفهمونها ولا يقفون عليها ، وإذا ذكروا لم يذكروها لشدة

بلادتهم وجهلهم ، فلا جرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان .

(الطريق الثاني) أن يثبت الرسول ﷺ جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز كوني رسولا صادقاً من عند الله فأنا أخبركم بأن البعث والقيامة حق ، ثم إن أولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضاً لأنهم إذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحراً وسخروا بها واستهزؤا منها وهذا هو المراد من قوله (وإذا رأوا آية يستسخرون) فظهر بالبيان الذي ذكرناه أن هذه الألفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة .

واعلم أن أكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق ، فقالوا إنه تعالى قال (بل عجبت ويسخرون) .

ثم قال (وإذا رأوا آية يستسخرون) فوجب أن يكون المراد من قوله (يستسخرون) غير ما تقدم ذكره من قوله (ويسخرون) فقال هذا القائل المراد من قوله (ويسخرون) اقدامهم على السخرية والمراد من قوله (يستسخرون) طلب كل واحد منهم من صاحبه أن يقدم على السخرية وهذا التكليف إنما لزمهم لعدم وقوفهم على الفوائد التي ذكرناها والله أعلم (والرابع) من الأمور التي حكاها الله تعالى عنهم أنهم قالوا (إن هذا إلا سحر مبين) يعني أنهم إذا رأوا آية ومعجزة سخروا منها ، والسبب في تلك السخرية اعتقادهم أنها من باب السحر وقوله (مبين) معناه أن كونه سحراً أمر بين لا شبهة لأحد فيه ، ثم بين تعالى أن السبب الذي يحملهم على الاستهزاء بالقول بالبعث وعلى عدم الالتفات إلى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع المعجزات هو قولهم إن الذي مات وتفرقت أجزاؤه في جملة العالم فما فيه من الأرضية اختلط بتراب الأرض وما فيه من المائية والهوائية اختلط بمطارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه حياً فاهماً ؟ فهذا الكلام هو الذي يحملهم على تلك الأصوات الثلاثة المتقدمة ، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لأنه ذكر في الآية المتقدمة بالبرهان اليقيني القطعي أنه أمر ممكن وإذا ثبت الجواز القطعي فلا سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق ، فلما قامت المعجزات على صدق محمد ﷺ كان واجب الصدق فكان مجرد قوله (قل نعم) دليلاً قاطعاً على الوقوع ، ومن تأمل في هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب ، وذلك لأنه بين الإمكان بالدليل العقلي وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعي ، ومن المعلوم أن الزيادة على هذا البيان كالأمر الممتنع .

أما قوله (أو آباؤنا) فالمعنى أو تبعث آباؤنا وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف وقرأ نافع وابن عامر بسكونها ، وفي سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام في هذا في سورة الأعراف عند قوله (أو أمن أهل القرى) .

أما قوله تعالى (قل نعم) فنقول قرأ الكسائي وحده نعم بكسر العين .

ثم قوله تعالى (وأنتم داخرون) أي صاغرون ، قال أبو عبيدة الدخور أشد الصغار . وذكرنا تفسير هذه اللفظة عند قوله (سجداً لله وهم داخرون) .

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ، وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما يدل على إمكان البعث والقيامة ، ثم أردفه بما يدل على وقوع القيامة ، ذكر في هذه الآيات بعض تفاصيل أحوال القيامة . واعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية أنواعاً من تلك الأحوال (فالحالة الأولى) قوله تعالى : (فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم ينظرون) وفيه أبحاث :

(البحث الأول) قوله (فإنما) جواب شرط مقدر والتقدير إذا كان كذلك فما هي إلا زجرة واحدة .

(البحث الثاني) الضمير في قوله (فإنما هي) ضمير على شريطة التفسير ، والتقدير فإنما البعث زجرة واحدة .

(البحث الثالث) الزجرة في اللغة الصيحة التي يزجر بها كالزجرة بالنعم والإبل عند الحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وإن لم يكن فيها معنى الزجر كما في هذه الآية وأقول لا يبعد أن يقال إن تلك الصيحة إنما سميت زجرة لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور في موقف القيامة ، فإذا عرفت هذا فنقول المراد من هذه الزجرة ما ذكره الله تعالى في قوله (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) فبالنفخة الأولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون ، وههنا سؤالات :

(السؤال الأول) ما الفائدة في هذه الصيحة فإن القوم في تلك الساعة أموات لأن النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت أن هذه الصيحة إنما حصلت حال كون الخلق أمواتاً ، فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهي عبث والعبث لا يجوز في فعل الله (والجواب) أما أصحابنا فيقولون يفعل الله ما يشاء ، وأما المعتزلة فقال القاضي فيه وجهان (الأول) أن تعتبر بها الملائكة (الثاني) أن تكون الفائدة التخويف والإرهاب .

(السؤال الثاني) هل لتلك الصيحة تأثير في إعادة الحياة ؟ الجواب لا ، بدليل أن الصيحة الأولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لا أثر لها في الموت ولا في الحياة ، بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال (الذي خلق الموت والحياة) .

(السؤال الثالث) تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداء ؟ (الجواب) الكل

جائز إلا أنه روي أن الله تعالى يأمر إسرافيل حتى ينادي : أيتها العظام النخرة والجلود البالية والأجزاء المتفرقة اجتمعوا بإذن الله تعالى (اللفظ الرابع) من الألفاظ المذكورة في هذه الآية قوله تعالى (فإذا هم ينظرون) فيحتمل أن يكون المراد ينظرون ما يحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم إلى بعض وأن يكون المراد ينظرون إلى البعث الذي كذبوا به (الحالة الثانية) من وقائع القيامة ما أخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا (يا ويلنا هذا يوم الدين) قال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا (هذا يوم الدين) أي يوم الجزاء هذا . والمقصود أن الله تعالى ذكر في آيات كثيرة من القرآن أنا نرى في الدنيا محسناً ومسيئاً وعاصياً ومصدقاً ومكذباً ، ورأينا أنه لم يصل إليهم في الدنيا ما يليق بهم من الجزاء فوجب القول بإثبات القيامة (ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) وبالجملة فهذا يدل على أن الجزاء إنما يحصل بعد الموت ، والكفار وإن سمعوا هذا الدليل القوي لكنهم أنكروا وتمردوا ثم إنه تعالى إذا أحياهم يوم القيامة فإذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون (هذا يوم الدين) أي يوم الجزاء الذي ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه في القرآن فكفرنا بها ، ونظيره أن من خوف غيره بشيء ولم يلتفت إليه ، ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول هذا يوم الواقعة الفلانية فكذا ههنا . وفيه احتمال آخر وهو أنه تعالى قال في سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) فبين أنه لا مالك في ذلك اليوم إلا الله فقولهم هذا يوم الدين ، إشارة إلى أن هذا هو اليوم الذي لا حكم فيه لأحد إلا لله ، وإنما ذكروه لما حصل في قلوبهم من الخوف الشديد .

أما قوله تعالى (هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) ففيه بحثان :

(الأول) اختلفوا في أن هذا هل هو من بقية كلام الكفار أو يقال تم كلامهم عند قوله تعالى (هذا يوم الدين) ، وأما قوله (هذا يوم الفصل) فهو كلام غيرهم ، فبعضهم قال بالأول وزعم أن قوله (هذا يوم الفصل) الآية من كلام بعضهم لبعض ، والأكثرون على القول الثاني واحتجوا بوجهين : (الأول) أن قوله (كنتم به تكذبون) من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جمع الكفار فقائل هذا القول لابد وأن يكون غير الكفار (الثاني) أن قوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) معطوف على قوله (هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) فلما كان قوله (احشروا الذين ظلموا) كلام غير الكفار فكذلك قوله (هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) يجب أن يكون كلام غير الكفار ، وعلى هذا التقدير فقوله (هذا يوم الدين) من كلام الكفار ، وقوله (هذا يوم الفصل) من كلام الملائكة جواباً لهم ، والوجه في كونه جواباً لهم أن أولئك الكفار ، إنما اعتقدوا في أنفسهم كونهم محقين في إنكار دعوة الأنبياء عليهم السلام وكونهم محقين في تلك الأديان الفاسدة فقالوا (هذا يوم الدين) أي هذا اليوم الذي يحصل فيه إلينا جزاء طاعتنا وخيراتنا ، فالملائكة يقولون نعم إنه لا اعتبار بظواهر الأمور في هذا اليوم فإن هذا اليوم

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾

يفصل فيه الجزاء الحقيقي عن الجزاء الظاهري ، ويتميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة فبهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جواباً لما ذكره الكفار .

قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ وفي الآية مباحث :

(البحث الأول) اعلم أنه لا نزاع في أن هذا من كلام الملائكة ، فإن قيل ما معنى (احشروا) مع أنهم قد حشروا من قبل وحضروا في محفل القيامة وقالوا (هذا يوم الدين) وقالت الملائكة لهم بل (هذا يوم الفصل) أجاب القاضي عنه فقال المراد احشروهم إلى دار الجزاء وهي النار ، ولذلك قال بعده (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أي خذوهم إلى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال كيف يصح ذلك وقد قال بعده (وقفوهم إنهم مسئولون) ومعلوم أن حشرهم إلى الجحيم إنما يكون بعد المسألة . وأجاب أنه ليس في العطف بحرف الواو ترتيب فلا يمتنع أن يقال احشروهم وقفوهم ، مع أنا بعقولنا نعلم أن الوقوف كان قبل الحشر إلى النار ، هذا ما قاله القاضي ، وعندي فيه وجه آخر وهو أن يقال إنهم إذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة تلحقهم بسبب معاينة أهوال القيامة ، ثم إن الله تعالى يقول للملائكة : احشروا الذين ظلموا واهدوهم إلى صراط الجحيم ، أي سوقوهم إلى طريق جهنم وقفوهم هناك وتحصل المسألة هناك ثم من هناك يساقون إلى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه .

(البحث الثاني) الآمر في قوله تعالى (احشروا الذين ظلموا) هو الله فهو تعالى أمر الملائكة أن يحشروا الكفار إلى موقف السؤال والمراد من الحشر أن الملائكة يسوقونهم إلى ذلك الموقف .

(البحث الثالث) أن الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء : الظالمين ، وأزواجهم ، والأشياء التي كانوا يعبدونها ، وفيه فوائد :

(الفائدة الأولى) أنه تعالى قال (احشروا الذين ظلموا) ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على أن كل وعيد ورد في حق الظالم فهو مصروف إلى الكفار ومما يؤكد هذا قوله تعالى (والكافرون هم الظالمون)

(الفائدة الثانية) اختلفوا في المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة أقوال : (الأول) المراد بأزواجهم أشباههم أي أحزابهم ونظراؤهم من الكفر فاليهودي مع اليهودي والنصراني مع النصراني والذي يدل على جواز أن يكون المراد من الأزواج الأشباه وجوه : (الأول) قوله تعالى (وكنتم

أزواجاً ثلاثة) أي أشكالا وأشباهاً (الثاني) أنك تقول عندي من هذا أزواج أي أمثال وتقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين في أكثر أحكام النكاح، كذلك تعدد الزوج سمي بهذا الاسم لكون كل واحد منه مثلا للقسم الثاني في العدد الصحيح . قال الواحدي فعلى هذا القول يجب أن يكون المراد بالذين ظلموا الرؤساء، لأنك لو جعلت الذين ظلموا عاماً في كل من أشرك لم يكن للأزواج معنى (القول الثاني) في تفسير الأزواج أن المراد قرناؤهم من الشياطين لقوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) . (والقول الثالث) أن المراد نساؤهم اللواتي على دينهم . أما قوله (وما كانوا يعبدون من دون الله) ففيه قولان : (الأول) المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت . ونظيره قوله (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) قيل المراد بالناس عباد الأوثان والمراد بالحجارة الأصنام التي هي أحجار منحوتة . فإن قيل إن تلك الأحجار جمادات فما الفائدة في حشرها إلى جهنم ؟ أجاب القاضي بأنه ورد الخبر أنها تعاد وتحيا لتحصل المبالغة في توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول هب أن الله تعالى يحيي تلك الأصنام إلا أنه لم يصدر عنها ذنب ، فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها ؟ والأقرب أن يقال إن الله تعالى لا يحيي تلك الأصنام بل يتركها على الجمادية . ثم يلقيها في جهنم لأن ذلك مما يزيد في تخجيل الكفار (القول الثاني) أن المراد من قوله (وما كانوا يعبدون من دون الله) الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة ما عبدوه فلما قبلوا منهم ذلك الدين صاروا كالعابدين لأولئك الشياطين وتأكد هذا بقوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان) والقول الأول أولى لأن الشياطين عقلاء وكلمة ما لا تليق بالعقلاء . والله أعلم .

ثم قال (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) قال ابن عباس : دلوهم يقال هديت الرجل إذا دللته وإنما استعملت الهداية ههنا ، لأنه جعل بدل الهداية إلى الجنة ، كما قال (فبشرهم بعذاب أليم) فوضعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لأولئك ، وعن ابن عباس (فاهدوهم) سوقوهم وقال الأصم : قدموهم . قال الواحدي : وهذا وهم ، لأنه يقال هدى إذا تقدم ومنه الهادية والهوادي والهاديات للوحش ، قال ولا يقال هدى بمعنى قدم . ثم قال (وقفوهم) يقال وقفت الدابة أقفها وقفاً فوقفت هي وقوفاً ، والمعنى احبسوهم وفي الآية قولان (أحدهما) على التقديم والتأخير . والمعنى قفوهم واهدوهم ، والأصوب أنه لا حاجة إليه ، بل كأنه قيل (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) فإذا انتهوا إلى الصراط قيل (وقفوهم) فإن السؤال يقع هناك وقوله (إنهم مسئولون) قيل عن أعمالهم في الدنيا وأقوالهم ، وقيل المراد سألتهم الخزنة (ألم يأتكم رسل منكم بالبينات ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) ويجوز أن يكون هذا السؤال ما ذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى (ما لكم لا تناصرون) أي أنهم يسألون توبيخاً لهم ، فيقال (ما لكم لا تناصرون) قال ابن عباس

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ

رضي الله عنهما : لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا . وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر . فقيل لهم يوم القيامة ما لكم غير متناصرين . وقيل يقال للكفار ما لشركائكم لا يمنعونكم من العذاب .

ثم قال تعالى : ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ يقال استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع ، ومعناه في الأصل طلب السلامة بترك المنازعة ، والمقصود أنهم صاروا منقادين لا حيلة لهم في دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود .

ثم قال تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض ﴾ قيل هم والشياطين ، وقيل الرؤساء والأتباع ﴿ يتساءلون ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً . وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت يقولون غررتمونا ، ويقول أولئك لم قبلتم منا . وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين ، بل هو تساؤل التوبيخ واللوم ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين . قالوا بل لم تكونوا مؤمنين . وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين . فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون . فأغويناكم إنا كنا غاوين . فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون . بل جاء بالحق وصدق

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

المرسلين ، إنكم لذائقوا العذاب الأليم ، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ، إلا عباد الله المخلصين ﴾

واعلم أن الله تعالى لما حكى عنهم أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل فقالوا (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) وهذا قول الأتباع لمن دعاهم إلى الضلالة . وفي تفسير اليمين وجوه (الأول) أن لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات ، وبيان كيفية هذه الاستعارة ، أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر لوجوه (أحدها) اتفاق الكل على أن أشرف الجانبين هو اليمين (والثاني) لا يباشرون الأعمال الشريفة إلا باليمين مثل مصافحة الأخيار والأكل والشرب وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى (الثالث) أنهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الأيمن ويسمونه بالبارح (الرابع) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن في كل شيء (الخامس) أن الشريعة حكمت بأن الجانب الأيمن لكاتب الحسنات والأيسر لكاتب السيئات (السادس) أن الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه ، والمسيء أن يؤتى كتابه بيساره ، فثبت أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر ، وإذا كان كذلك لا جرم ، استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات . فقوله (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) يعني أنكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا أن مقصودكم من الدعوة إلى تلك الأديان نصرة الحق وتقوية الصدق (والوجه الثاني) في التأويل أنه يقال فلان يمين فلان ، إذا كان عنده بالمنزلة الحسنة . فقال هؤلاء الكفار لأئمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر : إنكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا أنا عندكم بمنزلة اليمين ، أي بالمنزلة الحسنة ، فوثقنا بكم وقبلنا عنكم (الوجه الثالث) أن أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق ، فوثقوا بأيمانهم وتمسكوا بعهودهم التي عهدوها لهم ، فمعنى قوله (كنتم تأتوننا عن اليمين) أي من ناحية المواثيق والأيمان التي قدمتموها لنا (الوجه الرابع) أن لفظ اليمين مستعار عن القوة والقهر ، لأن اليمين موصوفة بالقوة وبها يقع البطش ، والمعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر ، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتجبرونا عليه ، ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء أنهم أجابوا الأتباع من وجوه (الأول) أنهم قالوا لهم (بل لم تكونوا مؤمنين) يعني أنكم ما كنتم موصوفين بالإيمان حتى يقال إنا أزلناكم عنه (الثاني) قولهم (وما كان لنا عليكم من سلطان) يعني لا قدرة لنا عليكم حتى نقهركم ونجبركم (الثالث) (بل كنتم قوما طاغين) أي ضالين غالين في معصية الله (الرابع) قولهم (فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) والمعنى أن الله تعالى لما أخبر عن

وقوعنا في العذاب ، فلو لم يحصل وقوعنا في العذاب لما كان خبر الله صدقاً ، بل كان باطلاً ، ولو كان خبر الله أمراً واجباً لا جرم ، كان الوقوع في العذاب الأليم لازماً ، قال مقاتل قوله تعالى : (فحق علينا قول ربنا) إشارة إلى قول الله لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقوله تعالى (إنا لذائقون) يعني لما وجب أن يحق علينا قول ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب (الخامس) قولهم (فأغويناكم إنا كنا غاوين) والمعنى أنا إنما أقدمنا على إغوائكم لأنا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية ، وفيه دقيقة أخرى ، كأنهم قالوا إن اعتقدتم أن غوايتكم بسبب إغوائنا فغوايتنا إن كانت بسبب إغواء غاو آخر لزم التسلسل وذلك محال ، فعلمنا أن حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا ، بل من قبل غيرنا ، وذلك الغير هو الذي ذكره فيما قبل ، وهو قوله (فحق علينا قول ربنا) ولما حكى الله تعالى كلام الأتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للأتباع قال بعده (فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون) يعني فالمتبوع والتابع والمخدوم والخادم مشتركون في الوقوع في العذاب كما كانوا في الدنيا مشتركين في الغواية ، ثم قال تعالى (إنا كذلك نفعل بالمجرمين) وعنى بالمجرمين ههنا الكفرة بدليل أنه تعالى قال بعد هذه الكلمة (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) والضمير في قوله (إنهم) عائد إلى المذكور السابق وهو قوله (بالمجرمين) وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مختص في القرآن بالكافر ، ثم بين تعالى أنهم إنما وقعوا في ذلك العذاب لأنهم كانوا مكذبين بالتوحيد وبالنبوة ، أما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) يعني يتكبرون ويتعصبون لإثبات الشرك ويستنكفون عن الإقرار بالتوحيد ، وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم (أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) ويعنون محمداً ، ثم إنه تعالى كذبهم في ذلك الكلام فقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) وتقرير هذا الكلام أنه جاء بالدين الحق لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الضد والند والشريك فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بتقرير هذه المعاني كان مجيئه بالدين الحق ، قرأ ابن كثير (أئنا لتاركوا آلهتنا) بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد ، وقرأ نافع في رواية قالون وأبو عمرو على هذا التفسير بمدان ، والباقون بهمزتين بلا مد وقوله تعالى (وصدق المرسلين) (١) يعني صدقهم في مجيئهم بالتوحيد ونفي الشريك ، وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الأنبياء ، ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد والنبوة نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور فقال (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) كأنه قيل فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عباده ، فأجاب عنه بقوله (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) والمعنى أن الحكمة تقتضي الأمر بالحسن والطاعة والنهي عن القبيح والمعصية والأمر والنهي لا يكمل المقصود منهما

(١) [illegible]

أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾

إلا بالترغيب في الثواب والترهيب بالعقاب، وإذا وقع الإخبار عنه وجب تحقيقه صوناً للكلام عن الكذب. فلهذا السبب وقعوا في العذاب ثم قال (إلا عباد الله المخلصين) يعني ولكن عباد الله [المخلصين ناجون وهو] من الاستثناء المنقطع.

قوله تعالى: ﴿أولئك لهم رزق معلوم. فواكه وهم مكرمون. في جنات النعيم، على سرر متقابلين، يطاف عليهم بكأس من معين، بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وعندهم قاصرات الطرف عين، كأنهن بيض مكنون. فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾.

اعلم أنه تعالى لما وصف أحوال المتكبرين عن قول التوحيد المصرين على إنكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين في كيفية الثواب، وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ ذكرنا في فتح اللام وكسرها من المخلصين قراءتين فالفتح أن الله تعالى أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو أنهم أخلصوا الطاعة لله تعالى.

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى وصف رزقهم بكونه معلوماً، ولم يبين أن أي الصفات منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الأقوال، فقيل معناه إن ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشية وإن لم يكن ثمة لا بكرة ولا عشية، قال تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً)، وقيل معناه أن ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصاً بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر، وقيل معناه أنهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذي لا يعلم متى يحصل ولا متى ينقطع، وقيل معناه: القدر الذي يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم، وقد بين الله تعالى أنه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل، ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقاً بين أن ذلك الرزق ما هو فقال (فواكه) وفيه قولان (الأول) أن الفاكهة عبارة عما يؤكل لأجل التلذذ لا لأجل الحاجة، وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات

فإنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد ، فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ (والثاني) أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالأدنى على الأعلى ، يعني لما كانت الفاكهة حاضرة أبداً كان الإدام أولى بالحضور ، ونقول : الأول أقرب إلى التحقيق . واعلم أنه تعالى لما ذكر الأكل بين أن ذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم فقال (وهم مكرمون) لأن الأكل الخالي عن التعظيم يليق بالبهائم .

ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف تعالى مساكنهم فقال (في جنات النعيم . على سرر متقابلين) ومعناه أنه لا كلفة عليهم في التلاقي للأنس والتعاطف ، وفي بعض الأخبار أنهم إذا أرادوا القرب سار السرير بهم ، ولا يجوز أن يكونوا متقابلين إلا مع حصول الخواطر والسرائر ولن يكونوا كذلك إلا مع الفسحة والسعة ، ولا يجوز أن يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد إلا وقد يقوي الله أبصارهم وأسماعهم وأصواتهم . ولما شرح الله صفة المأكول والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال (يطاف عليهم بكأس من معين) يقال للزجاجة التي فيها الخمر كأس وتسمى الخمرة نفسها كأساً قال :

وكأس شربت على لذة [وأخرى تداويت منها بها]

وعن الأخفش : كل كأس في القرآن فهي الخمر ، وقوله (من معين) أي من شراب معين ، أو من نهر معين ، المعين مأخوذ من عين الماء ، أي يخرج من العيون كما يخرج الماء ، وسمي معيناً لظهوره يقال عان الماء إذا ظهر جارياً ، قال ثعلب فهو مفعول من العين مثل مبيع ومكيل ، وقيل سمي معيناً لأنه يجري ظاهر العين ، ويجوز أن يكون فعيلا من المعن وهو الماء الشديد الجري ومنه أمعن في السير إذا اشتد فيه . وقوله (بيضاء) صفة للخمر ، قال الأخفش ، خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وقوله (لذة) فيه وجوه (أحدها) أنها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم إذا أرادوا المبالغة في وصفه بهاتين الصفتين (وثانيها) قال الزجاج أي ذات لذة فعلى هذا حذف المضاف (وثالثها) قال الليث : اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحداً في النعت ويقال شراب لذ ولذيذ قال تعالى (بيضاء لذة للشاربين) وقال تعالى (من خمر لذة للشاربين) ولذلك سمي النوم لذاً لاستلذاذه ، وعلى هذا لذة بمعنى لذيذة ، والأقرب من هذه الوجوه الأول .

ثم قال تعالى (لا فيها غول) وفيه أبحاث :

(البحث الأول) قال الفراء : العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول ، سواء . وقال أبو عبيدة الغول أن تغتال عقولهم ، وأنشد قول مطيع بن إياس :

وما زالت الكأس تغتالهم وتذهب بالأول الأول

وقال الليث : الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما في خمر الدنيا . قال الواحدي رحمه الله وحقيقته الإهلاك ، يقال غاله غولا أي أهلكه ، والغول والغائل المهلك ، ثم سمي الصداع غولا لأنه يؤدي إلى الهلاك .

ثم قال تعالى (ولا هم عنها ينزفون) وقرىء بكسر الزاي قال الفراء من كسر الزاي فله معنيان يقال أنزف الرجل إذا فنيت خمره ، وأنزف إذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاي فمعناه

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾

لا يذهب عقولهم أي لا يسكرون يقال نزف الرجل فهو منزوف ونزيف ، والمعنى ليس فيها قط نوع من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من صداع أو خمار أو عربدة ولا هم يسكرون أيضاً ، وخصه بالذكر لأنه أعظم المفاسد في شرب الخمر ، ولما ذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة أوجه (الأول) قوله (وعندهم قاصرات الطرف) ومعنى القصر في اللغة الحبس ومنه قوله تعالى (حور مقصورات في الخيام) والمعنى أنهن يحبسن نظرهن ولا ينظرن إلى غير أزواجهن .

(الصفة الثانية) قوله تعالى (عين) قال الزجاج كبار الأعين حسانها واحدها عيناء .

(الصفة الثالثة) قوله تعالى (كأنهن بيض مكنون) المكنون في اللغة المستور يقال كننت الشيء وأكننته ، ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة ، فإذا كان مكنوناً كان مصوناً عن الغبرة والقترة ، فكان هذا اللون في غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور .

ولما تمم الله صفات أهل الجنة قال (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) فإن قيل على أي شيء عطف قوله (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) ؟ قلنا على قوله (يطاف عليهم) والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا ... محادثة الكرام على المدام

والمعنى يقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين ، يقولون أئنك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ، قال هل أنتم مطلعون ، فاطلع فرآه في سواء الجحيم ، قال تالله إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين ، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ، إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر في أهل الجنة أنهم يتساءلون عند الاجتماع على

شرب من الجنة فإن [illegible] ، مقبلاً بعضهم مع بعض على الشرب من الأمور اللذيذة ، وتذكر الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الأمور المفيدة ، ذكر تعالى في هذه الآية أن أهل الجنة إذا اجتمعوا على الشرب وأخذوا في المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات أنهم يتذكرون أنهم كان قد حصل لهم في الدنيا ما يوجب لهم الوقوع في عذاب الله ، ثم إنهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الأبدية ، والمقصود من ذكر هذه الآية أن أهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم .

أما قوله (قال قائل منهم إني كان لي قرين) أي قال قائل من أهل الجنة إني كان لي قرين في الدنيا (يقول أئنك لمن المصدقين) أي كان يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجباً (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) أي لمحاسبون ومجازون . والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار . ثم إن ذلك الرجل الذي هو من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم إلى كمال السرور بالاطلاع إلى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته (هل أنتم مطلعون . فاطلع) والأقرب أنه انكشف لهم أمر اطلعوا منه لأنه لو كان مشاهدة بلا تكلف لم يكن إلى الاطلاع حاجة فلذلك قال بعضهم إنه ذهب إلى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها إلى النار (فرآه في سواء الجحيم) أي في وسط الجحيم قال له موبخاً (تالله إن كدت لتردين) أي أهلكتني بمقالتك ودعائك إلى إنكار البعث والقيامة (ولولا نعمة ربي) بالإرشاد إلى الحق والعصمة عن الباطل (لكنت من المحضرين) في النار مثلك ، ولما تم ذلك الكلام مع القرين الذي كان في الدنيا قريناً له وهو الآن من أهل النار عاد إلى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال (أفما نحن بميتين) وفيه قولان (الأول) أن أهل الجنة لا يعلمون في أول دخولهم في الجنة أنهم لا يموتون ، فإذا جيء بالموت على صورة كبش أملح وذبح فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون فهذا الكلام حصل قبل ذبح الموت (والثاني) أن الذي يتكلم منهم وسائر من معه عظم سرورهم بما هم فيه قد يقول أيدوم هذا لي ؟ أيبقى هذا لي ؟ وإن كان على يقين من دوامه ، ثم عند فراغهم من هذه المحادثات يقولون (إن هذا لهو الفوز العظيم)

وأما قوله (لمثل هذا فليعمل العاملون) فقيل إنه من بقية كلامهم ، وقيل إنه ابتداء كلام من الله تعالى أي لطلب مثل هذه السعادة ينبغي أن يعمل العاملون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال مقاتل هذا القائل وقرينه ما ذكره الله تعالى في سورة الكهف في قوله (واضرب لهم مثلاً رجلين) إلى آخر الآيات ، روي أن رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى داراً بألف دينار فأراها صاحبه وقال كيف ترى حسنها فقال ما أحسنها وخرج وقال اللهم إن صاحبي هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وإني أسألك داراً من دور الجنة . فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لأجل أن يزوجه الله من الحور العين ، ثم إن صاحبه اشترى بساتين بألفي دينار فتصدق هذا بألفي دينار ، ثم إن الله أعطاه في الجنة ما طلب

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ

فعند هذا قال (إني كان لي قرين ـ إلى قوله ـ فاطلع فرآه في سواء الجحيم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة فقرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الألف من غير استفهام ، ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين ، وقرأ ابن عامر الأولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الألف من غير استفهام ، وقرأ الباقون بالاستفهام في جميعها ، ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعدها ياء ساكنة خفيفة ، وأبو عمرو مطولة ، وعاصم وحمزة بهمزتين .

وأما قوله (إن كدت لتردين) قرأ نافع برواية ورش لتردين بإثبات الياء في الوصل والباقون بحذفها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أصحابنا على أن الهدى والضلال من الله تعالى بقوله تعالى (ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) وقالوا مذهب الخصم أن كل ما فعله الله تعالى من وجوه الإنعام في حق المؤمن فقد فعله في حق الكافر ، وإذا كان ذلك الإنعام مشتركا فيه امتنع أن يكون سببا لحصول الهداية للمؤمن ، وأن يكون سببا لخلاصه من الكفر والردى فوجب أن تكون تلك النعمة المخصوصة أمرا زائدا على تلك الإنعامات التي حصل الاشتراك فيها ، وما ذلك إلا بقوة الداعي إلى الإيمان وتكميل الصارف عن الكفر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذي من أهل الجنة (أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى) فهذا يدل على أن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة ولو حصلت الحياة في القبر لكان الموت حاصلا مرتين ، والجواب أن قوله (إلا موتتنا الأولى) المراد منه كل ما وقع في الدنيا والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾

لشوباً من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم . إنهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون . ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما قال بعد ذكر أهل الجنة ووصفها (لمثل هذا فليعمل العاملون) أتبعه بقوله (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجراً لهم عن الكفر ، وكما وصف من قبل مآكل أهل الجنة ومشاربهم وصف أيضاً في هذه الآية مآكل أهل النار ومشاربهم .

أما قوله (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) فالمعنى أن الرزق المعلوم المذكور لأهل الجنة (خير نزلا) أي خير حاصلا (أم شجرة الزقوم) وأصل النزل الفضل الواسع في الطعام يقال طعام كثير النزل ، فاستعير للحاصل من الشيء . ويقال أرسل الأمير إلى فلان نزلا وهو الشيء الذي يصلح حال من ينزل بسببه . إذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لأهل الجنة اللذة والسرور ، وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم ، ومعلوم أنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر في الخير به إلا أنه جاء هذا الكلام ، إما على سبيل السخرية بهم أو لأجل أن المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم إلى الرزق الكريم ، والكافرين اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم قيل لهم ذلك توبيخاً لهم على سوء اختيارهم . وأما (الزقوم) فقال الواحدي رحمه الله لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيراً إلا الكلبي فإنه روى أنه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى أكثر الله في بيوتكم الزقوم ، فإن أهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم . فقال أبو جهل لجاريته زقمينا فأتته بزبد وتمر ، وقال تزقموا ، ثم قال الواحدي ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر . قال ابن دريد لم يكن للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الإفراط من أكل الشيء حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم وظاهر لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها . ثم إنه تعالى يكره أهل النار على تناول بعض أجزائها .

أما قوله تعالى (إنا جعلناها فتنة للظالمين) ففيه أقوال : (الأول) أنها إنما صارت فتنة للظالمين ، من حيث إن الكفار لما سمعوا هذه الآية قالوا كيف يعقل أن تنبت الشجرة في جهنم

مع أن النار تحرق الشجرة ؟ والجواب عنه أن خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر ، ولأنه إذا جاز أن يكون في النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن إحراقهم فلم لا يجوز مثله في هذه الشجرة ؟ إذا عرفت هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو أنهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة في قلوبهم وصارت تلك الشبهة سبباً لتماديهم في الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم (والوجه الثاني) في التفسير أن يكون المراد صيرورة هذه الشجرة فتنة لهم في النار لأنهم إذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم ، فحينئذ يصير ذلك فتنة في حقهم (الوجه الثالث) أن يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار ، فإن هذا شيء بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف ، فإذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه إلى الله وإذا ورد على الزنديق توسل به إلى الطعن في القرآن والنبوة .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات : (الصفة الأولى) قوله إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم قيل منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها (الصفة الثانية) قوله (طلعها كأنه رءوس الشياطين) قال صاحب الكشاف : الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها ، إما استعارة لفظية أو معنوية ، وقال ابن قتيبة سمي (طلعاً) لطلوعه كل سنة ، ولذلك قيل طلع النخل لأول ما يخرج من ثمره ، وأما تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين ففيه سؤال ، لأنه قيل إنا ما رأينا رءوس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شيء بها ؟ وأجابوا عنه من وجوه : (الأول) وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة والسيرة ، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة في قوله (إن هذا إلا ملك كريم) فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برءوس الشياطين في القبح وتشويه الخلقة ، والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل ، كأنه قيل إن أقبح الأشياء في الوهم والخيال هو رءوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها في قبح النظر وتشويه الصورة ، والذي يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة ، قالوا إنه شيطان ، وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة ، قالوا إنه ملك ، وقال امرؤ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(والقول الثاني) أن الشياطين حيات لها رءوس وأعراف ، وهي من أقبح الحيات ، وبها يضرب المثل في القبح ، والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت كأنه شيطان الحماطة ، والحماطة شجرة معينة (والقول الثالث) أن رءوس الشياطين نبت معروف قبيح الرأس ، والوجه الأول هو الجواب الحق ، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين أن الكفار (لآكلون منها فمالئون منها البطون) واعلم أن إقدامهم على ذلك الأكل يحتمل وجهين : (الأول) أنهم أكلوا منها لشدة الجوع ، فإن قيل وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة

طعموا ؛ قلنا إن الواقع في الصورة المطلوبة ما أسمع منه بل ما يقاربه في القبح ، فإذا جوعهم الله الجوع الشديد فزعوا في إزالة ذلك الجوع إلى تناول هذا الشيء ، وإن كان بالصفة التي ذكرتموها (الوجه الثاني) أن يقال الزبانية يكرهونهم على الأكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم .

واعلم أنهم إذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون إلى الشراب فعند هذا وصف الله شرابهم ، فقال (ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم) قال الزجاج : الشوب اسم عام في كل ما خلط بغيره ، والحميم الماء الحار المتناهي في الحرارة ، والمعنى أنه إذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم ، فحينئذ يشوب الزقوم بالحميم ، نعوذ بالله منهما .

واعلم أن الله وصف شرابهم في القرآن بأشياء منها كونه غساقاً ، ومنها قوله (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم) ومنها ما ذكره في هذه الآية . فإن قيل ما الفائدة في كلمة (ثم) في قوله (ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم) ؟ قلنا فيه وجهان : الأول : أنهم يملؤون بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم ، ثم إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب . (والثاني) أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة ، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه ، فكان المقصود من كلمة ثم بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول . ثم قال تعالى (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) قال مقاتل : أي بعد أكل الزقوم وشرب الحميم ، وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم ، وذلك بأن يكون الحميم في موضع خارج عن الجحيم ، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب كما تورد الإبل إلى الماء ، ثم يوردون إلى الجحيم ، فهذا قول مقاتل ، واحتج على صحته بقوله تعالى (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) وذلك يدل على صحة ما ذكرناه . ثم إنه تعالى لما وصف عذابهم في أكلهم وشربهم قال (إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) قال الفراء : الإهراع الإسراع ، يقال هرع وأهرع إذا استحث ، والمعنى أنهم يتبعون آباءهم اتباعاً في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم ، والمقصود من الآية أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين وترك اتباع الدليل ، ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد لكفى .

ثم إنه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له في كفرهم وتكذيبهم ، فقال (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين) فبين تعالى أن إرساله للرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف ، ويجب أن يكون له ﷺ أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ، ويستمر على الدعاء إلى الله وإن تمردوا ، فليس عليه إلا البلاغ .

ثم قال تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) وهذا وإن كان في الظاهر خطاباً مع الرسول ﷺ إلا أن المقصود منه خطاب الكفار لأنهم سمعوا بالأخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم ، فإن لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

يكون زاجراً لهم عن كفرهم . وقوله تعالى (إلا عباد الله المخلصين) فيه قولان (أحدهما) أنه استثناء من قوله (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) (والثاني) أنه استثناء من قوله (كيف كان عاقبة المنذرين) فإنها كانت أقبح العواقب وأفظعها إلا عاقبة عباد الله المخلصين ، فإنها كانت مقرونة بالخير والراحة .

﴿ القصة الأولى ـ قصة نوح عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ، ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على نوح في العالمين ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، ثم أغرقنا الآخرين ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال من قبل (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وقال (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أتبعه بشرح وقائع الأنبياء عليهم السلام (فالقصة الأولى) حكاية حال نوح عليه السلام وقوله (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) فيه مباحث :

(الأول) أن اللام في قوله (فلنعم المجيبون) جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف ، أي فلنعم المجيبون نحن .

(البحث الثاني) أنه تعالى ذكر أن نوحاً نادى ولم يذكر أن ذلك النداء في أي الوقائع كان ؟ لا جرم حصل فيه قولان (الأول) وهو المشهور عند الجمهور أنه نادى الرب تعالى في أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة (والقول الثاني) أن نوحاً عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه إلى الدين الحق بالغوا في إيذائه وقصدوا قتله ، ثم إنه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفار قومه ، فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وإيذائه ، واحتج هذا القائل على ضعف القول الأول بأنه عليه السلام إنما دعا عليهم لأجل أن ينجيه الله تعالى وأهله ، وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النعمة كالمطلوب السابق في دعائه ، وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة ، ثم إنه تعالى لما حكى عن نوح أنه ناداه قال بعده (فلنعم المجيبون) وهذه اللفظة تدل على أن

وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا

تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة، وبيانه من وجوه (الأول) أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال (ولقد نادانا نوح) والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم (والثاني) أنه أعاد صيغة الجمع في قوله (فلنعم المجيبون) وذلك أيضاً يدل على تعظيم تلك النعمة. لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة (والثالث) أن الفاء في قوله (فلنعم المجيبون) يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضي كونه معللاً به. وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة. ثم إنه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال، بين أن الإنعام حصل في تلك الإجابة من وجوه (الأول) قوله تعالى (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو على القول الأول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق، وعلى الثاني الكرب الحاصل من أذى قومه (والثاني) قوله (وجعلنا ذريته هم الباقين) يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا. قال ابن عباس ذريته بنوه الثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب وفارس والروم، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك.

(النعمة الثالثة) قوله تعالى (وتركنا عليه في الآخرين، سلام على نوح في العالمين) يعني يذكرون هذه الكلمة، فإن قيل فما معنى قوله (في العالمين) قلنا معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً أي لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكلتهم. ثم إنه تعالى لما شرح تفاصيل إنعامه عليه قال (إنا كذلك نجزي المحسنين) والمعنى أنا إنما خصصنا نوحاً عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن في ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسناً، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً لله مؤمناً، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته.

﴿ القصة الثانية ـ قصة إبراهيم عليه السلام ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم، إذ جاء ربه بقلب سليم، إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون، أئفكاً آلهة دون الله تريدون، فما ظنكم برب العالمين، فنظر نظرة في النجوم، فقال إني سقيم، فتولوا

عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾

عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين . فأقبلوا إليه يزفون ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الضمير في قوله من شيعته إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان (الأول) وهو الأظهر أنه عائد إلى نوح عليه السلام أي من شيعة نوح أي من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه لإبراهيم ، قالوا وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح . وروى صاحب الكشاف أنه كان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة (الثاني) قال الكلبي المراد من شيعة محمد لإبراهيم بمعنى أنه كان على دينه ومنهاجه فهو من شيعته وإن كان سابقاً له والأول أظهر ، لأنه تقدم ذكر نوح عليه السلام ، ولم يتقدم ذكر النبي ﷺ فعود الضمير إلى نوح أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ العامل في (إذ) ما دل عليه قوله (وإن من شيعته) من معنى المشايعة يعني وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم .

أما قوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله (بقلب سليم) قولان (الأول) قال مقاتل والكلبي يعني خالص من الشرك ، والمعنى أنه سلم من الشرك فلم يشرك بالله (والثاني) قال الأصوليون المراد أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصي . فيدخل فيه كونه سليما عن الشرك وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد . عن ابن عباس أنه كان يحب للناس ما يحب لنفسه ، وسلم جميع الناس من غشه وظلمه وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحداً . واحتج الذاهبون إلى القول الأول بأنه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة إنكاره على قومه الشرك بالله ، وهو قوله (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) واحتج الذاهبون إلى القول الثاني بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة ، وربنا كيد هنا بقوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) مع أنه تعالى قال (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) فإن قيل ما معنى المجيء بقلبه ربه ؟ قلنا معناه أنه أخلص لله قلبه . فكأنه أتحف حضرة الله بذلك القلب ، ورأيت في التوراة أن الله قال لموسى أجب إلهك بكل قلبك .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد فقال (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) والمقصود من هذا الكلام تهجين تلك الطريقة وتقبيحها .

ثم قال (أئفكا آلهة دون الله تريدون) قال صاحب الكشاف أئفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه إفكا ، وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يقرر عندهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم ، ويجوز أن يكون إفكا مفعولا به يعنى أتريدون إفكا ، ثم فسر الإفك بقوله (آلهة دون الله) على أنها إفك فى أنفسها ، ويجوز أن يكون حالا بمعنى تريدون آلهة من دون الله آفكين .

ثم قال (فما ظنكم برب العالمين) وفيه وجهان (أحدهما) أظننتم برب العالمين أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له فى المعبودية (وثانيها) أتظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الأجسام حتى جعلتموها مساوية له فى المعبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شيء .

ثم قال (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) عن ابن عباس أنهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم ، وذلك أنه أراد أن يكايدهم فى أصنامهم ليلزمهم الحجة فى أنها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خاليا فى بيت الأصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالات (الأول) أن النظر فى علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم (والثانى) أنه عليه السلام ما كان سقيما فلما قال إنى سقيم كان ذلك كذبا ، واعلم أن العلماء ذكروا فى الجواب عنهما وجوها كثيرة (الأول) أنه نظر نظرة فى النجوم فى أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه حمى فى بعض ساعات الليل والنهار ، فنظر ليعرف هل هى فى تلك الساعة وقال (إنى سقيم) فجعله عذرا فى تخلفه عن العيد الذى لهم وكان صادقا فيما قال ، لأن السقم كان يأتيه فى ذلك الوقت ، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم (الوجه الثانى) فى الجواب أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور ، فلذلك نظر إبراهيم فى النجوم أى فى علم النجوم وفى معانيه لا أنه نظر بعينه إليها ، وهو كما يقال فلان نظر فى الفقه وفى النحو وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال (إنى سقيم) سكنوا إلى قوله .

أما قوله (إنى سقيم) فمعناه سأسقم كقوله (إنك ميت) أى ستموت (الوجه الثالث) أن قوله (فنظر نظرة فى النجوم) هو قوله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا) إلى آخر الآيات وكان ذلك النظر لأجل أن يعرف أحوال هذه الكواكب هل هى قديمة أو محدثة ، وقوله (إنى سقيم) يعنى سقيم القلب غير عارف بربى وكان ذلك قبل البلوغ (الوجه الرابع) قال ابن زيد كان له نجم مخصوص ، وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم ، ولأجل هذا الاستقراء لما رآه فى ذلك الوقت طالعا على تلك الصفة المخصوصة قال (إنى سقيم) أى هذا السقم واقع لا محالة (الوجه الخامس) أن قوله (إنى سقيم) أى مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك ، قال تعالى لمحمد ﷺ (لعلك باخع نفسك) (الوجه السادس) فى الجواب أنا لا نسلم أن النظر فى

علم النجوم والاستدلالات بها عقابيتها حرام ، لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص ، فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل ، وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله (إني سقيم) على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة ، إما في بدنه وإما في قلبه وكل ذلك سقم ، (الوجه السابع) قال بعضهم ذلك القول عن إبراهيم عليه السلام كذبة وروووا فيه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات » قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول ؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوي أولى ، ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذباً خبراً شبيهاً بالكذب ؟ (الوجه الثامن) أن المراد من قوله فنظر نظرة في النجوم أي نظر في نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم ، فإن الأشياء التي تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أي متفرقة ومنه نجوم الكتابة ، والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كي يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذراً أحسن من قوله (إني سقيم) والمراد أنه لا بد من أن أصير سقيماً كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر إنك مسافر . واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما قال (إني سقيم) تولوا عنه مدبرين فتركوه وعذروه في أن لا يخرج اليوم فكان ذلك مراده (فراغ إلى آلهتهم) يقال راغ إليه إذا مال إليه في السر على سبيل الخفية ، ومنه روغان الثعلب ، وقوله (ألا تأكلون) يعني الطعام الذي كان بين أيديهم ، وإنما قال ذلك استهزاء بها ، وكذا قوله (ما لكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً) فأقبل عليهم مستخفياً كأنه قال فضربهم ضرباً لأن راغ عليهم في معنى ضربهم أو فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً . وفي قوله (باليمين) قولان (الأول) معناه بالقوة والشدة لأن اليمين أقوى الجارحتين (والثاني) أنه أتى بذلك الفعل بسبب الحلف ، وهو قوله تعالى عنه (وتالله لأكيدن أصنامكم) ثم قال (فأقبلوا إليه يزفون) قرأ حمزة (يزفون) بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان ، قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف ، ومن قرأ بالضم فهو من أزف يزف ، قال الزجاج : يزفون يسرعون وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها ، وقرأ حمزة يزفون أي يحملون غيرهم على الزفيف ، قال الأصمعي يقال أزففت الإبل إذا حملتها على أن تزف ، قال وهو سرعة الخطو ومقاربة المشي والمفعول محذوف على قراءته كأنهم حملوا دوابهم على الإسراع في المشي ، فإن قيل مقتضى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا إليه وأخذوه ، وقال في سورة أخرى في عين هذه القصة (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) وهذا يقتضي أنهم في أول الأمر ما عرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض ؟ قلنا لا يبعد أن يقال إن جماعة

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

عرفوه فقصدوا إليه مسرعين ، والأكثرون ما عرفوه فتعرفوا أن ذلك الكاسر من هو . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين . وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن القوم لما عاتبوا إبراهيم على كسر الأصنام فهو أيضاً ذكر لهم الدليل الدال على فساد المصير إلى عبادتها فقال (أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون) ووجه الاستدلال ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والإصلاح ما كان معبوداً للإنسان البتة . فإذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه ، فلو صار معبوداً عند ذلك لكان معناه أن الشيء الذي ما كان معبوداً لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبوداً عند ذلك . وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج جمهور الأصحاب بقوله (والله خلقكم وما تعملون) على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال النحويون : اتفقوا على أن لفظ ما مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله (وما تعملون) معناه وعملكم ، وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم ، فإن قيل هذه الآية حجة عليكم من وجوه (الأول) أنه تعالى قال (أتعبدون ما تنحتون) أضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ولو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلا للعبد (الثاني) أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام ، لأنه تعالى بين أنه خالقهم وخالق لتلك الأصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق . فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الأصنام لاجرم أنه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم فقال : (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لا نسلم أنها حجة لكم ، قوله لفظة ما مع ما بعدها في تقدير المصدر ، قلنا هذا ممنوع وبيانه أن سيبويه والأخفش اختلفا في أنه هل يجوز أن يقال أعجبني

بالذي أي قبلك لجوزه سيبويه ومنعه الأخفش وزعم أن هذا لا يجوز إلا في الفعل المتعدي وذلك يدل على أن ما مع ما بعدها في تقدير المصدر عند الأخفش . فثبت أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر . لكنه أيضاً قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه (الأول) قوله (أتعبدون ما تنحتون) والمراد بقوله (ما تنحتون) المنحوت لا النحت لأنهم ما عبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله (ما تعملون) المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر (والثاني) أنه تعالى قال (فإذا هي تلقف ما يأفكون) وليس المراد أنها تلقف نفس الإفك بل أراد العصي والحبال التي هي متعلقات ذلك الإفك فكذا ههنا (الثالث) أن العرب تسمي محل العمل عملا يقال في الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة ما مع بعدها كما تجيء بمعنى المصدر فقد تجيء أيضاً بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول أولى لأن المقصود في هذه الآية تزييف مذهبهم في عبادة الأصنام لا بيان أنهم لا يوجدون أفعال أنفسهم . لأن الذي جرى ذكره في أول الآية إلى هذا الموضع هو مسألة عبادة الأصنام لا خلق الأعمال . واعلم أن هذه السؤالات قوية وفي دلائلنا كثرة ، فالأولى ترك الاستدلال بهذه الآية والله أعلم .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا إلى طريق الإيذاء (فقالوا ابنوا له بنياناً) واعلم أن كيفية ذلك البناء لا يدل عليها لفظ القرآن ، قال ابن عباس : بنوا حائطاً من حجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملأوه ناراً فطرحوه فيها ، وذلك هو قوله تعالى (فألقوه في الجحيم) وهي النار العظيمة ، قال الزجاج : كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم ، والألف واللام في الجحيم يدل على النهاية والمعنى في جحيمه ، أي في جحيم ذلك البنيان . ثم قال تعالى (فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) والمعنى أنه في وقت المحاجة حصلت الغلبة له ، وعندما ألقوه في النار صرف الله عنه ضرر النار ، فصار هو الغالب عليهم . واعلم أنه لما انقضت هذه الواقعة قال إبراهيم (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) ونظير هذه الآية قوله تعالى (وقال إني مهاجر إلى ربي) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ دلت هذه الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته ، وذلك لأن إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، مع أن الله سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة ، لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار ، فلأن يجب ذلك على الغير كان أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله (إني ذاهب إلى ربي) قولان (الأول) المراد منه مفارقة تلك الديار ، والمعنى إني ذاهب إلى مواضع دين ربي (والقول الثاني) قال الكلبي : ذاهب بعبادتي إلى ربي ، فعلى القول الأول المراد بالذهاب إلى الرب هو الهجرة من الديار ، وبه اقتدى موسى حيث قال (كلا إن معي ربي سيهدين) وعلى القول الثاني المراد رعاية أحوال القلوب ، وهو أن لا يأتي

يبقى من الأعمال إلا لله تعالى. كما قال (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) قيل إن القول الأول أولى، لأن المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته إلى أرض الشام، وأيضاً يبعد حمله على اهتدائه في الدين، لأنه كان على الدين في ذلك الوقت إلا أن يحمل ذلك على الثبات عليه، أو يحمل ذلك على الاهتداء إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في أمر الدين.

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (سيهدين) يدل على أن الهداية لا تحصل إلا من الله تعالى، كما يقول أصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الأدلة وإزاحة الأعذار، لأن كل ذلك قد حصل في الزمان الماضي، وقوله (سيهدين) يدل على أن المقصود تلك الهداية بالمستقبل، فوجب حمل الهداية في هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة في قلبه. فإن قيل إبراهيم عليه السلام جزم في هذه الآية بأنه تعالى سيهديه، وأن موسى عليه السلام لم يجزم به، بل قال (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) فما الفرق؟ قلنا العبد إذا تجلى له مقامات رحمة الله عليه جزم بحصول المقصود، وإذا تجلى له مقامات كونه غنياً عن العالمين، فحينئذ يستحقر نفسه فلا يجزم، بل لا يظهر إلا الرجاء والتضرع.

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله تعالى (إني ذاهب إلى ربي) يدل على فساد تمسك المشبهة بقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) لأن كلمة إلى موجودة في قوله (إني ذاهب إلى ربي) مع أنه لم يلزم أن يكون الإله موجوداً في ذلك المكان، فكذلك ههنا.

واعلم أنه صلوات الله عليه لما هاجر إلى الأرض المقدسة أراد الولد فقال (رب هب لي من الصالحين) أي هب لي بعض الصالحين، يريد الولد، لأن لفظ الهبة غلب في الولد، وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) وقال تعالى (ووهبنا له إسحق ويعقوب) (ووهبنا له يحيى) وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم حين هنأه بولده علي أبي الأملاك شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب. ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى وبهبة الوهاب وبموهوب ووهب.

واعلم أن هذا اللفظ يدل على مجموع ثلاثة أشياء: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ الحلم، وأنه يكون حليماً، وأي حلم يكون أعظم من حلم ولد عرض عليه أبوه الذبح فقال (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) ثم استسلم لذلك، وأيضاً فإن إبراهيم عليه السلام كان موصوفاً بالحلم، قال تعالى (إن إبراهيم لأواه حليم) (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) فبين أن ولده موصوف بالحلم، وأنه قائم مقامه في صفات الشرف والفضيلة، واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه، فقال (رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين) وطلبه للولد فقال (رب هب لي من الصالحين) وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته في الدين والدنيا، فقال (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى . قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن ياإبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه . فقال : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ ومعناه فلما أدرك وبلغ الحد الذي يقدر فيه على السعي ، وقوله : ﴿ معه ﴾ في موضع الحال ، والتقدير كائناً معه . والفائدة في اعتبار هذا المعنى أن الأب أرفق الناس بولده وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته ، قال بعضهم كان في ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة ، والمقصود من هذا الكلام أن الله تعالى لما وعده في الآية الأولى بكون ذلك الغلام حليماً ، بين في هذه الآية ما يدل على كمال حلمه ، وذلك لأنه كان به من كمال الحلم وفسحة الصدر ما قواه على احتمال تلك البلية العظيمة ، والإتيان بذلك الجواب الحسن .

أما قوله (إني أرى في المنام أني أذبحك) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في تفسير هذا اللفظ وجهان (الأول) قال السدي : كان إبراهيم حين بشر بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذن لله ذبيح فقيل لإبراهيم قد نذرت نذراً فف بنذرك فلما أصبح (قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك) .

وروى من طريق آخر أنه رأى ليلة التروية في منامه ، كأن قائلا يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح إلى الرواح ، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فمن ثم سمي يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله فسمي يوم عرفة ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر ، وهذا هو قول أكثر المفسرين وهو يدل على أنه رأى في المنام ما يوجب أن يذبح ابنه في اليقظة ، وعلى هذا فتقدير اللفظ : إني أرى في المنام ما يوجب أن أذبحك (والقول الثاني) أنه رأى في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء عليهم السلام من باب الوحي ، وعلى هذا القول فالمرئي في المنام ليس إلا أنه يذبح . فإن قيل إما أن يقال إنه ثبت بالدليل عند الأنبياء عليهم السلام أن كل ما رآه في المنام فهو حق وحجة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم ، فإن كان الأول فلم راجع الولد في هذه الواقعة ، بل كان من الواجب عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور ، وأن لا يراجع الولد فيه ، وأن لا يقول له (فانظر ماذا ترى) وأن لا يوقف العمل على أن يقول له الولد (افعل ما تؤمر) ، وأيضاً فقد قلتم إنه بقي في اليوم الأول متفكراً ، ولو ثبت عنده بالدليل أن كل ما رآه في النوم فهو حق لم يكن إلى هذا التروي والتفكر حاجة ، وإن كان الثاني ، وهو أنه لم يثبت بالدليل عندهم أن ما يرونه في المنام حق ، فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة ؟ (والجواب) لا يبعد أن يقال إنه كان عند الرؤيا متردداً فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحي الصريح ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في أن هذا الذبيح من هو ؟ فقيل إنه إسحق وهذا قول عمر وعلي والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل رضي الله عنهم ، وقيل إنه إسماعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي ، واحتج القائلون بأنه إسماعيل بوجوه : (الأول) أن رسول الله ﷺ قال « أنا ابن الذبيحين » وقال له أعرابي « يا ابن الذبيحين » فتبسم فسئل عن ذلك فقال : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده ، فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد ابنك بمائة من الإبل ، ففداه بمائة من الإبل ، والذبيح الثاني إسمعيل » .

(الحجة الثانية) نقل عن الأصمعي أنه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال يا أصمعي أين عقلك ، ومتى كان إسحق بمكة وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة ؟ .

(الحجة الثالثة) أن الله تعالى وصف إسماعيل بالصبر دون إسحق في قوله (وإسماعيل

واليسع وذا الكفل كل من الصابرين) وهو صبره على الذبح ، ووصفه أيضاً بصدق الوعد في قوله (إنه كان صادق الوعد) لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به .

(الحجة الرابعة) قوله تعالى (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) فنقول لو كان الذبيح إسحق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب منه أو بعد ذلك (فالأول) باطل لأنه تعالى لما بشرها بإسحق وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه ، وإلا حصل الخلف في قوله (ومن وراء إسحق يعقوب) (والثاني) باطل لأن قوله (فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك) يدل على أن ذلك الابن لما قدر على السعي ووصل إلى حد القدرة على الفعل أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه ، وذلك ينافي وقوع هذه القصة في زمان آخر ، فثبت أنه لا يجوز أن يكون الذبيح هو إسحق .

(الحجة الخامسة) حكى الله تعالى عنه أنه قال (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) ثم طلب من الله تعالى ولداً يستأنس به في غربته فقال (رب هب لي من الصالحين) وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد ، لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد ، لأن طلب الحاصل محال وقوله (هب لي من الصالحين) لا يفيد إلا طلب الولد الواحد ، وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكأن قوله (من الصالحين) لا يفيد إلا طلب الولد الواحد فثبت أن هذا السؤال لا يحسن إلا عند عدم كل الأولاد فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول ، وأجمع الناس على أن إسماعيل متقدم في الوجود على إسحق ، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء هو إسماعيل ، ثم إن الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل .

(الحجة السادسة) الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة ، فكان الذبيح بمكة . ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح بالشام ، واحتج من قال إن ذلك الذبيح هو إسحق بوجوه : (الوجه الأول) أن أول الآية وآخرها يدل على ذلك ، أما أولها فإنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته إلى الشام ثم قال (فبشرناه بغلام حليم) فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحق ، ثم قال بعده (فلما بلغ معه السعي) وذلك يقتضي أن يكون المراد من هذا الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام ، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحق ، وأما آخر الآية فهو أيضاً يدل على ذلك لأنه تعالى لما تمم قصة الذبيح قال بعده (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين) ومعناه أنه بشره بكونه نبياً من الصالحين ، وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على أنه تعالى إنما بشره بهذه النبوة لأجل أنه تحمل هذه الشدائد في قصة الذبيح ، فثبت بما ذكرنا أن أول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحق عليه السلام .

(الحجة الثانية) على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف عليه السلام من

يعقوب إسرائيل نبي الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله فهذا جملة الكلام في هذا الباب ، وكان الزجاج يقول الله أعلم أيهما الذبيح والله أعلم . واعلم أنه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم في موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو إسماعيل قالوا كان الذبح بمنى ، والذين قالوا إنه إسحق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف الناس في أن إبراهيم عليه السلام كان مأموراً بهذا بما رأى ، وهذا الاختلاف متفرع على مسألة من مسائل أصول الفقه ، وهي أنه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال أكثر أصحابنا إنه يجوز ، وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية إنه لا يجوز ، فعلى القول الأول أنه سبحانه وتعالى أمره بالذبح ، ثم إنه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته ، وعلى القول الثاني أنه تعالى ما أمره بالذبح ، وإنما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسألة شريفة من مسائل باب النسخ ، واحتج أصحابنا على أنه يجوز نسخ الأمر قبل مجيء مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ، ثم إنه تعالى نسخه عنه قبل إقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب إنما قلنا إنه تعالى أمره بذبح الولد لوجهين (الأول) أنه عليه السلام قال لولده إني أرى في المنام أني أذبحك فقال الولد افعل ما تؤمر وهذا يدل على أنه عليه السلام كان مأموراً بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح ، ثم إنه أتى بمقدمات الذبح وأدخلها في الوجود ، فحينئذ يكون قد أتى بما أمر به ، وفي هذا الموضع لا يحتاج إلى الفداء ، لكنه احتاج إلى الفداء بدليل قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) فدل هذا على أنه أتى بالمأمور به ، وقد ثبت أنه أتى بكل مقدمات الذبح ، وهذا يدل على أنه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح ، وإذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل إتيانه وذلك يدل على المقصود ، وقالت المعتزلة لا نسلم أن الله أمره بذبح الولد بل نقول إنه تعالى أمره بمقدمات الذبح ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه ما أتى بالذبح وإنما أتى بمقدمات الذبح ، ثم إن الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل قوله تعالى (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وذلك يدل على أنه تعالى إنما أمره في المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن إضجاعه ووضع السكين على حلقه ، والعزم الصحيح على الإتيان بذلك الفعل إن ورد الأمر (الثاني) الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل إبراهيم عليه السلام قطع الحلقوم إلا أنه كلما قطع جزءاً أعاد الله التأليف إليه ، فلهذا السبب لم يحصل الموت (والوجه الثالث) وهو الذي عليه تعويل القوم أنه تعالى لو أمر شخصاً معيناً بإيقاع فعل معين في وقت معين فهذا يدل على أن إيقاع ذلك الفعل في ذلك الوقت حسن ، فإذا نهاه عنه فذلك النهي يدل على أن إيقاع ذلك الفعل في ذلك الوقت قبيح ، فلو حصل هذا النهي عقيب ذلك الأمر لزم أحد أمرين ، لأنه تعالى إن كان عالماً بحال ذلك الفعل لزم أن يقال إنه أمر بالقبيح أو نهى عن الحسن ، وإن لم يكن عالماً به لزم جهل الله تعالى وإنه محال ، فهذا تمام الكلام في هذا الباب (والجواب) عن الأول أنا قد دللنا على أنه تعالى إنما أمره بالذبح .

أما قوله تعالى (قد صدقت الرؤيا) فهذا يدل على أنه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على أنه أتى بكل ما رآه في ذلك المنام . وأما قوله ثانياً كلما قطع إبراهيم عليه السلام جزءاً أعاد الله تعالى التأليف إليه ، فنقول هذا باطل لأن إبراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج إلى الفداء وحيث احتاج إليه علمنا أنه لم يأت بما أمر به . وأما قوله ثالثاً إنه يلزم ، إما الأمر بالقبيح وإما الجهل ، فنقول هذا بناء على أن الله تعالى لا يأمر إلا بما يكون حسناً في ذاته ولا ينهى إلا عما يكون قبيحاً في ذاته ، وذلك بناء على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل ، وأيضاً فهب أنا نسلم ذلك إلا أنا نقول لم لا يجوز أن يقال إن الأمر بالشيء تارة يحسن لكون المأمور به حسناً وتارة لأجل أن ذلك الأمر يفيد نوعاً مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به حسناً ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يروض عبده ، فإنه يقول له إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلاني ، ويكون ذلك الفعل من الأفعال الشاقة ، ويكون مقصود السيد من ذلك الأمر ليس أن يأتي ذلك العبد بذلك الفعل ، بل أن يوطن العبد نفسه على الانقياد والطاعة ، ثم إن السيد إذا علم منه أنه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل الألم عنه ذلك التكليف ، فكذا ههنا ، فلم لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه ، والدليل عليه أنه أمر بالذبح وما أراد وقوعه ، أما أنه أمر بالذبح فلما تقدم في المسألة الأولى ، وأما أنه ما أراد وقوعه فلأن عندنا أن كل ما أراد الله وقوعه فإنه يقع ، وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا أنه تعالى ما أراد وقوعه ، وأما عند المعتزلة فلأن الله تعالى نهى عن ذلك الذبح ، والنهي عن الشيء يدل على أن الناهي لا يريد وقوعه فثبت أنه تعالى أمر بالذبح وثبت أنه تعالى ما أراده ، وذلك يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة ، وتمام الكلام في أن الله تعالى أمر بالذبح ما تقدم في المسألة المتقدمة ، والله أعلم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في بيان الحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة وبيانه من وجوه (الأول) أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح ، فورد أولاً في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة ، فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً (الثاني) أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقاً ، قال الله تعالى في حق محمد ﷺ (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام) وقال عن يوسف عليه السلام (إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) وقال في حق إبراهيم عليه السلام (إني أرى في المنام أني أذبحك) والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين ، لأن الحال إما حال يقظة وإما حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق ، كان ذلك هو النهاية في بيان كونهم محقين صادقين في كل الأحوال ، والله أعلم .

ثم نقول مقدمات الأنبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها ما يقع على وفق الرؤية كما في قوله تعالى في حق رسول ﷺ (لتدخلن المسجد الحرام) ثم وقع ذلك الشيء بعينه ، ومنها ما يقع على الضد كما في حق إبراهيم عليه السلام فإنه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة ، ومنها ما يقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما في رؤيا يوسف عليه السلام ، فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قرأ حمزة والكسائي (ترى) بضم التاء وكسر الراء ، أي ماذا تريني من نفسك من الصبر والتسليم ؟ وقيل ماذا تشير ، والباقون بفتح التاء ، ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل .

﴿ المسألة السابعة ﴾ الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم . وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ، ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا . ثم إنه تعالى حكى عن ولد إبراهيم عليه السلام أنه قال افعل ما تؤمر ، ومعناه افعل ما تؤمر به ، فحذف الجار كما حذف من قوله :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

ثم قال (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) وإنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن ، وأنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله .

ثم قال تعالى (فلما أسلما) يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد ، وقد قرئ بهن جميعاً إذا انقاد له وخضع ، وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له ، ومعناه سلم من أن ينازع فيه ، وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة ، وحقيقة معناهما أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة ، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة في أسلما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه . ثم قال تعالى (وتله للجبين) أي صرعه على شقه فوقع أحد جبينيه على الأرض وللوجه جبينان ، والجبهة بينهما ، قال ابن الأعرابي التليل والمتلول المصروع والمتل الذي يتل به أي يصرع ، فالمعنى أنه صرعه على جبينه ، وقال مقاتل كبه على جبهته ، وهذا خطأ لأن الجبين غير الجبهة .

ثم قال تعالى (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وفيه قولان (الأول) أن هذا جواب فلما عند الكوفيين والمعنى والواو زائدة (والقول الثاني) أن عند البصريين لا يجوز ذلك والجواب مضمر والتقدير : فلما فعل ذلك وناداه الله أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب ، قالوا وحذف الجواب ليس بغريب في القرآن والفائدة فيه أنه إذا لم يذكر كان أعظم وأفخم ، قال المفسرون لما أضجعه للذبح نودي من الجبل (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) قال المحققون السبب في هذا التكليف كمال طاعة إبراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد ، لا جرم قال الله قد صدقت الرؤيا يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا

وقوله (إنا كذلك نجزي المحسنين) ابتداء إخبار من الله تعالى ، وليس يتصل بما تقدم من الكلام ، والمعنى أن ابراهيم وولده كانا محسنين في هذه الطاعة ، فكما جزينا هذين المحسنين فكذلك نجزي كل المحسنين .

ثم قال تعالى (إن هذا لهو البلاء المبين) أي الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها (وفديناه بذبح عظيم) الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضاً ما يذبح وهو المراد في هذه الآية ، وههنا مباحث تتعلق بالحكايات (الأول) حكي في قصة الذبيح أن إبراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب ، فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به ، فقال يا أبت اشدد رباطي كي لا أضطرب ، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن ، واستحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي ليكون أهون فإن الموت شديد ، واقرأ على أمي سلامي وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها ، فقال إبراهيم عليه السلام نعم العون أنت يا بني على أمر الله ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال كبني على وجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة وقد تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .

(البحث الثاني) اختلفوا في ذلك الكبش فقيل إنه الكبش الذي تقرب به هابيل ابن آدم إلى الله تعالى فقبله ، وكان في الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به إسماعيل ، وقال آخرون أرسل الله كبشاً من الجنة قد رعى أربعين خريفاً ، وقال السدي نودي إبراهيم فالتفت فإذا هو بكبش أملح انحط من الجبل ، فقام عند ابراهيم فأخذه فذبحه ، وخلى عن ابنه ، ثم اعتنق ابنه وقال يا بني اليوم وهبت لي ، وأما قوله (عظيم) فقيل سمي عظيماً لعظمه وسمنه ، وقال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيماً وقد رعى في الجنة أربعين خريفاً ، وقيل سمي عظيماً لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد ابراهيم ، ثم قال تعالى (إنه من عبادنا المؤمنين) الضمير في قوله (إنه) عائد إلى ابراهيم ، ثم قال تعالى (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) فقوله (نبياً) حال مقدرة أي بشرناه بوجود إسحاق مقدرة نبوته ، ومن يقول إن الذبيح هو إسماعيل يحتج بهذه الآية ، وذلك لأن قوله (نبياً) حال ولا يجوز أن يكون المعنى فبشرناه بإسحاق حال كون إسحاق نبياً لأن البشارة به متقدمة على صيرورته نبياً ، فوجب أن يكون المعنى وبشرناه بإسحاق حال ما قدرناه نبياً ، وحال ما حكمنا عليه بصير . وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ كانت هذه البشارة بشارة بوجود إسحاق حاصلة بعد قصة الذبيح ، فوجب أن يكون الذبيح غير إسحاق ، أقصى ما في الباب أن يقال لا يبعد أن يقال هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة عن قصة الذبيح إلا أنها كانت متقدمة عليها في الوقوع والوجود ، إلا أنا نقول الأصل رعاية الترتيب وعدم التغيير في النظم ، والله أعلم بالصواب .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

ثم قال تعالى (وباركنا عليه وعلى إسحق) وفي تفسير هذه البركة وجهان (الأول) أنه تعالى أخرج جميع أنبياء بني إسرائيل من صلب إسحاق (والثاني) أنه أبقى الثناء الحسن على إبراهيم وإسحاق إلى يوم القيامة ، لأن البركة عبارة عن الدوام والثبات ، ثم قال تعالى (ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) وفي ذلك تنبيه على أنه لا يلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن ، لئلا تصير هذه الشبهة سبباً لمفاخرة اليهود ، ودخل تحت قوله (محسن) الأنبياء والمؤمنون وتحت قوله (ظالم) الكافر والفاسق والله أعلم .

﴿ قصة موسى وهرون عليهما السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد مننا على موسى وهارون ، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ، وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم ، وتركنا عليهما في الآخرين ، سلام على موسى وهارون ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ .

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، واعلم أن وجوه الإنعام وإن كانت كثيرة إلا أنها محصورة في نوعين إيصال المنافع إليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين ههنا ، فقوله (ولقد مننا على موسى وهارون) إشارة إلى إيصال المنافع إليهما ، وقوله (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) إشارة إلى دفع المضار عنهما .

(أما القسم الأول) وهو إيصال المنافع ، فلا شك أن المنافع على قسمين : منافع الدنيا ومنافع الدين ، أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما ، وأما منافع الدين فالعلم والطاعة ، وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة ، ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل في سائر السور ، لا جرم اكتفى ههنا بهذا الرمز .

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

﴿وأما القسم الثاني﴾ وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) وفيه قولان : قيل إنه الغرق ، أغرق الله فرعون وقومه ، ونجى الله بنى إسرائيل . وقيل المراد أنه تعالى نجاهم من إيذاء فرعون حيث كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه من على موسى وهرون ، فصل أقسام تلك المنة والمنافع فى قوله (ونصرناهم) أى نصرنا موسى وهرون وقومهما (فكانوا هم الغالبين) فى كل الأحوال بظهور الحجة وفى آخر الأمر بالدولة والرفعة (وثانيها) قوله تعالى (وآتيناهما الكتاب المستبين) والمراد منه التوراة ، وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التى يحتاج إليها فى مصالح الدين والدنيا ، كما قال (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ، (وثالثها) قوله تعالى (وهديناهما الصراط المستقيم) أى دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعا ، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة ، وتثبيت الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح (ورابعها) قوله تعالى (وتركنا عليهما فى الآخرين) وفيه قولان (الأول) أن المراد (وتركنا عليهما فى الآخرين) وهم أمة محمد ﷺ قولهم (سلام على موسى وهرون) (والثانى) أن المراد (وتركنا عليهما فى الآخرين) وهم أمة محمد ﷺ الثناء الحسن والذكر الجميل ، وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك (سلام على موسى وهرون) هو كلام الله تعالى ، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الأربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال (إنا كذلك نجزي المحسنين) وقد سبق تفسيره ، ثم قال تعالى (إنهما من عبادنا المؤمنين) والمقصود التنبيه ، على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل ، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهرون بكونهما من المؤمنين ، والله أعلم .

﴿ قصة إلياس عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ، إذ قال لقومه ألا تتقون ، أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، الله ربكم ورب آبائكم الأولين ، فكذبوه فإنهم لمحضرون ، إلا عباد الله المخلصين ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إل ياسين ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ﴾

اعلم أن هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن عامر (وإن إلياس) بغير همزة على وصل الألف والباقون بالهمزة وقطع الألف . قال أبو بكر بن مهران : من ذكره بغير همز على الوصل الألف فقد أخطأ ، وكان أهل الشام ينكرونه ولا يعرفونه . قال الواحدي وله وجهان (أحدهما) أنه حذف الهمزة من إلياس حذفاً ، كما حذفها ابن كثير من قوله (إنها لإحدى الكبر) وكقول الشاعر :

ويلمها في هواء الجو طالبة

والآخر أنه جعل الهمزة التي تصحب اللام للتعريف كقوله (واليسع) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في إلياس قولان : يروى عن ابن مسعود أنه قرأ (وإن إدريس) وقال إن إلياس هو إدريس ، وهذا قول عكرمة ، وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو إلياس بن ياسين من ولد هرون أخي موسى عليهم السلام ، ثم قال تعالى (وإذ قال لقومه ألا تتقون) والتقدير اذكر يا محمد لقومك (إذ قال لقومه ألا تتقون) أي ألا تخافون الله . وقال الكلبي ألا تخافون عبادة غير الله . واعلم أنه لما خوفهم أولا على سبيل الإجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) وفيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ في بعل قولان (أحدهما) أنه اسم علم لصنم كان لهم كأنه وصل ، وقيل كان من ذهب . وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه ، وفتنوا به وعظموه ، حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء ، وكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشام ، وبه سميت مدينتهم بعلبك . واعلم أن قولهم بعل اسم لصنم من أصنامهم لا بأس به ، وأما قولهم إن الشيطان كان يدخل في جوف بعلبك ويتكلم بشريعة الضلالة ، فهذا مشكل لأنا إن جوزنا هذا كان ذلك قادحاً في كثير من المعجزات ، لأنه نقل في معجزات النبي ﷺ كلام الذئب معه وكلام الجمل معه وحنين الجذع ، ولو جوزنا أن يدخل الشيطان في جوف جسم ويتكلم ، فحينئذ يكون هذا الاحتمال قائماً في الذئب والجمل والجذع ، وذلك يقدح في كون هذه الأشياء معجزات (القول الثاني) أن البعل هو الرب بلغة اليمن ، يقال من بعل هذه الدار ، أي من ربها ، وسمي الزوج بعلا لهذا المعنى ، قال تعالى (وبعولتهن أحق بردهن) وقال تعالى (وهذا بعلي شيخاً) فعلى هذا التقدير المعنى ، أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله .

﴿ البحث الثاني ﴾ المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقاً لأفعال نفسه ، فقالوا لو لم يكن غير الله خالقاً لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين ، والكلام فيه قد تقدم في قوله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

﴿ البحث الثالث ﴾ كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول لو قيل : أتدعون بعلا وتدعون أحسن الخالقين ، أوهم أنه أحسن ، لأنه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التجنيس (وجوابه) أن فصاحة

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف ، بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ . واعلم أنه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفي الشركاء ، فقال (الله ربكم ورب آبائكم الأولين) وفيه مباحث .

(الأول) أنا ذكرنا في هذا الكتاب أن حدوث الأشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار ، وكيف يدل على وحدته وبراءته عن الأضداد والأنداد ، فلا فائدة في الإعادة .

(البحث الثاني) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (الله ربكم ورب آبائكم) كلها بالنصب على البدل من قوله (أحسن الخالقين) والباقون بالرفع على الاستئناف ، والأول اختيار أبي حاتم وأبي عبيد ، ونقل صاحب الكشاف أن حمزة إذا وصل نصب ، وإذا وقف رفع ، ولما حكى الله عنه أنه قرر مع قومه التوحيد قال (فكذبوه فإنهم لمحضرون) أي لمحضرون النار غداً ، وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله (لكنت من المحضرين) ثم قال تعالى (إلا عباد الله المخلصين) وذلك لأن قومه ما كذبوه بكليتهم ، بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فلهذا قال تعالى (إلا عباد الله المخلصين) يعني الذين أتوا بالتوحيد الخالص فإنهم لا يحضرون ثم قال (وتركنا عليه في الآخرين سلام على إل ياسين) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين على إضافة لفظ آل إلى لفظ ياسين والباقون بكسر الألف وجزم اللام موصولة بياسين ، أما القراءة الأولى ففيها وجوه : (الأول) وهو الأقرب أنا ذكرنا أنه إلياس بن ياسين فكان إلياس آل ياسين (الثاني) آل ياسين آل محمد ﷺ (والثالث) أن ياسين اسم القرآن ، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذي هو ياسين ، والوجه هو الأول لأنه أليق بسياق الكلام ، وأما القراءة الثانية ففيها وجوه (الأول) قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكائين ، فكذا ههنا إلياس وإلياسين (والثاني) قال الفراء هو جمع وأراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين ، كقولهم المهلبون والسعدون قال :

أنا ابن سعد أكرم السعدينا

﴿ قصة لوط عليه السلام ﴾

ثم قال تعالى (إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين) وقد سبق تفسيره والله أعلم ،

قوله تعالى : ﴿وإن لوطاً لمن المرسلين ، إذ نجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزاً في الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين ، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون﴾

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

هذا هو القصة الخامسة . وإنه تعالى إنما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركو العرب . فإن الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا . وقد تقدم شرح هذه القصة . وقد نبههم بقوله تعالى (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل) وذلك لأن القوم كانوا يسافرون إلى الشام والمسافر في أكثر الأمر إنما يمشي في الليل وفي أول النهار ، فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين .

ثم قال تعالى (أفلا تعقلون) يعني أليس فيكم عقول تعتبرون بها . والله أعلم .

﴿ قصة يونس عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾

إعلم أن هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة في هذه السورة . وإنما صارت هذه القصة خاتمة للقصص ، لأجل أنه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق إلى الفلك وقع في تلك الشدائد فيصير هذا سبباً لصبر النبي ﷺ على أذى قومه .

أما قوله (وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف قرئ يونس بضم النون وكسرها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة إنما وقعت ليونس عليه السلام بعد أن صار رسولا ، لأن قوله (وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك) معناه أنه كان من المرسلين حينما أبق إلى الفلك . ويمكن أن يقال إنه جاء في كثير من الروايات أنه أرسله ملك زمانه إلى أولئك القوم ليدعوهم إلى الله ، ثم أبق والتقمه الحوت فعند ذلك أرسله الله تعالى ، والحاصل أن قوله (لمن المرسلين) لا يدل على أنه كان في ذلك الوقت مرسلا من عند الله تعالى . ويمكن أن يجاب بأنه سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف في معرض تعظيمه ، ولن يفيد هذه الفائدة إلا إذا كان المراد من

قوله (لمن المرسلين) أنه من المرسلين عند الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أبق من إباق العبد وهو هربه من سيده ، ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم إنه أبق من الله تعالى ، وهذا بعيد لأن ذلك لا يقال إلا فيمن يتعمد مخالفة ربه ، وذلك لا يجوز على الأنبياء ، واختلفوا في لأجله صار مخطئاً . فقيل لأنه أمر بالخروج إلى بني إسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضباً لربه ، وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحي أو بلسان نبي آخر . وقيل إن ذنبه أنه ترك دعاء قومه ، ولم يصبر عليهم . وهذا أيضاً بعيد لأن الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه ، والأقرب فيه وجهان : (الأول) أن ذنبه كان لأن الله تعالى وعده إنزال الإهلاك بقومه الذين كذبوه فظن أنه نازل لا محالة ، فلأجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم ، فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وإن أوعده ، وهذا هو الأقرب لأنه إقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمداً للمعصية ، وإن كان الأولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد أنه أخطأ في ذلك الظن ، لأجل أنه ظهر الإيمان منهم فمعنى قوله (إذ أبق إلى الفلك) ما ذكرناه (الوجه الثاني) أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة ، فذلك هو قوله (إذ أبق إلى الفلك) وتمام الكلام في مشكلات هذه الآية ذكرناه في قوله تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه) وقوله (إلى الفلك المشحون) مفسر في سورة يونس والسفينة إذا كان فيها أخذ الكثير والناس يقال إنها مشحونة . ثم قال تعالى (فساهم) المساهمة هي المقارعة ، يقال استهم القوم إذا اقترعوا ، قال المبرد وإنما أخذ من السهام التي تجال للقرعة (فكان من المدحضين) أي المغلوبين يقال أدحض الله حجته فدحضت أي أزالها فزالت وأصل الكلمة من الدحض الذي هو الزلق ، يقال دحضت رجل البعير إذا زلقت ، وذكر ابن عباس في قصة يونس عليه السلام أنه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبي منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقي سبطان ونصف ، وكان الله تعالى أوحى إلى بني إسرائيل إذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم ، فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين إلى نبي من أنبيائهم أن اذهب إلى ملك هؤلاء الأقوام وقل له حتى يبعث إلى بني إسرائيل نبياً ، فاختار يونس عليه السلام لقوته وأمانته . قال يونس الله أمرك بهذا قال لا ولكن أمرت أن أبعث قوياً أميناً وأنت كذلك ، فقال يونس وفي بني إسرائيل من هو أقوى مني فلم لا تبعثه ، فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم فوجد سفينة مشحونة فحملوه فيها ، فلما دخلت لجة البحر أشرفت على الغرق ، فقال الملاحون إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل في السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر ، وقال التجار قد جربنا مثل هذا فإذا رأيناه نقترع ، فمن خرج سهمه نغرقه ، فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس ، فقال التجار نحن أولى بالمعصية من نبي الله ، ثم عادوا ثانياً وثالثاً يقترعون فخرج سهم

يونس ، فقال يا هؤلاء أنا العاصي وتلفف في كساء ورمى بنفسه فابتلعته السمكة فأوحى الله تعالى إلى الحوت ولا تكسر منه عظماً ولا تقطع له وصلاً ، ثم إن السمكة أخرجته إلى نيل مصر ثم إلى بحر فارس ثم إلى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء ، وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم ، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد ، ثم إن الأرضة أكلتها فخرت من أصلها فحزن يونس لذلك حزناً شديداً ، فقال يارب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت ، فقيل له يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة واقتلعت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم فانطلق إليهم ، والله أعلم بحقيقة الواقعة .

ثم قال تعالى (فالتقمه الحوت وهو مليم) يقال لقمه والتقمه والتكل بمعنى واحد ، وقوله تعالى (وهو مليم) يقال ألام إذا أتى بما يلام عليه ، فالمليم المستحق للوم الآتي بما يلام عليه .

ثم قال تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) وفي تفسير كونه من المسبحين قولان (الأول) أن المراد منه ما حكى الله تعالى عنه في آية أخرى أنه كان يقول في تلك الظلمات لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (الثاني) أنه لولا أنه كان قبل أن التقمه الحوت من المسبحين يعني المصلين وكان في أكثر الأوقات مواظباً على ذكر الله وطاعته للبث في بطن ذلك الحوت ، وكان بطنه قبراً له إلى يوم البعث ، قال بعضهم اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، فإن يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى ، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ، وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً ، فلما أدركه الغرق قال (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) قال الله تعالى (آلآن وقد عصيت قبل) واختلفوا في أنه كم لبث في بطن الحوت ، ولفظ القرآن لا يدل عليه . قال الحسن لم يلبث إلا قليلاً وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه ، وعن مقاتل ابن حيان ثلاثة أيام وعن عطاء سبعة أيام وعن الضحاك عشرين يوماً وقيل شهراً ولا أدري بأي دليل عينوا هذه المقادير ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « سبح يونس في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، فقال ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم ، فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه في الساحل » فذاك هو قوله (فنبذناه بالعراء) وفيه مباحث :

(الأول) العراء المكان الخالي قال أبو عبيدة إنما قيل له العراء لأنه لا شجر فيه ولا شيء يغطيه .

(الثاني) أنه تعالى قال (فنبذناه بالعراء) فأضاف ذلك النبذ إلى نفسه ، والنبذ إنما حصل بفعل الحوت ، وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ

ثم قال تعالى (وهو سقيم) قيل المراد أنه بلي لحمه وصار ضعيفاً كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذي ليس عليه ريش ، وقال مجاهد سقيم أي سليب .

ثم قال تعالى (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) ظاهر اللفظ يدل على أن الحوت لما نبذه في العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجز له ، قال المبرد والزجاج كل شجر لا يقوم على ساق وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين ، نحو الدباء والحنظل والبطيخ ، قال الزجاج أحسب اشتقاقها من قطن بالمكان إذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض فلذلك قيل له اليقطين ، وروى الفراء أنه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع ، فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطيناً كل ورقة اتسعت وسترت فهي يقطين ، قال الواحدي رحمه الله والآية تقتضي شيئين لم يذكرهما المفسرون (أحدهما) أن هذا اليقطين لم يكن قبل فأنبته الله لأجله (والآخر) أن اليقطين كان معروشاً ليحصل له ظل ، لأنه لو كان منبسطاً على الأرض لم يمكن أن يستظل به

ثم قال تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) وفيه مباحث :

(الأول) يحتمل أن يكون المراد وأرسلناه قبل أن يلتقمه الحوت وعلى هذا الإرسال وإن ذكر بعد الالتقام ، فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع ، ويحتمل أن يكون المراد به الإرسال بعد الالتقام ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ، وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل إلى قوم آخرين سوى القوم الأول ، ويجوز أن يكون أرسل إلى الأولين ثانياً بشريعة فآمنوا بها .

(البحث الثاني) ظاهر قوله (أو يزيدون) يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى (عذراً أو نذراً) وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) وقوله تعالى (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) وقوله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وقوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) وأجابوا عنه من وجوه كثيرة والأصح منها وجه واحد وهو أن يكون المعنى أو يزيدون في تقديركم بمعنى أنهم إذا رآهم الرائي قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة ، وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا .

ثم قال تعالى (فآمنوا فمتعناهم إلى حين) والمعنى أن أولئك الأقوام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله إلى حين ، أي إلى الوقت الذي جعله الله أجلا لكل واحد منهم .

قوله تعالى : ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ،

تَشْهَدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون، ولد الله وإنهم لكاذبون، أصطفى البنات على البنين، ما لكم كيف تحكمون، أفلا تذكرون، أم لكم سلطان مبين، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، سبحان الله عما يصفون، إلا عباد الله المخلصين﴾ وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر أقاصيص الأنبياء عليهم السلام عاد إلى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها، ومن جملة أقوالهم الباطلة أنهم أثبتوا الأولاد لله سبحانه وتعالى، ثم زعموا أنها من جنس الإناث لا من جنس الذكور فقال (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون) وهذا معطوف على قوله في أول السورة (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا) وذلك لأنه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولا ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض إلى أن أمره بأن يستفتيهم في أنهم لم أثبتوا لله سبحانه البنات ولأنفسهم البنين. ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا إن قريشاً وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا الملائكة بنات الله، واعلم أن هذا الكلام يشتمل على أمرين: (أحدهما) إثبات البنات لله وذلك باطل لأن العرب كانوا يستنكفون من البنت، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه كيف يمكن إثباته للخالق (والثاني) إثبات أن الملائكة إناث وهذا أيضاً باطل لأن طريق العلم إما الحس وإما الخبر وإما النظر، أما الحس فمفقود هنا لأنهم ما شهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله (أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون) وأما الخبر فمفقود أيضاً لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقاً قطعاً وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة، وهو المراد من قوله (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون) وأما النظر فمفقود وبيانه من وجهين

(الأول) أن دليل العقل يقتضي فساد هذا المذهب ، لأن الله تعالى أكمل الموجودات ، والأكمل
لا يليق به اصطفاء الأخس وهو المراد من قوله (أصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون)
يعني إسناد الأفضل إلى الأفضل أقرب عند العقل من إسناد الأخس إلى الأفضل ، فإن كان حكم
العقل معتبراً في هذا الباب كان قولكم باطلا (والوجه الثاني) أن نترك الاستدلال على فساد
مذهبهم ، بل نطالبهم بإثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم فإذا لم يجدوا ذلك الدليل فحينئذ يظهر أنه
لم يوجد ما يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله (أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن
كنتم صادقين) فثبت بما ذكرنا أن القول الذي ذهبوا إليه لم يدل على صحته لا الحس ولا الخبر
ولا النظر ، فكان المصير إليه باطلا قطعاً ، واعلم أنه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل
ذلك على أن التقليد باطل ، وأن الدين لا يصح إلا بالدليل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أصطفى البنات على البنين) قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من
(أصطفى) ثم يحذف ألف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقريع ، كقوله تعالى (أم اتخذ مما يخلق
بنات) وقوله تعالى (أم له البنات ولكم البنون) وقوله تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى) ولا بد أن
هذه المواضع كلها استفهام فكذلك في هذه الآية . وقرأ نافع في بعض الروايات (لكاذبون
اصطفى) موصولة بغير استفهام ، وإذا ابتدأ كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات
في زعمهم كقوله (ذق إنك أنت العزيز الكريم) في زعمه واعتقاده .

ثم قال تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) واختلفوا في المراد بالجنة على وجوه (الأول) قال
مقاتل أثبتوا نسباً بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله ، وعلى هذا القول فالجنة هم
الملائكة سموا جناً لاجتنانهم عن الأبصار أو لأنهم خزان الجنة ، وأقول هذا القول عندي مشكل ،
لأنه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ، ثم عطف عليه قوله (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) والعطف
يقتضي كون المعطوف مغايراً للمعطوف عليه ، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم
(الثاني) قال مجاهد قالت كفار قريش الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم ؟
قالوا سروات الجن ، وهذا أيضاً عندي بعيد لأن المصاهرة لا تسمى نسباً (والثالث) روينا في تفسير
قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) أن قوماً من الزنادقة يقولون الله وإبليس أخوان فالله الخير
الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس ، فقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) المراد منه
هذا المذهب ، وعندي أن هذا القول أقرب الأقاويل ، وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وأهرمن(١)
ثم قال تعالى (ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون) أي قد علمت الجنة أن الذين قالوا هذا القول
محضرون النار ويعذبون ، وقيل المراد ولقد علمت الجنة أنهم سيحضرون في العذاب ، فعلى القول
الأول الضمير عائد إلى قائل هذا القول ، وعلى القول الثاني عائد إلى الجنة أنفسهم ، ثم إنه تعالى

(١) يزدان وأهرمن أي الخير والشر أو النور والظلمة وهذا المذهب هو مذهب الفرس ويسمى الثنوية نسبة إلى [illegible]

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال (سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين) وفي هذا الاستثناء وجوه ، قيل استثناء من المحضرين ، يعني أنهم ناجون ، وقيل هو استثناء من قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) وقيل هو استثناء منقطع من المحضرين ، ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك ، والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله ، وبفتحها من أخلصه الله بلطفه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فإنكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ، وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين ، لكنا عباد الله المخلصين ، فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار أتبعه بما نبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان قد سبق حكم الله في حقه بالعذاب والوقوع في النار ، وذكر صاحب الكشاف في قوله (فإنكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين) قولين (الأول) الضمير في (عليه) لله عز وجل ومعناه فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علم الله كونهم من أهل النار ، فإن قيل كيف يفتنونهم على الله ؟ قلنا يفتنونهم عليه بإغوائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه : (والوجه الثاني) أن تكون الواو في قوله (وما تعبدون) بمعنى مع كما في قولهم كل رجل وضيعته ، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته ، فكذلك جاز أن يسكت على قوله (فإنكم وما تعبدون) لأن قوله (وما تعبدون) ساد مسد الخبر ، لأن معناه فإنكم مع ما تعبدون ، والمعنى فإنكم مع آلهتكم أي فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون تعبدونها ، ثم قال تعالى (ما أنتم عليه) أي على ما تعبدون (بفاتنين) بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال (إلا من هو صال الجحيم) مثلكم . وقرأ الحسن (صالُ الجحيم) بضم اللام ووجهه أن يكون جمعاً وسقوط واوه لالتقاء

أبا كثير، فإن قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله (من هو) قلنا (من) موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا تأثير لإغواء الشيطان ووسوسته ، وإنما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره ، لأن قوله تعالى (فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين) تصريح بأنه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لأحوال معبوديهم في وقوع الفتنة والضلال ، وقوله تعالى (إلا من هو صال الجحيم) يعني إلا من كان كذلك في حكم الله وتقديره ، وذلك تصريح بأن المقتضي لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى ، وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية في إثبات هذا المطلوب ، قال الجبائي المراد أن الذين عبدوا الملائكة يزعمون أنهم بنات الله لا يفتنون أحداً إلا من ثبت في معلوم الله أنه سيكفر ، فدل هذا على أن من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه وإلا كان يمنع الشيطان ، فصح بهذا أن كل من يعصي لم يكن ليصلح منه شيء من الأفعال (والجواب) حاصل هذا الكلام أنه لا تأثير لإغواء شياطين الإنس والجن ، وهذا لا نزاع فيه إلا أن وجه الاستدلال أنه تعالى بين أنه لا تأثير لكلامهم في وقوع الفتنة ، ثم استثنى منه ما في قوله تعالى (إلا من هو صال الجحيم) فوجب أن يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكوماً عليه بأنه صال الجحيم ، وذلك تصريح بأن حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذي يؤثر في حصول الشقاوة والسعادة ، واعلم أن أصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو أنه حج آدم موسى ، قال القاضي هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد ، لأنه يوجب أن لا يلام أحد على شيء من الذنوب ، لأنه إن كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه ، فكذلك كل مذنب ، فإن صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام ، فلماذا قال موسى عليه السلام في الوكزة هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ؟ ولماذا قال فلن أكون ظهيراً للمجرمين ؟ ولماذا لام فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم ؟ ومن عجيب أمرهم أنهم يكفرون القدرية ، وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدرياً ، فلزمهم أن يكفروه ، وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) أن يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه ، وقد كتب عليه ذلك قبل أن يخلقه ، هذا جملة كلام القاضي فيقال له هب أنك لا تقبل ذلك الخبر ، فهل ترد هذه الآية أم لا ، فإنا بينا أن صريح هذه الآية يدل على أنه لا تأثير للوساوس في هذا الباب ، فإن الكل يحصل بحكمة الله تعالى ، والذي يدل عليه وجوه (الأول) أن الكافر إن ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان إن كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال ، وإن انتهى إلى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب (الثاني) أن كل أحد يريد أن يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق ، فحصول ضده يدل على أن ذلك ليس منه (الثالث) أن الأفعال موقوفة على الدواعي وحصول الدواعي بخلق الله ، فيكون الكل

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ

من الله تعالى (الرابع) أنه تعالى لما اقتضت حكمته شيئاً ، وعلم وقوعه ، فلو لم يقع ذلك الشيء لزم انقلاب ذلك الحكم كذباً وانقلاب ذلك العلم جهلا وهو محال . وأما الآيات التي تمسك بها القاضي فهي معارضة بالآيات الدالة على أن الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من هذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التي ذكرناها سليمة ، والله أعلم .

ثم قال تعالى [(وما منا إلا له مقام معلوم) فالجمهور على أنهم الملائكة]وصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية ، فإنهم يصطفون للصلاة والتسبيح . والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله وذلك لأن مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية . واعلم أن هذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة (فأولها) قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لا يتعدى عنها ، وتلك الدرجات إشارة إلى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم وإلى درجاتهم في معرفة الله تعالى أما درجاتهم في التصرفات والأفعال فهي قوله (وإنا لنحن الصافون) والمراد كونهم صافين في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية ، وأما درجاتهم في المعارف فهي قوله تعالى (وإنا لنحن المسبحون) والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به .

واعلم أن قوله (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) يفيد الحصر ومعناه أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم وأنهم هم المسبحون لا غيرهم ، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم ، حتى يصح هذا الحصر . وبالجملة فهذه الألفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات الملائكة فكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال البشر تقرب درجته من الملك فضلا عن أن يقال هل هو أفضل منه أم لا .

وأما قوله (وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين) فالمعنى أن مشركي قريش وغيرهم كانوا يقولون (لو أن عندنا ذكراً) أي كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله . ولما كذبا كما كذبوا . ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب ، وهو القرآن فكفروا به . ونظير هذه الآية قوله تعالى (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً) ثم قال تعالى (فسوف يعلمون) أي فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

﴿ فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون . فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون . سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾

اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بقوله تعالى (فسوف يعلمون) أي عاقبة كفرهم أردفه بما يقوي قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون) فبين أن وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، وأيضاً أن الخير مقضي بالذات والشر مقضي بالعرض ، وما بالذات أقوى مما بالعرض ، وأما النصرة والغلبة فقد تكون بقوة الحجة ، وقد تكون بالدولة والاستيلاء ، وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وإن صار مغلوباً في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب ، ولا يلزم على هذه الآية أن يقال : فقد قتل بعض الأنبياء وقد هزم كثير من المؤمنين ، ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم (فتول عنهم حتى حين) والمراد ترك مقاتلتهم والصفة عما وعدناهم إلى حين يشعرون ، ثم تحل بهم الحسرة والندامة ، واختلف المفسرون فقيل المراد إلى يوم بدر ، وقيل إلى فتح مكة ، وقيل إلى يوم القيامة ، ثم قال (وأبصرهم فسوف يبصرون) والمعنى فأبصرهم وما يقضي عليهم من القتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فسوف يبصرونك مع ما قدر لك من النصرة والتأييد في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة ، والمراد من الأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة ، وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك . وقوله (فسوف يبصرون) للتهديد والوعيد ، ثم قال (أفبعذابنا يستعجلون) والمعنى أن الرسول عليه السلام كان يهددهم بالعذاب ، وما رأوا شيئاً فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء ، فبين تعالى أن ذلك الاستعجال جهل ، لأن لكل شيء من أفعال الله تعالى وقتاً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر ، فكان طلب حدوثه قبل مجيء ذلك الوقت جهلا ، ثم قال تعالى في صفة العذاب الذي يستعجلونه (فإذا نزل بساحتهم) أي هذا العذاب (فساء صباح المنذرين) وإنما وقع

هذا التعبير عن هذه المعاني كأنهم كانوا يقدمون على العادة في وقت الصباح ، فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العمل ، ثم أعاد تعالى قوله (فتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون) فقيل المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا ، وفي هذه الكلمة أحوال القيامة ، وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل ، وقيل إن المراد من التكرير المبالغة في التهديد والتهويل ثم إنه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية ، وذلك لأن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة (فأولها) معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية ، وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع (أحدها) تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية ، وهو لفظة سبحان (وثانيها) وصفه بكل ما يليق بصفات الإلهية وهو قوله (رب العزة) فإن الربوبية إشارة إلى التربية وهي دالة على كمال الحكمة والرحمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة (وثالثها) كونه منزهاً في الإلهية عن الشريك والنظير ، وقوله (رب العزة) يدل على أنه القادر على جميع الحوادث ، لأن الألف واللام في قوله (العزة) تفيد الاستغراق ، وإذا كان الكل ملكاً له وملكاً له لم يبق لغيره شيء ، فثبت أن قوله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم (والمهم الثاني) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف ينبغي أن يعامل نفسه ويعامل الخلق في هذه الحياة الدنيوية.

واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكملهم ، ومرشد يرشدهم ، وهاد يهديهم وما ذاك إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل ، فنبه على هذا الحرف بقوله (وسلام على المرسلين) لأن هذا اللفظ يدل على أنهم في الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ، ولا جرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم (والمهم الثالث) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت .

واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة ، فالاعتماد فيها على حرف واحد ، وهو أنه إله العالم غني رحيم ، والغني الرحيم لا يعذب ، فنبه على هذا الحرف بقوله (والحمد لله رب العالمين) وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم ، فبين بهذا كونه منعماً ، وظاهر كونه غنياً عن العالمين ، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم ، فكان هذا الحرف منبهاً على سلامة الحال بعد الموت ، فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من دراري الكواكب ، ونسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة والعاقبة في الدنيا والآخرة.

تم تفسير هذه السورة ظهرة يوم الجمعة السابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين .

(٣٨) سُورَةُ صٓ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

باسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ص والقرآن ذي الذكر ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق ، كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الكلام المستقصى في أمثال هذه الفواتح مذكور في أول سورة البقرة ولا بأس بإعادة بعض الوجوه (فالأول) أنه مفتاح أسماء الله تعالى التي أولها صاد ، كقولنا صادق الوعد ، صانع المصنوعات ، صمد (والثاني) معناه صدق محمد في كل ما أخبر به عن الله (الثالث) معناه صد الكفار عن قبول هذا الدين ، كما قال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) (الرابع) معناه أن القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن. فدل ذلك على أن القرآن معجز (الخامس) أن يكون صاد بكسر الدال من المصاداة وهي المعارضة ومنها الصدى وهو ما يعارض صوتك في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة ، ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه (السادس) أنه اسم السورة والتقدير هذه صاد ، فإن قيل هنا إشكالان (أحدهما) أن قوله (والقرآن ذي الذكر) قسم وأين المقسم عليه ؟ (والثاني) أن كلمة (بل) تقتضي رفع حكم ثبت قبلها ، وإثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق ، فأين هذا المعنى هنا ؟ (والجواب) عن الأول من وجوه (الأول) أن يكون معنى صاد ، بمعنى صدق محمد ﷺ ، فيكون صاد هو المقسم عليه ، وقوله (والقرآن ذي الذكر) هو القسم (الثاني) أن يكون المقسم عليه محذوفاً ، والتقدير سورة (ص والقرآن ذي الذكر) إنه لكلام معجز ، لأنا بينا أن قوله (ص) تنبيه على التحدي (والثالث) أن يكون صاد اسماً للسورة ، ويكون التقدير هذه ص والقرآن ذي الذكر ، ولما كان المشهور أن محمداً عليه السلام يدعي في هذه السورة كونها معجزة ، كان قوله هذه (ص) جارياً مجرى قوله : هذه هي السورة المعجزة ، ونظيره قولك هذا حاتم والله ، أي هذا هو المشهور

بالشقاء (والجواب) عن السؤال الثاني أن الحكم المذكور قبل كلمة (بل[١]) أما ما ذكره المفسر كون محمد صادقاً في تبليغ الرسالة أو كون القرآن أو هذه السورة معجزة والحكم المذكور بعد كلمة (بل) ههنا هو المنازعة والمشاقة في كونه كذلك فحصل المطلوب ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الحسن صاد بكسر الدال لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد بغير تنوين وعلى حذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم الله لأفعلن ، وأكثر القراء على الجزم لأن الأسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الأواخر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في قوله ذي الذكر وجهان (الأول) المراد ذي الشرف ، قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) وقال تعالى (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم) وهو مجاز من قولهم لفلان ذكر في الناس ، كما يقولون له صيت (الثاني) ذي البيان أي فيه قصص الأولين والآخرين ، وفيه بيان العلوم الأصلية والفرعية ومجازه من قوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة القرآن ذو الذكر والذكر محدث (بيان الأول) قوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك ، وهذا ذكر مبارك ، والقرآن ذي الذكر ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) و (بيان الثاني) قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقوله (ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) (والجواب) أنا نصرف دليلكم إلى الحروف والأصوات وهي محدثة .

أما قوله (بل الذين كفروا) فالمراد منه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الإجماع على الحسد والتكبر عن الانقياد إلى الحق ، والعزة ههنا التعظيم وما يعتقده الإنسان في نفسه من الأحوال التي تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) والشقاق هو إظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضيلة عليه ، وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه في شق وخصمه في شق ، فيريد أن يكون في شق نفسه ولا يجري عليه حكم خصمه . ومثله المعاداة وهو أن يكون أحدهما في عدوة والآخر في عدوة ، وهي جانب الوادي ، وكذلك المحادة أن يكون هذا في حد غير حد الآخر ، ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلاناً أي صار منه على حرف وفي جانب غير جانبه والله أعلم . ثم إنه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال (كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا) والمعنى أنهم نادوا عند نزول العذاب في الدنيا ولم يذكر بأي شيء نادوا ، وفيه وجوه (الأول) وهو الأظهر أنهم نادوا بالاستغاثة لأن نداء من نزل به العذاب ليس إلا بالاستغاثة (الثاني) نادوا بالإيمان والتوبة عند معاينة العذاب (الثالث) نادوا أي رفعوا أصواتهم ، يقال فلان أندى صوتاً من فلان أي أرفع صوتاً ، ثم قال (ولات حين مناص) يعني

(١) فالحكم المذكور قبل كلمة بل [illegible] القرآن [illegible] والإعجاز [illegible] وعلوم الأمر وكل ما [illegible] من ذكر وهذا هو الحكم [illegible] الظاهر [illegible] وربما يكون للاضراب [illegible] ويجري الكلام [illegible] الأساليب العربية [illegible] الاستثناء والاعتماد على [illegible] بل [illegible] الإثبات والاضراب لا يكون [illegible]

وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾

ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا) وقال (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة وكقوله (آلآن وقد عصيت قبل) وقوله (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) بقي ههنا أبحاث :

(البحث الأول) في تحقيق الكلام في لفظ (لات) زعم الخليل وسيبويه أن لات هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد ، وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة ، منها أنها لا تدخل إلا على الأحيان ، ومنها أن لا يبرز إلا أحد جزءيها ، إما الاسم وإما الخبر ويمتنع بروزهما جميعاً ، وقال الأخفش إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الأحيان (وحين مناص) منصوب بها كأنك قلت ولات حين مناص لهم ويرتفع بالابتداء أي ولات حين مناص كائن لهم .

(البحث الثاني) الجمهور يقفون على التاء من قوله (ولات) والكسائي يقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة . قال صاحب الكشاف : وأما قول أبي عبيدة التاء داخلة على الحين فلا وجه له ، واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في مصحف عثمان فضعيف فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط .

(البحث الثالث) المناص المنجا والفوت . يقال ناصه ينوصه إذا فاته ، واستناص طلب المناص ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) في قوله (منهم) وجهان (الأول) أنهم قالوا إن محمداً مساو لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة ، فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي والدرجات الرفيعة (والثاني) أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال

جهالتهم ، وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب في الآخرة ، والتنفير عن الدنيا ، ثم إن هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيداً عن الكذب والتهمة ، وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ، ثم إن هؤلاء الأقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله ، ونظيره قوله (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) فقال (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) ومعناه أن محمداً كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساوياً لهم في الأسباب الدنيوية فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه ، وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة ، وبالجملة فما كان هذا التعجب بسبب إلا الحسد .

ثم قال تعالى (وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) وإنما لم يقل وقالوا بل قال (وقال الكافرون) إظهاراً للغضب ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا من الكفر التام ، فإن الساحر هو الذي يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك ، والكذاب هو الذي يخبر عن الشيء لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الأشياء التي تشهد بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذاباً ، ثم إنه تعالى حكى جميع ما عولوا عليه في إثبات كونه كاذباً وهي ثلاثة أشياء (أحدها) ما يتعلق بالإلهيات (وثانيها) ما يتعلق بالنبوات (وثالثها) ما يتعلق بالمعاد ، أما الشبهة المتعلقة بالإلهيات فهي قولهم (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) روي أنه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحاً شديداً وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال ﷺ ماذا يسألونني ، قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال ﷺ أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أتعطوني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم ؟ قالوا نعم ، قال تقولون لا إله إلا الله ، فقاموا وقالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) أي بليغ في التعجب . وأقول منشأ التعجب من وجهين (الأول) هو أن القوم ما كانوا من أصحاب النظر والاستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا في الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفي قدرته وعلمه بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد ، فقالوا لا بد في حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر (الوجه الثاني) أن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك ، فقالوا من العجب العجيب أن يكون أولئك الأقوام على كثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين ، وهذا الإنسان الواحد يكون محقاً صادقاً ، وأقول لعمري لو سلمنا إجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحجة ، لكانت الشبهة الأولى لازمة ، ولما توافقنا على فسادها علمنا أن إجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعاً ، وإذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل أصل كلام المشبهة في الذات وكلام المشبهة في الأفعال ، أما المشبهة

في الذات فهو أنهم يقولون لما كان كل موجود في الشاهد يجب أن يكون جسماً وحاصلاً في حيز وجب في الغائب أن يكون كذلك ، وأما المشبهة في الأفعال فهم المعتزلة الذين يقولون إن الأمر الفلاني قبيح منا ، فوجب أن يكون قبيحاً من الله ، فثبت بما ذكرنا أنه إن صح كلام هؤلاء المشبهة في الذات وفي الأفعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين ، وحيث توافقنا على فسادها علمنا أن عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد ، وأما الشبهة الثانية فلعمري لو كان التقليد حقاً لكانت هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا أن التقليد باطل ثم هنا أبحاث :

(البحث الأول) أن العجاب هو العجيب إلا أنه أبلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للمبالغة كقوله تعالى (ومكروا مكراً كباراً) .

(الثاني) قال صاحب الكشاف قرىء عجاب بالتخفيف والتشديد عجّاب والتشديد أبلغ من التخفيف كقوله تعالى (مكراً كباراً) .

ثم قال تعالى (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم) قد ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين إذا حضروا في المجلس فإنه تمتلىء القلوب والعيون من مهابتهم وعظمتهم ، وقوله (منهم) أي من قريش انطلقوا عن مجلس أبي طالب ، بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب الشديد قائلين بعضهم لبعض (أن امشوا واصبروا على آلهتكم) وفيه مباحث :

(البحث الأول) القراءة المشهورة أن امشوا وقرأ ابن أبي عبلة امشوا بحذف أن قال صاحب الكشاف أن بمعنى أي لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى في المجلس المتقدم ، فكان انطلاقهم مضمناً معنى القول ، وعن ابن عباس : وانطلق الملأ منهم يمشون .

(البحث الثاني) معنى أن امشوا أنه قال بعضهم لبعض امشوا واصبروا ، فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ، إن هذا لشيء يراد ، وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم ليس له سبب ظاهر بحيث أن تزايد ظهوره ليس إلا لأن الله يريده ، وما أراد الله كونه فلا دافع له (وثانيها) أن الأمر كشيء من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه (وثالثها) أن دينكم لشيء يراد أي يطلب ليؤخذ منكم ، وقال القفال هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف وكأن معناها أنه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين ، وإنما غرضه أن يستولي علينا فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد .

ثم قال (ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة) والملة الآخرة هي ملة النصارى فقالوا إن هذا التوحيد الذي أتى به محمد ﷺ ما سمعناه في دين النصارى ، أو يكون المراد بالملة الآخرة ملة قريش التي أدركوا آباءهم عليها ، ثم قالوا (إن هذا إلا اختلاق) افتعال وكذب ، وحاصل الكلام من هذا الوجه أنهم قالوا نحن ما سمعنا عن أسلافنا القول بالتوحيد ، فوجب أن يكون باطلاً ، ولو كان القول بالتقليد حقاً لكان كلام هؤلاء المشركين حقاً ، وحيث كان باطلاً علمنا أن القول بالتقليد باطل .

أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ، أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب ، جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ .

اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لأولئك الكفار وهي الشبهة المتعلقة بالنبوات وهي قولهم إن محمداً لما كان مساوياً لغيره فى الذات والصفات والخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة فكيف يعقل أن يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة ؟ وهو المراد من قولهم (أأنزل عليه الذكر من بيننا) فإنه استفهام على سبيل الإنكار ، وحكى الله تعالى عن قوم صالح أنهم قالوا مثل هذا القول فقالوا (أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) وحكى الله تعالى عن قوم محمد ﷺ أيضاً أنهم قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وتمام الكلام فى تقرير هذه الشبهة : أنهم قالوا النبوة أشرف المراتب ، فوجب أن لا تحصل إلا لأشرف الناس ومحمد ليس أشرف الناس ، فوجب أن لا تحصل له النبوة ، والمقدمتان الأوليان حقيتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج هذا التغليط عليهم أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان وذلك باطل ، فإن مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هي النفسانية وأوسطها هي البدنية وأدونها هي الخارجية وهي المال والجاه ، فالقوم عكسوا القضية وظنوا بأخس المراتب أشرفها فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه ، فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد فى أفكارهم ، ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه (الأول) قوله تعالى (بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب) وفيه وجهان (أحدهما) أن قوله (بل هم فى شك من ذكرى) أي من الدلائل التى لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لأن كل ما ذكروه من الشبهات فهي كلمات ضعيفة وأما الدلائل التى تدل بنفسها على صحة نبوته ، فهي دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل فى الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التى تمسكوا بها فى إبطال النبوة ، ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة نبوته ، فحيث لم يعرفوا ذلك كان لأجل أنهم تركوا النظر والاستدلال . فأما قوله تعالى (بل لما

يذوقوا عذاب) فالمقصود من هذا الكلام أنه تعالى يقول هؤلاء إنما تركوا النظر والاستدلال لأني لم أذقهم عذابي، ولو ذاقوه لم يقع منهم إلا الإقبال على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات (وثانيها) أن يكون المراد من قوله (بل هم فى شك من ذكرى) هو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر ، ثم إنهم أصروا على الكفر ، ولم ينزل عليهم العذاب ، فصار ذلك سبباً لشكهم فى صدقه ، وقالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) فقال (بل هم فى شك من ذكرى) معناه ما ذكرناه ، وقوله تعالى (بل لما يذوقوا عذاب) معناه أن ذلك الشك إنما حصل بسبب عدم نزول العذاب (والوجه الثانى) من الوجوه التى ذكرها الله تعالى فى الجواب عن تلك الشبهة قوله تعالى (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) وتقرير هذا الجواب أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزاً أى كامل القدرة ووهاباً أى عظيم الجود ، وذلك هو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود ، لم يتوقف كونه واهباً لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنياً أو فقيراً ، ولم يختلف ذلك أيضاً بسبب أن أعداءه يحبونه أو يكرهونه (والوجه الثالث) فى الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب) واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الكلام مغايراً للمراد من قوله (أم عندهم خزائن رحمة ربك) والفرق أن خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه) ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والأرض ، فلما ذكر تعالى الخزائن أولا على عمومها أردفها بذكر (ملك السموات والأرض وما بينهما) يعنى أن هذه الأشياء أحد أنواع خزائن الله ، فإذا كنتم عاجزين عن هذا القسم ، فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى ، فهذا ما أمكننى ذكره فى الفرق بين الكلامين ، أما قوله تعالى (فليرتقوا فى الأسباب) فالمعنى أنهم إن ادعوا أن لهم ملك السموات والأرض فعند هذا يقال لهم ارتقوا فى الأسباب واصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها إلى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحى على من يختارون ، واعلم أن حكماء الإسلام استدلوا بقوله (فليرتقوا فى الأسباب) على أن الأجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلى لأن الله تعالى سمى الفلكيات أسباباً وذلك يدل على ما قلناه والله أعلم ، أما قوله تعالى (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) ففيه مقامان من البحث (أحدهما) فى تفسير هذه الألفاظ (والثانى) فى كيفية تعلقها بما قبلها (أما المقام الأول) فقوله (جند) مبتدأ وما للإبهام كقوله جئت لأمر ما ، وعندى طعام ما ، و(من الأحزاب) صفة لجند و(مهزوم) خبر المبتدأ وأما قوله (هنالك) فيجوز أن يكون صفة لجند أى جند ثابت هنالك ، ويجوز أن يكون متعلقاً بمهزوم ومعناه أن الجند من الأحزاب مهزوم هنالك ، أى فى ذلك الموضع الذى كانوا يذكرون ف

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

جند هذه الكلمات الطاعنة في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأما المقام الثاني) فهو أنه تعالى لما قال إن كانوا يملكون السموات والأرض فليرتقوا في الأسباب ، ذكر عقيبه أنهم جند من الأحزاب مهزومون مضعفون ، فكيف يكونون مالكين السموات والأرض وما بينهما ، قال قتادة هنالك إشارة إلى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر ، وقيل يوم الخندق ، والأصوب عندي حمله على يوم فتح مكة ، وذلك لأن المعنى أنهم جند سيصيرون منهزمين في الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة ، فوجب أن يكون المراد أنهم سيصيرون منهزمين في مكة وما ذاك إلا يوم الفتح ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الجواب عن شبهة القوم أنهم إنما تواني وتكاسلوا في النظر والاستدلال ، لأجل أنهم لم ينزل بهم العذاب ، بين تعالى في هذه الآية أن أقوام سائر الأنبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العذاب ، والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول في إخباره عن نزول العقاب عليهم ، فذكر الله ستة أصناف منهم أولهم قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحاً أهلكهم الله بالغرق والطوفان (والثاني) عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح (والثالث) فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق (والرابع) ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة (والخامس) قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف (والسادس) أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة ، قالوا وإنما وصف الله فرعون بكونه ذا الأوتاد لوجوه (الأول) أن أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، ثم استعير لإثبات العز والملك قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد

قال القاضي حمل الكلام على هذا الوجه أولى لأنه لما وصف بتكذيب الرسل ، فيجب فيما وصف به أن يكون تفخيماً لأمر ملكه ليكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من إهلاك

مع قوله أمره أبلغ (والثاني) أنه كان ينصب الخشب في الهواء وكان يمد يدي المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الأربع ، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً ، ويتركه معلقاً في الهواء إلى أن يموت (والثالث) أنه كان يمد المعذب بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات (والرابع) قال قتادة كانت أوتاداً وأرساناً وملاعب يلعب بها عنده (والخامس) أن عساكره كانوا كثيرين ، وكانوا كثيري الأهبة عظيمي النعم ، وكانوا يكثرون من الأوتاد لأجل الخيام فعرف بها (والسادس) ذو الأوتاد والجموع الكثيرة ، وسميت الجموع أوتاداً لأنهم يقوون أمره ويشدون ملكه كما يقوي الوتد البناء[1] . وأما الأيكة فهي الغيضة الملتفة .

ثم قال تعالى (أولئك الأحزاب) وفيه أقوال (الأول) أن هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمم هم الذين تحزبوا على أنبيائهم فأهلكناهم ، فكذلك نفعل بقومك ، لأنه تعالى بين بقوله (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) أن قوم محمد ﷺ جند من الأحزاب ، أي من جنس الأحزاب المتقدمين ، فلما ذكر أنه عامل الأحزاب المتقدمين بالإهلاك كان ذلك تخويفاً شديداً لقوم محمد ﷺ (الثاني) أن معنى قوله (أولئك الأحزاب) مبالغة لوصفهم بالقوة والكثرة ، كما يقال فلان هو الرجل ، والمعنى أن حال أولئك الأحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين .

واعلم أن هؤلاء الأقوام إن صدقوا بهذه الأخبار فهو تحذير ، وإن لم يصدقوا بها فهو تحذير أيضاً ، لأن آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوي فيحذرون ، ولأن ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر أيضاً ، ثم قال إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، أي كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم في الترغيب والترهيب ، لا جرم نزل العقاب عليهم وإن كان ذلك بعد حين ، والمقصود منه زجر السامعين ، ثم بين تعالى أن هؤلاء المكذبين وإن تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) وفي تفسير هذه الصيحة قولان (الأول) أن يكون المراد عذاباً يفجؤهم ويجيئهم دفعة واحدة ، كما يقال صاح الزمان بهم إذا هلكوا قال الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

ويشبه أن يكون أصل ذلك من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم ، ونظيره قوله تعالى (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) الآية (والقول الثاني) أن هذه الصيحة هي صيحة النفخة الأولى في الصور ، كما قال تعالى في سورة يس (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) والمعنى أنهم وإن لم يذوقوا عذابي في الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة ، فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم ، كالرجل الذي ينتظر الشيء فهو ماد الطرف إليه يطمع كل ساعة في حضوره ، ثم إنه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال (ما لها من فواق) قرأ حمزة والكسائي (فواق) بضم الفاء ، والباقون بفتحها قال الكسائي والفراء

(١) الأولى أن تفسر الأوتاد هنا بالأهرام ، فإنها خاصة بالفراعنة في مصر ، وإنما سميت أوتاداً تشبيهاً لها بالجبال في الرسوخ في الأرض والعظم والضخامة والارتفاع ، والله تعالى سمى الجبال أوتاداً في القرآن بقوله (والجبال أوتاداً) .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

وأبو عبيدة والأخفش. هما لغتان من فواق الناقة، وهو ما بين حلبتي الناقة وأصله من الرجوع، يقال أفاق من مرضه، أي رجع إلى الصحة، فالزمان الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن إلى الضرع يسمى فواقاً بالفتح وبالضم، كقولك قصاص الشعر وقصاصه. قال الواحدي: والفواق والفواق اسمان من الإفاقة، والإفاقة معناها الرجوع والسكون كإفاقة المريض، إلا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر، والفواق بالضم اسم لذلك الزمان الذي يعود فيه اللبن إلى الضرع، وروى الواحدي في البسيط عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية «يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الفزع، قال فيمدها ويطولها، وهي التي يقول (ما لها من فواق)» ثم قال الواحدي: وهذا يحتمل معنيين (أحدهما) ما لها سكون (والثاني) ما لها رجوع، والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع إلى السكون، ويقال لكل من بقي على حالة واحدة: إنه لا يفيق منه ولا يستفيق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾

اعلم أنا ذكرنا في تفسير قوله (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) أن القوم إنما تعجبوا لشبهات ثلاثة (أولها) تتعلق بالإلهيات، وهو قوله (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) (والثانية) تتعلق بالنبوات، وهو قوله (أأنزل عليه الذكر من بيننا) (والثالثة) تتعلق بالمعاد، وهو قوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وذلك لأن القوم كانوا في نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته، والقط القطعة من الشيء، لأنه قطع منه من قطه إذا قطعه، ويقال لصحيفة الجائزة قط، ولما ذكر رسول الله ﷺ وعد المؤمنين بالجنة، قالوا على سبيل الاستهزاء: عجل لنا نصيبنا من الجنة، أو عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها.

واعلم أن الكفار لما بالغوا في السفاهة على رسول الله ﷺ حيث قالوا (إنه ساحر كذاب) وقالوا له على سبيل الاستهزاء (عجل لنا قطنا) أمره الله بالصبر على سفاهتهم، فقال (اصبر على ما يقولون) فإن قيل: أي تعلق بين قوله (اصبر على ما يقولون) وبين قوله (واذكر عبدنا داود)؟ قلنا بيان هذا التعلق من وجوه (الأول) كأنه قيل إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر، فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن

يوم الحشر ، فمن يقدر ما يزداد أحد تعذيبي ثمرة يزداد العذاب الأمر نقصاناً (والثاني) كأنه قيل لمحمد ﷺ لا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك ، فإنهم إذا خالفوك فالأكابر من الأنبياء وافقوك (والثالث) أن الناس في قصة داود قولين : منهم من قال إنها تدل على ذنبه ، ومنهم من قال إنها لا تدل عليه (فمن قال بالأول) كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل لمحمد ﷺ إن حزنك ليس إلا لأن الكفار يكذبونك ، وأما حزن داود فكان بسبب وقوعه في ذلك الذنب ولا شك أن حزنه أشد ، فتأمل في قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما أنت فيه من الحزن (ومن قال بالثاني) قال الخصمان اللذان دخلا على داود كانا من البشر ، وإنما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهما داود ، ومع ذلك لم يتعرض لإيذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ما سيجيء تقرير هذه الطريقة فلا جرم أمر الله تعالى محمداً عليه السلام بأن يقتدي به في حسن الخلق (والخامس) أن قريشاً إنما كذبوا محمداً عليه السلام واستخفوا به لقولهم في أكثر الأمر إنه يتيم فقير . ثم إنه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود ، ثم بين أنه مع ذلك ما سلم من الأحزان والغموم ، ليعلم أن الخلاص عن الحزن لا سبيل إليه في الدنيا (والسادس) أن قوله تعالى (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الأنبياء فكأنه قال (اصبر على ما يقولون) واعتبر بحال سائر الأنبياء ليعلم أن كل واحد منهم كان مشغولاً بهم خاص وحزن خاص ، فحينئذ يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان ، وأن استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا ، وهذه وجوه ذكرناها في هذا المقام ، وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم ، وسيجيء ذكره إن شاء الله تعالى عند الانتهاء إلى تفسير قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الأنبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الإجمال .

(فالقصة الأولى) قصة داود ، واعلم أن مجامع ما ذكره الله تعالى في هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام (فالأول) تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التي توجب سعادة الآخرة والدنيا (والثاني) شرح تلك الواقعة التي وقعت له من أمر الخصمين (والثالث) استخلاف الله تعالى إياه بعد وقوع تلك الواقعة (أما النوع الأول) وهو شرح الصفات التي آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهي عشرة (الأول) قوله لمحمد صلى الله عليه وسلم (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) فأمر محمداً صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتدي في الصبر على طاعة الله بداود ، وذلك تشريف عظيم وإكرام لداود حيث أمر الله أفضل الخلق محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقتدي به في مكارم الأخلاق (والثاني) أنه قال في حقه (عبدنا داود) فوصفه بكونه عبداً له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم ، وذلك غاية التشريف ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمداً عليه السلام ليلة المعراج قال (سبحان الذي أسرى بعبده)

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

ههنا يدل على ذلك التشريف لداود فكان ذلك دليلا على علو درجته أيضاً . قال ووصف الله تعالى الأنبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة (والثالث) قوله (ذا الأيد) أي ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي ، وذلك لأنه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة موجبة للمدح العظيم ، والقوة التي توجب المدح العظيم ليست إلا القدرة على فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه (والأيد) المذكور ههنا كالقوة المذكورة في قوله (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) وقوله تعالى (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة) أي باجتهاد في أداء الأمانة وتشدد في القيام بالدعوة وترك إظهار الوهن والضعف (والأيد) والقوة سواء ، ومنه قوله تعالى (هو الذي أيدك بنصره) وقوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) وقال (والسماء بنيناها بأيد) وعن قتادة أعطي قوة في العبادة وفقهاً في الدين . وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر (الرابع) قوله (إنه أواب) أي أن داود كان رجاعاً في أموره كلها إلى طاعتي والأواب فعال من آب إذا رجع كما قال تعالى (إن إلينا إيابهم) وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فإنه أبلغ من قاتل وضارب (الخامس) .

قوله تعالى ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ﴾

ونظير هذه الآية قوله تعالى (يا جبال أوبي معه والطير) وفيه مباحث :

(البحث الأول) فيه وجوه : (الأول) أن الله سبحانه خلق في جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ومنطقاً وحينئذ صار الجبل مسبحاً لله تعالى ونظيره قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل) فإن معناه أنه تعالى خلق في الجبل عقلا وفهماً ، ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا (الثاني) في التأويل ما رواه القفال في تفسيره أنه يجوز أن يقال إن داود عليه السلام قد أوتي من شدة الصوت وحسنه ما كان له في الجبال دوي حسن ، وما يصغي الطير إليه لحسنه فيكون دوي الجبال وتصويت الطير معه وإصغاؤه إليه تسبيحاً . وذكر محمد بن إسحق أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه مثل صوت داود حتى أنه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يأخذ بأعناقها (الثالث) أن الله سبحانه سخر الجبال حتى أنها كانت تسير إلى حيث يريده داود وجعل ذلك السير تسبيحاً لأنه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته .

(البحث الثاني) قال صاحب الكشاف (يسبحن) في معنى مسبحات ، فإن قالوا هل من فرق بين يسبحن ومسبحات قلنا نعم ، فإن صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد ، وصيغة الاسم تدل على الدوام على ما بينه عبد القاهر النحوي في كتاب دلائل الإعجاز ، إذا ثبت هذا فنقول قوله (يسبحن) يدل على

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ

حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء ، وحالا بعد حال وكأن السامع حاضر تلك الجبال يسمعها تسبح .

(البحث الثالث) قال الزجاج يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وقيل هما بمعنى ، والأول أكثر تقول العرب شرقت الشمس ولما تشرق .

(البحث الرابع) احتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية ، عن أم هانئ قالت « دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى ، وقال يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق » وعن طاوس عن ابن عباس قال « هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن ؟ قالوا لا ، فقرأ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق » وقال كان يصليها داود عليه السلام وقال لم يزل في نفسي شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها في قوله (يسبحن بالعشي والإشراق) .

(الصفة السادسة) من صفات داود عليه السلام قوله تعالى (والطير محشورة كل له أواب(١)) وفيه مباحث :

(البحث الأول) قوله (والطير) معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطير محشورة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما كان داود إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه ، واجتماعها إليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله (فإن قيل) كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع أنه لا عقل لها ، قلنا لا يبعد أن يقال إن الله تعالى كان يخلق لها عقلا حتى تعرف الله فتسبحه حينئذ ، وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام .

(البحث الثاني) قال صاحب الكشاف قوله (محشورة) في مقابلة (يسبحن) إلا أنه ليس في الحشر مثل ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء ، فلا جرم جيء به اسماً لا فعلا ، وذلك أنه لو قيل وسخرنا الطير محشورة يسبحن على تقدير أن الحشر وجد من حاشرها جملة واحدة دل على القدر المذكور والله أعلم .

(البحث الثالث) قرئ (والطير محشورة) بالرفع .

(الصفة السابعة) من صفات داود عليه السلام ، قوله تعالى (كل له أواب) ومعناه كل واحد من الجبال والطير أواب أي رجاع ، أي كلما رجع داود إلى التسبيح جاوبته ، فهذه الأشياء أيضاً كانت ترجع إلى تسبيحاتها ، والفرق بين هذه الصفة وبين ما قبلها أن فيما تقدم علمنا أن الجبال والطير سبحت مع تسبيح داود عليه السلام ، وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير في قوله (كل له أواب) لله تعالى أي كل من داود والجبال والطير لله أواب أي مسبح مرجع للتسبيح .

(الصفة الثامنة) قوله تعالى (وشددنا ملكه) أي قويناه وقال تعالى (سنشد عضدك

وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

بأخيك) وقيل شددنا على المبالغة . وأما الأسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة ، وهي إما الأسباب الدنيوية أو الدينية ، أما الأول فذكروا فيه وجوهاً (الأول) روى الواحدي عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل ، فإذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضي عنكم نبي الله ، وزاد آخرون فذكروا أربعين ألفاً . قالوا وكان أشد ملوك الأرض سلطاناً . وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً ادعى عند داود على رجل أخذ منه بقرة فأنكر المدعى عليه . فقال داود للمدعي أقم البينة فلم يقمها ، فرأى داود في منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فتثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحي بعد ذلك بأن يقتله فأحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله . فقال المدعى عليه صدق الله إني كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود ، فهذه الواقعة شددت ملكه ، وأما الأسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهي الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل .

(الصفة التاسعة) قوله (وآتيناه الحكمة) واعلم أنه تعالى قال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية ، والفضائل النفسانية محصورة في قسمين العلم والعمل ، أما العلم فهو أن تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية ، وأما العمل فهو أن يكون الإنسان آتياً بالعمل الأصلح الأصوب بمصالح الدنيا والآخرة ، فهذا هو الحكمة وإنما سمي هذا بالحكمة لأن اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور وتقويتها وتبعيدها عن أسباب الرخاوة والضعف ، والاعتقادات المطابقة الصحيحة لا تقبل النسخ والنقض فكانت في غاية الإحكام ، وأما الأعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فهي واجبة الرعاية ولا تقبل النقض والنسخ ، فلهذا السبب سميت تلك المعارف وهذه الأعمال بالحكمة .

(الصفة العاشرة) قوله (وفصل الخطاب) واعلم أن أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام (أحدها) ما تكون خالية عن الإدراك والشعور وهي الجمادات والنباتات (وثانيها) التي يحصل لها إدراك وشعور ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها الأحوال التي عرفتها في الأكثر وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الإنسان (وثالثها) الذي يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأحوال المعلومة له ، وذلك هو الإنسان وقدرته على تعريف الغير الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب ، ثم إن الناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير ، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول ، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه ، ومنهم من يكون قادراً على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى

وهل أتاك نبؤا الخصم إذ تسوروا المحراب ﴿٢١﴾ إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ﴿٢٢﴾ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ﴿٢٣﴾ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ﴿٢٤﴾

أقصى الغايات ، وكل من كانت هذه القدرة في حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية في حقه أكمل ، وكل من كانت تلك القدرة في حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف . ولما بين الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التي لداود بقوله : ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ أردفه ببيان كمال حاله في النطق واللفظ والعبارة فقال ﴿ وفصل الخطاب ﴾ وهذا الترتيب في غاية الجلالة ، ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال في كلامه أما بعد ، وأقول حقاً إن الذين يجعلون أمثال هذه الكلمات قد حرموا الوقوف على معاني كلام الله تعالى حرماناً عظيماً(١) والله أعلم . وقول من قال المراد معرفة الأمور التي بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد أيضاً ، لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال ، بحيث لا يختلط شيء بشيء ، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام ، وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام والله أعلم ، وههنا آخر الكلام في الصفات العشرة التي ذكرها الله تعالى في مدح داود عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ﴾ فغفرنا له

(١) يقصد المؤلف بعبارته هذه الذين فسروا فصل الخطاب بأنه أول من قال أما بعد ، فبعدوا عن الفهم وعن الصواب ، وقد روي أن أول من قال أما بعد هو قس بن ساعدة الإيادي الخطيب المشهور .

فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾

ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾

اعلم أن الله تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الأحوال الواقعة في هذه القصة لا يبعث شيء منها كونه عليه السلام مستحقاً للثناء والمدح العظيم .

أما قوله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم) فهو نظير قوله تعالى (هل أتاك حديث موسى) وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ليكون داعياً إلى الإصغاء لها والاعتبار بها ، وأقول الناس في هذه القصة ثلاثة أقوال (أحدها) ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه (وثانيها) دلالتها على الصغيرة (وثالثها) بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة .

فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها أن داود عشق امرأة أوريا ، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته ، وعرضا تلك الواقعة عليه ، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً ، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة .

والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه (الأول) أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجوراً لاستنكف منها ، والرجل الحشوي الخبيث الذي يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه إليها ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه (الثاني) أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته (أما الأول) فأمر منكر قال ﷺ « من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » (وأما الثاني) فمنكر عظيم قال صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وإن أوريا لم يسلم من داود لا في روحه ولا في منكوحه (والثالث) أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة ، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة ، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح ، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة في البيان .

فنقول (أما الصفات الأولى) فهي أنه تعالى أمر محمداً ﷺ بأن يقتدي بداود في المصابرة مع المكابدة ، ولو قلنا إن داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى في إراقة دم امرىء مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمداً أفضل الرسل بأن يقتدي بداود في الصبر على طاعة الله .

(وأما الصفة الثانية) فهي أنه وصفه بكونه عبداً له ، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملاً في موقف العبودية تاماً في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات ، ولو قلنا إن داود عليه السلام اشتغل بتلك الأعمال الباطلة فحينئذ ما كان داود كاملاً

في عبوديته لله تعالى بل كان كاملا في طاعة الهوى والشهوة .

(الصفة الثالثة) هو قوله (ذا الأيد) أي ذا القوة ، ولا شك أن المراد منه القوة في الدين ، لأن القوة في غير الدين كانت موجودة في ملوك الكفار ، ولا معنى للقوة في الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات ، والاجتناب عن المحظورات ، وأي قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة في زوجة المسلم ؟ .

(الصفة الرابعة) كونه أوابا كثير الرجوع إلى الله تعالى ، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفا بالقتل والفجور ؟ .

(الصفة الخامسة) قوله تعالى (إنا سخرنا الجبال معه) أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذه وسيلة إلى القتل والفجور ؟ .

(الصفة السادسة) قوله (والطير محشورة) ، وقيل إنه كان محرماً عليه صيد شيء من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمنا منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه ؟ .

(الصفة السابعة) قوله تعالى (وشددنا ملكه) ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا ، بل المراد أنه تعالى شد ملكه بما يقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة ، والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك ؟ .

(الصفة الثامنة) قوله تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علماً وعملا ، فكيف يجوز أن يقول الله تعالى إنا (آتيناه الحكمة وفصل الخطاب) مع إصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة أخلص أصحابه في الروح والمنكوح ، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب .

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهي عشرة (الأول) قوله (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته في طاعة الله ، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله (وإن له عندنا لزلفى) لائقاً به (الثاني) قوله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض) وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه (أحدها) أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح به أن يقول عقيبه أيها العبد إني فوضت إليك خلافتي ونيابتي ، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر ، فأما جعله نائباً وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق (وثانيها) أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف ، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ، ثم قال بعده (إنا جعلناك خليفة في الأرض) أشعر هذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة ، ومعلوم أن هذا فاسد ، أما لو

ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب وعلى شدة مصابرته على
على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب أن يذكر عقيبه « إنا جعلناك خليفة في الأرض » فثبت أن هذا
الذي نختاره أولى (والثالث) وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام
وتعظيمه ومؤخرتها أيضاً دالة على ذلك ، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى
أن يقال فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله يقتل ويزني ويسرق وقد جعله الله خليفة في
أرضه وصوب أحكامه . وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا ، ومن المعلوم أن
ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب (والرابع) وهو أن القائلين بهذا القول
ذكروا في هذه الرواية أن داود عليه السلام تمنى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين
من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب
من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما
ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء ، فأوحى الله إليه أنك ستبتلى في يوم كذا
فبالغ في الاحتراز ثم وقعت الواقعة ، فنقول أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء
الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعي في قتل النفس بغير الحق والإفراط في العشق
كيف يليق بهذه الحالة . فثبت أن الحكاية التي ذكروها تناقض أولها آخرها (الخامس) أن داود
عليه السلام قال (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا) استثنى الذين
آمنوا عن البغي فلو قلنا إنه كان موصوفاً بالبغي لزم أن يقال إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه وذلك
باطل (السادس) حضرت في بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب
لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك ، فقلت له لا شك أن داود عليه كان من
أكابر الأنبياء والرسل ، ولقد قال الله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) ومن مدحه الله تعالى
بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ في الطعن فيه ، وأيضاً فبتقدير أنه ما كان نبياً فلا شك أنه
كان مسلماً ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تذكروا موتاكم إلا بخير » ثم على تقدير أنا لا نلتفت
إلى شيء من هذه الدلائل إلا أنا نقول إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي
ذكرتموها حقيقية صحيحة فإن روايتها وذكرها لا يوجب شيئاً من الثواب ، لأن إشاعة الفاحشة
إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب ، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة
فاسدة ، فإن ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها ، فصريح العقل يوجب
السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه ، وأن شرح تلك القصة محرم محظور فلما سمع ذلك الملك
هذا الكلام سكت ولم يذكر شيئاً (السابع) أن ذكر هذه القصة ، وذكر قصة يوسف عليه
السلام يقتضي إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرماً لقوله تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع
الفاحشة في الذين آمنوا) (الثامن) لو سعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله « من سعى

فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » وأيضاً لو قصد ذلك لكان ظالماً فكان يدخل تحت قوله (ألا لعنة الله على الظالمين) (التاسع) عن سعيد بن المسيب أن على بن أبى طالب عليه السلام قال « من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين » وهو حد الفرية على الأنبياء ، ومما يقوى هذا أنهم لما قالوا إن المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك ، وأما الرابع فإنه لم يقل بأنى رأيت ذلك العمل بعينى فإن عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لأجل أنهم قذفوه . وإذا كان الحال فى واحد من آحاد الصحابة كذلك ، فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من أكابر الأنبياء عليهم السلام (العاشر) روى أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما فى كتاب الله تعالى فقال لا ينبغى أن يزاد عليها ، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت ، ثم إنه تعالى لم يذكرها لأجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام ، فلا يجوز للعاقل أن يسعى فى هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر فقال عمر (١) سماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، فثبت بهذه الوجوه التى ذكرناها أن القصة التى ذكروها فاسدة باطلة ، فإن قال قائل إن كثيراً من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة ، فكيف الحال فيها ؟ فالجواب الحقيق أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى ، وأيضاً فالأصل براءة الذمة ، وأيضاً فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى ، وأيضاً طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا ، وأيضاً فنحن نعلم بالضرورة أنا بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لم لم تسعوا فى تشهير هذه الواقعة ؟ وأما بتقدير كونها باطلة فإن علينا فى ذكرها أعظم العقاب ، وأيضاً فقال عليه السلام « إذا علمت مثل الشمس فاشهد » وههنا لم يحصل العلم ولا الظن فى صحة هذه الحكاية ، بل الدلائل القاهرة التى ذكرناها قائمة توجب أن لا تجوز الشهادة بها ، وأيضاً كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الأكثرون المحققون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد ، وأيضاً إذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقى الرجوع إلى الدلائل التى ذكرناها فهذا تمام الكلام فى هذه القصة .

أما الاحتمال الثانى : وهو أن نحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة ، فنقول فى كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه : (الأول) أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (الثانى) قالوا إنه وقع بصره عليها فمال قلبه إليها وليس له فى هذا ذنب البتة ، أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب ، وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضاً ذنباً لأن هذا الميل ليس فى وسعه ، فلا يكون مكلفاً به ، بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذياً عظيماً بسبب

(١) ليس [illegible] على عمر [illegible] ، والخبر [illegible] عمر بن الخطاب [illegible]

قتله لأجل أنه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو أنه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل (والثالث) أنه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم في هذا المعنى مألوفة معروفة ألا ترى أن الأنصار كانوا يساوون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهي أم سليمان فقيل له هذا وإن كان جائزاً في ظاهر الشريعة، إلا أنه لا يليق بك، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل والأولى.

وأما الاحتمال الثالث: وهو أن هذه القصة على وجه لا يلزم إلحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام، بل يوجب إلحاق أعظم أنواع المدح والثناء به، وهو أن نقول روي أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذباً، فقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض إلى آخر القصة، وليس في لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به في إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة (أحدها) قوله (وظن داود أنما فتناه) (وثانيها) قوله تعالى (فاستغفر ربه) (وثالثها) قوله (وأناب) (ورابعها) قوله (فغفرنا له ذلك) ثم نقول، وهذه الألفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكروه، وتقريره من وجوه (الأول) أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق، وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم، إلا أنه مال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلباً لمرضاة الله، قال وكانت هذه الواقعة هي الفتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء والامتحان، ثم إنه استغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم (والثاني) أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه، إلا أنه ندم على ذلك الظن، وقال لما لم تقم دلالة ولا أمارة على أن الأمر كذلك، فبئسما عملت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الرديء، فكان هذا هو المراد من قوله (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) منه فغفر الله له ذلك (الثالث) أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله، كما قال في حق محمد ﷺ (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب، أي رجع إلى الله تعالى في طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل، وقوله (فغفرنا له ذلك) أي غفرنا له ذلك الذنب لأجل احترام داود وتعظيمه، كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) أن معناه أن الله تعالى يغفر لك ولأجلك ما تقدم من ذنب أمتك (الرابع) هب أنه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه، لكن لا نسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة، فلم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة إنما حصلت، لأنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني، فإنه

لما قال (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) حكم عليه بكونه ظالماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة ، لكون هذا الحكم مخالفاً للصواب . فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة . إلا أن هذا من باب ترك الأفضل والأولى(١) فثبت بهذه البيانات أنا إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه ، فإنه لا يلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام . بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه .
ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه (الأول) أن الأصل في حال المسلم البعد عن المناهي ، لا سيما وهو رجل من أكابر الأنبياء والرسل (والثاني) أنه أحوط (والثالث) أنه تعالى قال في أول الآية لمحمد ﷺ (واصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) فإن قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا (إنه ساحر كذاب) واستهزؤا به حيث قالوا (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) فقال تعالى في أول الآية : اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود . فهذا الذكر إنما يحسن إذا كان داود عليه السلام قد صبر على إيذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب . وهذا المعنى إنما يحصل إذا حملنا الآية على ما ذكرناه ، أما إذا حملناها على ما ذكروه صار الكلام متناقضاً فاسداً (والرابع) أن تلك الرواية إنما تتمشى إذا قلنا الخصمان كانا ملكين . ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة وما بغى أحدهما على الآخر كان قولهما خصمان بغى بعضنا على بعض كذباً . فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين (أحدهما) إسناد الكذب إلى الملائكة (والثاني) أن يتوسل بإسناد الكذب إلى الملائكة إلى إسناد أفحش القبائح إلى رجل كبير من أكابر الأنبياء . فأما إذا حملنا الآية على ما ذكرنا استغنينا عن إسناد الكذب إلى الملائكة ، وعن إسناد القبيح إلى الأنبياء . فكان قولنا أولى . فهذا ما عندنا في هذا الباب . والله أعلم بأسرار كلامه . ونرجع الآن إلى تفسير الآيات . أما قوله (وهل أتاك نبأ الخصم) قال الواحدي : الخصم مصدر خصمته أخصمه خصماً ، ثم يسمى به الاثنان والجمع ولا يثنى ولا يجمع . يقال هما خصم وهم خصم ، كما يقال هما عدل وهم عدل . والمعنى ذوا خصم وذوو خصم . والمراد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام . وقوله تعالى (إذ تسوروا المحراب) يقال تسورت السور تسوراً إذا علوته . ومعنى (تسوروا المحراب) أي أتوه من سوره وهو أعلاه . يقال تسور فلان الدار إذا أتاها من قبل سورها . وأما المحراب فالمراد منه البيت الذي كان داود يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه . وسمي ذلك البيت بالمحراب لاشتماله على المحراب ، كما يسمى الشيء باسم أشرف أجزائه . وههنا مسألة من علم أصول الفقه ، وهي أن أقل الجمع اثنان عند بعض الناس . وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية ، لأنه تعالى ذكر صيغة الجمع في هذه الآيات في

(١) [illegible]

أربعة مواضع (أحدها) قوله تعالى (إذ تسوروا المحراب) ، (وثانيها) قوله (إذ دخلوا) ، (وثالثها) قوله (منهم) ، (ورابعها) قوله (قالوا لا تخف) فهذه الألفاظ الأربعة كلها صيغ الجمع ، وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا خصمان ، قالوا فهذه الآية تدل على أن أقل الجمع اثنان (والجواب) لا يمتنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعاً كثيرين ، لأنا بينا أن الخصم إذا جعل اسماً فإنه لا يثنى ولا يجمع ، ثم قال تعالى (إذ دخلوا على داود) والفائدة فيه أنهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه ، فلما قال (إذ دخلوا عليه) دل على أنهم بعد التسور دخلوا عليه ، قال الفراء : وقد يجاء بإذ مرتين ويكون معناهما كالواحد ، كقولك ضربتك إذ دخلت علي إذ اجترأت ، مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحداً ، ثم قال تعالى (ففزع منهم) والسبب أن داود عليه السلام لما رآهما قد دخلوا عليه لا من الطريق المعتاد ، علم أنهم إنما دخلوا عليه للشر ، فلا جرم فزع منهم ، ثم قال تعالى (قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ خصمان خبر مبتدأ محذوف ، أي نحن خصمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ههنا قولان (الأول) أنهما كانا ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذي أقدم عليه (والثاني) أنهما كانا إنسانين دخلا عليه للشر والقتل ، فظنا أنهما يجدانه خالياً ، فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر ، وأما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين في قولهما خصمان ، فإنه ليس بين الملائكة خصومة ، ولكانا كاذبين في قولهما (بغى بعضنا على بعض) ولكانا كاذبين في قولهما (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة) فثبت أنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى (لا يسبقونه بالقول) ولقوله (ويفعلون ما يؤمرون) أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا إن الملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب ، وأجيب عن هذا الجواب بأن ما ذكرتم يقتضي العدول عن ظاهر اللفظ ، ومعلوم أنه على خلاف الأصل ، أما إذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعا هذا الحديث الباطل ، فحينئذ لزم إسناد الكذب إلى شخصين فاسقين فكان هذا أولى من القول الأول والله أعلم ، وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه (الأول) اتفاق أكثر المفسرين عليه (والثاني) أنه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية في حال تعبده فيجب أن يكون ذلك من الملائكة (الثالث) أن قوله تعالى (قالوا لا تخف) كالدلالة على كونهما ملكين لأن من هو من رعيته لا يكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته (الرابع) أن قولهما (ولا تشطط) كالدلالة على كونهما ملكين لأن أحداً من رعيته لا يتجاسر أن يقول له لا تظلم ولا تتجاوز عن الحق ، واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر ، ولا حاجة إلى الجواب ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (بغى بعضنا على بعض) أي تعدى وخرج عن الحد يقال بغى الجرح

إذا أفرط وجمعه وانتهى إلى الغاية . ويقال يخب امرأة إذا زنت . لأن الزنا كبيرة منكرة . قال تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ثم قال : فاحكم بيننا بالحق) معنى الحكم إحكام الأمر في إمضاء تكليف الله عليهما في الواقعة . ومنه حكمة الدابة لأنها تمنع من الجماح . ومنه بناء محكم إذا كان قوياً . وقوله (بالحق) أي بالحكم الحق وهو الذي حكم الله به (ولا تشطط) يقال شطط الرجل إذا بعد . ومنه قوله : شطت الدار إذا بعدت . قال تعالى (لقد قلنا إذاً شططاً) أي قولا بعيداً عن الحق ، فقوله (ولا تشطط) أي لا تبعد في هذا الحكم عن الحق . ثم قال (واهدنا إلى سواء الصراط) وسواء الصراط هو وسطه . قال تعالى (فاطلع فرآه في سواء الجحيم) ووسط الشيء أفضله وأعدله . قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وأقول إنهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث عبارات (أولها) قولهم فاحكم بالحق (وثانيها) قولهم (ولا تشطط) وهي نهي عن الباطل (وثالثها) قولهم (واهدنا إلى سواء الصراط) يعني يجب أن يكون سعيك في إيجاد هذا الحق . وفي الاحتراز عن هذا الباطل أن تردنا من الطريق الباطل إلى الطريق الحق . وهذا مبالغة تامة في تقرير المطلوب . واعلم أنهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل ، فقال (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف (أخي) بدل من هذا أو خبر لقوله (إن) والمراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة ، لقوله تعالى (وإن كثيراً من الخلطاء) وكل واحدة من هذه الأخوات توجب الامتناع من الظلم والاعتداء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (تسع وتسعون) بفتح التاء ونعجة بكسر النون ، وهذا من اختلاف اللغات نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة وهي الأنثى من العقبان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الليث : النعجة الأنثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية ، والجمع النعجات ، والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ عبد الله (تسع وتسعون نعجة أنثى) وهذا يكون لأجل التأكيد كقوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد) ، ثم قال (أكفلنيها وعزني في الخطاب) قال صاحب الكشاف (أكفلنيها) حقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي (وعزني) غلبني ، يقال عزه يعزه ، والمعنى جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أرده به ، وقرىء وعازني من المعازة ، وهي المغالبة ، واعلم أن الذين قالوا إن هذين الخصمين كانا من الملائكة زعموا أن المقصود من ذكر النعاج التمثيل ، لأن داود كان تحته تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ، فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل .

ثم قال تعالى (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) أي بسؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه ، ويروى أنه قال له إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى الأنف والجبهة

فقال يا داود أنت أحق أن تضرب منك هذا وهذا ، وأنت فعلت كيت وكيت . ثم نظر داود فلم ير أحداً فعرف الحال . فإن قيل كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه ؟ قلنا ذكروا فيه وجوهاً (الأول) قال محمد بن جرير : لما فرغ الخصم الأول من كلامه نظر داود إلى الخصم الذي لم يتكلم وقال لئن صدق لقد ظلمته ، (والثاني) أن هذا الحكم كان مشروطاً بشرط كونه صادقاً في دعواه (والثالث) قال ابن الأنباري : لما ادعى أحد الخصمين اعترف الثاني فحكم داود عليه السلام ، ولم يذكر الله تعالى ذلك الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه . كما تقول أمرتك بالتجارة فكسبت تريد فاتجرت فكسبت ، وقال تعالى (أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) أي فضرب فانفلق ، والثالث أن يكون التقدير أن الخصم الذي هذا شأنه يكون قد ظلمك .

ثم قال تعالى (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض) قال الليث خليط الرجل مخالطه . وقال الزجاج : الخلطاء الشركاء ، فإن قيل لم خص الخلطاء ببغي بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء قد يفعلون ذلك ، والجواب لا شك أن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة ، وذلك لأنهما إذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل ما يملكه من الأشياء النفيسة إذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه ، فيفضي ذلك إلى زيادة المخاصمة والمنازعة . فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغي والعدوان ، ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن مخالطة هؤلاء لا تكون إلا لأجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية ، فلا جرم مخالطتهم لا توجب المنازعة . وأما الذين تكون مخالطتهم لأجل حب الدنيا لابد وأن تصير مخالطتهم سبباً لمزيد البغي والعدوان . واعلم أن هذا الاستثناء يدل على أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يبغي بعضهم على بعض ، فلو كان داود عليه السلام قد بغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لا يكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ومعلوم أن ذلك باطل ، فثبت أن قول من يقول المراد من واقعة النعجة قصة داود قول باطل .

ثم قال تعالى (وقليل ما هم) واعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير في القرآن ، قال تعالى (وقليل من عبادي الشكور) وقال داود عليه السلام في هذا الموضع (وقليل ما هم) وحكى تعالى عن إبليس أنه قال (ولا تجد أكثرهم شاكرين) وسبب القلة أن الدواعي إلى الدنيا كثيرة ، وهي الحواس الباطنة والظاهرة وهي عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع سبعة عشر واتفقن على جذب جوهر البدن ، فكلها تدعو إلى الخلق والدنيا واللذة الحسية . وأما الداعي إلى الحق والدين فليس إلا العقل واستيلاء القوة الحسية والشهوية على الخلق أكثر من استيلاء القوة العقلية عليهم ، فلهذا السبب وقعت القلة في جانب أهل الخير والكثرة في جانب أهل الشر ، قال صاحب الكشاف وما في قوله (وقليل ما هم) للإبهام وفيه تعجب من قلتهم ، قال وإذا أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرىء القيس : وحديث ما على قصره . وانظر هل بقي له معنى قط .

ثم قال تعالى (وظن داود أنما فتناه) قالوا معناه وعلم داود أنما فتناه أي امتحناه ، فقالوا

والسبب الذي أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا أن داود عليه السلام لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ، ثم صعدا إلى السماء قبل وجهه ، فعلم داود أن الله ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك وإنما جاز حمل لفظ الظن على العلم لأن العلم الاستدلالي يشبه الظن مشابهة عظيمة ، والمشابهة علة لجواز المجاز . وأقول هذا الكلام إنما يلزم إذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما إذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العلم ، بل للقائل أن يقول إنه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والإنابة .

أما قوله (فاستغفر ربه) أي سأل الغفران من ربه ، ثم ههنا وجهان إن قلنا بأنه قد صدرت زلة منه ، حملنا هذا الاستغفار عليها ، وإن لم نقل به ففيه وجوه (الأول) أن القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله ، وإنه كان سلطاناً شديد القهر عظيم القوة ، ثم إنه مع أنه مع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول العزم في قلبه عفا عنهم ولم يقل لهم شيئاً قرب الأمر من أن يدخل في قلبه شيء من العجب ، فاستغفر ربه عن تلك الحالة وأناب إلى الله ، واعترف بأن إقدامه على ذلك الخير ما كان إلا بتوفيق الله ، فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر (الثاني) لعله هم بإيذاء القوم ، ثم قال إنه لم يدل دليل قاطع على أن هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ثم استغفر عن ذلك الهم (الثالث) لعل القوم تابوا إلى الله وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم لأجل أن يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع إلى الله ، فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه ، وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة ، والقرآن مملوء من أمثال هذه الوجوه ، وإذا كان اللفظ محتملا لما ذكرناه ولم يقم دليل قطعي ولا ظني على التزام المنكرات التي يذكرونها ، فما الذي يحملنا على التزامها والقول بها ، والذي يؤكد أن الذي ذكرناه أقرب وأقوى أن يقال ختم الله هذه القصة بقوله (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ومثل هذه الخاتمة إنما تحسن في حق من صدر منه عمل كثير في الخدمة والطاعة ، وتحمل أنواعاً من الشدائد في المواظبة والانقياد . أما إذا كان المذكور السابق هو الإقدام على الجرم والذنب فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به . قال مالك بن دينار إذا كان يوم القيامة أتي بمنبر رفيع ويوضع في الجنة . ويقال يا داود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا والله أعلم . بقي ههنا مباحث : (فالأول) قرئ فتناه وفتناه على أن الألف ضمير الملكين (الثاني) المشهور أن الاستغفار إنما كان بسبب قصة النعجة والنعاج ، وقيل أيضاً إنما كان بسبب أن حكم لأحد الخصمين قبل أن سمع كلام الثاني وذلك غير جائز (الثالث) قوله (وخر راكعا وأناب) يدل على حصول الركوع ، وأما السجود فقد ثبت بالأخبار وكذلك البكاء الشديد في مدة أربعين يوماً ثبت بالأخبار (الرابع) أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة قال لأنه توبة نبي فلا توجب سجدة التلاوة (الخامس) استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية في سجود التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود .

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ، وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام في شرح القصة أردفها ببيان أنه تعالى فوض إلى داود خلافة الأرض ، وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور في تلك القصة ، لأن من البعيد جداً أن يوصف الرجل بكونه ساعياً في سفك دماء المسلمين ، راغباً في انتزاع أزواجهم منهم ثم يذكر عقيبه أن الله تعالى فوض خلافة الأرض إليه ، ثم نقول في تفسير كونه خليفة وجهان (الأول) جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء في الدعاء إلى الله تعالى ، وفي سياسة الناس لأن خليفة الرجل من يخلفه ، وذلك إنما يعقل في حق من يصح عليه الغيبة ، وذلك على الله محال (الثاني) إنا جعلناك مالكاً للناس ونافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ، ومنه يقال خلفاء الله في أرضه ، وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة في حق الله ، فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم في تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم .

ثم قال تعالى (فاحكم بين الناس بالحق) واعلم أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع ، لأن الإنسان الواحد لا ينتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة حتى أن هذا يحرث ، وذلك يطحن ، وذلك يخبز ، وذلك ينسج ، وهذا يخيط ، وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولاً بمهم ، وينتظم من

أعمال الجميع مصالح الجميع . فثبت أن الإنسان مدني بالطبع، وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولابد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس . ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق ، وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك ، أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية انتظمت مصالح العالم ، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه . فهذا هو المراد من قوله (فاحكم بين الناس بالحق) يعني لابد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية . وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب .

أما المقام الأول : وهو أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره أن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية ، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات ، لأنهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر .

أما المقام الثاني : وهو أن الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فالأمر فيه ظاهر لأن الإنسان إذا عظم ألفه بهذه الجسمانيات ونسي بالكلية أحوال الروحانيات ، فإذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق ، ودخل دياراً ليس له بأهل تلك الديار إلف وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار ، فكأنه فارق المحبوب ووصل إلى المكروه ، فكان لا محالة في أعظم العناء والبلاء ، فثبت أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ، وثبت أن الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب ، وهذا بيان في غاية الكمال .

ثم قال تعالى (بما نسوا يوم الحساب) يعني أن السبب الأول لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب ، لأنه لو كان متذكراً ليوم الحساب لما أعرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد ، ولما صار مستغرقاً في هذه اللذات الفاسدة

روي عن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا يكتب عليه معصية ؟ فقال يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ؟ ثم تلا هذه الآية (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ثم قال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ونظيره قوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) وقوله تعالى (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج الجبائي بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالقاً لأعمال العباد قال لأنها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل فلما بين تعالى أنه (ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا) دل هذا على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد . ومثله قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وعند المجبرة أنه خلق الكافر لأجل أن يكفر والكفر باطل وقد خلق الباطل . ثم أكد تعالى ذلك بأن قال (ذلك ظن الذين كفروا) أي كل من قال بهذا القول فهو كافر ، فهذا تصريح بأن مذهب المجبرة عين الكفر . واحتج أصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لكل مابين السموات والأرض ، وأعمال العباد حاصلة بين السماء والأرض ، فوجب أن يكون الله تعالى خالقاً لها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة . وذلك لأنه تعالى خلق الخلق في هذا العالم ، فإما أن يقال إنه خلقهم للإضرار أو للإنفاع أو لا للإنفاع ولا للإضرار والأول باطل لأن ذلك لا يليق بالرحيم الكريم ، والثالث أيضاً باطل لأن هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين ، فلم يبق إلا أن يقال إنه خلقهم للإنفاع ، فنقول وذلك الإنفاع ، إما أن يكون في حياة الدنيا أو في حياة الآخرة ، والأول باطل لأن منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة ، وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ، ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية ، وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة . واعلم أن هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة ، وقد لخصناها في أول سورة يونس بالاستقصاء . فلا سبيل إلى التكرير فثبت بما ذكرنا أنه تعالى (ما خلق السماء والأرض وما بينهما باطلا) وإذا لم يكن خلقهما باطلا كان القول بالحشر والنشر لازماً ، وأن كل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكا في حكمة الله في خلق السماء والأرض ، وهذا هو المراد من قوله (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ولما بين الله تعالى على سبيل الإجمال أن إنكار الحشر والنشر يوجب الشك في حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل ، فقال (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وتقريره أنا نرى في الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته في الفقر والزمانة وأنواع البلاء ، ونرى الكفرة والفساق في الراحة والغبطة ، فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصي ، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم ، وإذا كان ذلك قادحاً في الحكمة ، ثبت أن إنكار الحشر والنشر يوجب إنكار حكمة الله .

ثم قال تعالى ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة دلت الآية على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن لأجل الخير والرحمة والهداية ، وهذا يفيد أمرين (أحدهما) أن أفعال الله معللة برعاية المصالح (والثاني) أنه تعالى أراد الإيمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول إنه أراد الكفر من الكفار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في تقرير نظم هذه الآيات فنقول : للسائل أن يسأل فيقول إنه تعالى حكى في أول السورة عن المستهزئين من الكفار أنهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة ، وقالوا (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب ، بل قال (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) ومعلوم أنه لا تعلق لذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق ، ثم إنه تعالى أطنب في شرح قصة داود ، ثم أتبعه بقوله (وما خلقنا السماء والأرض) ومعلوم أنه لا تعلق لمسألة إثبات حكمة الله بقصة داود ، ثم لما ذكر إثبات حكمة الله وفرع عليه إثبات أن القول بالحشر والنشر حق ، ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ، ولا تعلق لهذا الفصل بالحكايات المتقدمة ، وإذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولا متباينة لا تعلق لبعضها بالبعض ، فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتاباً شريفاً فاضلا ؟ هذا تمام السؤال (والجواب) أن نقول : أن العقلاء قالوا من ابتلى بخصم جاهل مصر متعصب ، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار ، وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ، لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد ، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ، وأن يعرض في كلام آخر أجنبي عن المسألة الأولى بالكلية ويطنب في ذلك الكلام الأجنبي ، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى ، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي المسألة الأولى ، فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول ، فإن ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة ، فإذا سلمها ، فحينئذ يتمسك بها في إثبات المطلوب الأول ، وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعاً مفحماً ، إذا عرفت هذا فنقول إن الكفار بلغوا في إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) فقال تعالى قطع الكلام معهم في هذه المسألة ، واشرع في كلام آخر أجنبي بالكلية عن هذه المسألة ، وهي قصة داود عليه السلام ، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر ، ثم إنه تعالى أطنب في شرح تلك القصة ، ثم قال في آخر القصة (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) وكل من سمع هذا قال نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق ، ثم كأنه تعالى قال : وأنا لا آمرك بالحق فقط ، بل أنا مع أني رب العالمين لا أفعل إلا بالحق ولا أقضي بالباطل ، فهنا الخصم يقول نعم ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق ، فعند هذا يقال لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل ، لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر ، لأنه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحاً على المسلم في إيصال الخيرات إليه ، وذلك ضد الحكمة وعين الباطل ، فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الإلزام القاطع على منكري الحشر والنشر إيراداً لا يمكنهم الخلاص عنه ، فصار ذلك الخصم الذي يبلغ في إنكار المعاد إلى حد الاستهزاء منقطعاً ملزماً بهذا

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

الطريق ، ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة في الإلزام في القرآن ، لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل ، فقال (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكروا أولوا الألباب) فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم ، حيث يراه في ظاهر الحال مقروناً بسوء الترتيب ، وهو في الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب ، فهذا ما حضرنا في تفسير هذه الآيات ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ، إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ، فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ، ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ .

واعلم أن هذا هو القصة الثانية وقوله (نعم العبد) فيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ نقول المخصوص بالمدح في (نعم العبد) محذوف ، فقيل هو سليمان ، وقيل داود ، والأول أولى لأنه أقرب المذكورين ، ولأنه قال بعده (إنه أواب) ولا يجوز أن يكون المراد هو داود ، لأن وصفه بهذا المعنى قد تقدم في الآية المتقدمة حيث قال (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) فلو قلنا لفظ الأواب ههنا أيضاً صفة داود لزم التكرار ، ولو قلنا إنه صفة لسليمان لزم كون الابن شبيهاً لأبيه في صفات الكمال في العبودية ، فكان هذا أولى .

(البحث الثاني) أنه قال أولا (نعم العبد) ثم قال بعده (إنه أواب) وهذه الكلمة للتعليل ، فهذا يدل على أنه إنما كان (نعم العبد) لأنه كان أواباً ، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى في أكثر الأوقات وفي أكثر المهمات كان موصوفاً بأنه (نعم العبد) وهذا هو الحق الذي لا شبهة فيه ، لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شيء من الخيرات إلا بإعانة الله تعالى ، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فكان أواباً ، فثبت أن كل من كان أواباً وجب أن يكون (نعم العبد) .

أما قوله (إذ عرض عليه) ففيه وجوه (الأول) التقدير (نعم العبد) هو إذ كان من أعماله أنه فعل كذا (الثاني) أنه ابتداء كلام ، والتقدير اذكر يا محمد إذ عرض عليه كذا وكذا ، والعشي

هو من حين العصر إلى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر إليها ويقف على كيفية أحوالها .
والصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين (أولهما) الصافنات ، قال صاحب الصحاح : الصافن الذي
يصف قدميه ، وفي الحديث « كنا إذا صلينا خلفه فرفع رأسه من الركوع قمنا صفونا » أي قمنا
صافين أقدامنا ، وأقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس (والصفة الثانية)
للخيل في هذه الآية الجياد ، قال المبرد : والجياد جمع جواد وهو الشديد الجرى ، كما أن الجواد
من الناس هو السريع البذل ، فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتي وقوفها وحركتها . أما
حال وقوفها فوصفها بالصفون ، وأما حال حركتها فوصفها بالجودة ، يعني أنها إذا وقفت كانت
ساكنة مطمئنة في مواقفها على أحسن الأشكال ، فإذا جرت كانت سراعاً في جريها ، فإذا طلبت
لحقت ، وإذا طلبت لم تلحق ، ثم قال تعالى (فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي) وفي
تفسير هذه الآية وجوه (الأول) أن يضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل أنبت
حب الخير عن ذكر ربي (والثاني) أن أحببت بمعنى ألزمت ، والمعنى أني ألزمت حب الخيل
عن ذكر ربي . أي عن كتاب ربي وهو التوراة ، لأن ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح
فكذلك في التوراة ممدوح (والثالث) أن الإنسان قد يحب شيئاً لكنه يحب أن لا يحبه كالمريض
الذي يشتهي ما يزيد في مرضه ، والأب الذي يحب ولده الردىء ، وأما من أحب شيئاً ، وأحب
أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله أحببت حب الخير بمعنى أحببت حبي لهذه الخيل .

ثم قال (عن ذكر ربي) بمعنى أن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره
لا عن الشهوة والهوى ، وهذا الوجه أظهر الوجوه .

ثم قال تعالى (حتى توارت) أقول الضمير في قوله (حتى توارت) ، وفي قوله (ردوها)
يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الشمس ، لأنه جرى ذكر ماله تعلق بها وهو العشي
ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الصافنات ، ويحتمل أن يكون الأول متعلقاً بالشمس
والثاني بالصافنات ، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك ، فهذه احتمالات أربعة لا مزيد عليها
(فالأول) أن يعود الضميران معاً إلى الصافنات ، كأنه قال حتى توارت الصافنات بالحجاب
ردوا الصافنات علي ، والاحتمال (الثاني) أن يكون الضميران معاً عائدين إلى الشمس كأنه قال حتى
توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم لما اشتغل بالخيل فاتته
صلاة العصر ، فسأل الله أن يرد الشمس فقوله (ردوها علي) إشارة إلى طلب رد الشمس ، وهذا
الاحتمال عندي بعيد والذي يدل عليه وجوه (الأول) أن الصافنات مذكورة تصريحاً ، والشمس
غير مذكورة وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر (الثاني) أنه قال (إني
أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب) وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان
عليه السلام كان يقول إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ، وكان يعيد هذه الكلمات إلى أن

توارت بالحجاب ، فلو قلنا المراد حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة إلى أن غابت عن عينه وذلك مناسب ، ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه أنه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر إلى وقت المغرب ، وهذا في غاية البعد (الثالث) أنا لو حكمنا بعود الضمير في قوله حتى توارت إلى الشمس وحملنا اللفظ على أنه ترك صلاة العصر كان هذا منافياً لقوله (أحببت حب الخير عن ذكر ربي) فإن تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسي الصلاة ولما ترك ذكر الله (الرابع) أنه بتقدير أنه عليه السلام بقي مشتغلا بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر ، فكان ذلك ذنباً عظيماً وجرماً قوياً ، فالأليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة في إظهار التوبة ، فأما أن يقول على سبيل التهور والعظمة لإله العالم ورب العالمين ردوها علي بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الأدب عقيب ذلك الجرم العظيم ، فهذا لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير ، فكيف يجوز إسناده إلى الرسول المطهر المكرم ؟ (الخامس) أن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها علي ولا يقول ردوها علي ، فإن قالوا إنما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله (ردوها) لفظ مشعر بأعظم أنواع الإهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم (السادس) أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهداً لكل أهل الدنيا ولو كان الأمر كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وإظهاره ، وحيث لم يقل أحد ذلك علمنا فساده (السابع) أنه تعالى قال (إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد) ثم قال (حتى توارت بالحجاب) وعود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى ، وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد ، وأما العشي فأبعدهما فكان عود ذلك الضمير إلى الصافنات أولى ، فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله (حتى توارت بالحجاب) على تواري الشمس وأن حمل قوله (ردوها علي) على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام في غاية البعد عن النظم .

ثم قال تعالى (فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) أي فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها ، قال الأكثرون معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها أي قطعها ، قالوا إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقرباً إلى الله تعالى ، وعندي أن هذا أيضاً بعيد ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه لو كان معنى مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) قطعها ، وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق ، أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح (الثاني) القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة (فأولها) ترك الصلاة (وثانيها) أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسي الصلاة ، وقال صلى الله عليه وسلم «حب الدنيا رأس كل خطيئة» (وثالثها)

أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة البتة (ورابعها) أنه خاطب رب العالمين بقوله (ردوها علي) وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس . (وخامسها) أن أتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه « نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكله » ، فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها (وسادسها) أن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وأن الكفار لما بلغوا في السفاهة إلى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر يا محمد على سفاهتهم (واذكر عبدنا داود) وذكر قصة داود ، ثم ذكر عقيبها قصة سليمان ، وكان التقدير أنه تعالى قال لمحمد عليه السلام اصبر يا محمد على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان ، وهذا الكلام إنما يكون لائقاً لو قلنا إن سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة ، وصبر على طاعة الله ، وأعرض عن الشهوات واللذات ، فأما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقاً بهذا الموضع ، فثبت أن كتاب الله تعالى ينادي على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والإفساد والإبطال بل التفسير المطابق الحق لألفاظ القرآن والصواب أن نقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في دين محمد ﷺ ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربي ، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها . والغرض من ذلك المسح أمور (الأول) تشريفاً لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو (الثاني) أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه (الثالث) أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً ، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات ، وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها ، وليس لهم في إثباتها شبهة فضلا عن حجة ، فإن قيل فالجمهور فسروا الآية بتلك الوجوه ، فما قولك فيه ؟ فنقول لنا ههنا مقامان :

(المقام الأول) أن ندعي أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها ، وقد ظهر والحمد لله أن الأمر كما ذكرناه ، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه .

(المقام الثاني) أن يقال هب أن لفظ الآية لا يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس ، فما قولك

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

فيه وجوابها أن الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة الدلائل القوية، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب . قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾.

اعلم أن هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام، واختلفوا في المراد من قوله { ولقد فتنا سليمان } ولأهل الحشو والرواية فيه قول، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر، أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات:

(الأولى) قالوا إن سليمان بلغه خبر مدينة في البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها، وأخذ بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها وكانت تبكي أبداً على أبيها فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشياً مع جواريها يسجدن لها، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله تعالى، وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوماً، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان، وقال يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان فأتى عليه الطير والجن والإنس، وتغيرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف وإذا قال

أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ، ثم أخذ يخدم الصيادين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين يوماً عدد ما عبد الوثن في بيته ، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلن ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة . وقيل بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً لله ، ورجع إليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر .

(والرواية الثانية) للحشوية أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها ، فقال له آصف إنك لمفتون بذنبك فتب إلى الله .

(والرواية الثالثة) لهم قالوا إن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس ؟ فقال أرني خاتمك أخبرك فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه ، ثم ذكر الحكاية إلى آخرها .

إذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله (ولقد فتنا سليمان) أن الله تعالى ابتلاه وقوله (وألقينا على كرسيه جسداً) هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه .

(والرواية الرابعة) أنه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وألقي على سريره شيطان عقوبة له .

واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه (الأول) أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء ، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع ، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال ، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية (الثاني) أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد ، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم ، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى (والثالث) كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان ؟ ولا شك أنه قبيح (الرابع) لو قلنا إن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه ، وإن لم يأذن فيه ألبتة فالذنب على تلك المرأة ، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه ؟ فأما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء :

(الأول) أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين إن عاش صار مسلطاً علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقي ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب (الثاني) روي عن النبي ﷺ أنه قال « قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في

سبيل الله ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره ، فوالذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرساناً أجمعون » فذلك قوله (ولقد فتنا سليمان) (الثالث) قوله (ولقد فتنا سليمان) بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه ، (وألقينا على كرسيه) منه (جسداً) وذلك لشدة المرض . والعرب تقول في الضعيف إنه لحم على وضم وجسم بلا روح (ثم أناب) أي رجع إلى حال الصحة . فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة البتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة (الرابع) أقول لا يبعد أيضاً أن يقال إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه ، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي ، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف ، وأعاده إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب .

أما قوله تعالى (قال رب اغفر لي) فاعلم أن الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية ، فإنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة ، ويمكن أن يجاب عنه بأن الإنسان لا ينفك البتة عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأنهم أبداً في مقام هضم النفس ، وإظهار الذلة والخضوع ، كما قال ﷺ « إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى والله أعلم .

ثم قال تعالى (وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم بعده طلب المملكة ، وأيضاً الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم توسل به إلى طلب المملكة ، ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضاً لأنه تعالى حكى عنه أنه قال (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين) وقال لمحمد ﷺ (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك) فإن قيل قوله عليه السلام (ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) مشعر بالحسد ، والجواب عنه أن القائلين بأن الشيطان استولى على مملكته قالوا معنى قوله لا ينبغي لأحد من بعدي ، هو أن يعطيه الله ملكاً لا تقدر الشياطين أن يقوموا مقامه البتة ، فأما المنكرون لذلك فقد أجابوا عنه من وجوه (الأول) أن الملك هو القدرة فكان المراد أقدرني على أشياء لا يقدر عليها غيري البتة ، ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتي ورسالتي ، والدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال عقيبه (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) فكون الريح جارياً بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب ، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته فكان قوله (هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) هو هذا المعنى لأن شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها ، فقوله (لا ينبغي لأحد من بعدي) يعني لا يقدر

أحد على معارضته (والوجه الثاني) في الجواب أنه عليه السلام لما مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا صائرة إلى الغير بإرث أو بسبب آخر، فسأل ربه ملكاً لا يمكن أن ينتقل منه إلى غيره، وذلك الذي سأله بقوله (ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) أي ملكاً لا يمكن أن ينتقل عني إلى غيري (الوجه الثالث) في الجواب أن الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة عليها. فكأنه قال: يا إلهي أعطني مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية، حتى أحترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابي أكمل وأفضل (الوجه الرابع) من الناس من يقول إن الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب، لأن هذه اللذات حاضرة وسعادات الآخرة نسيئة، والنقد يصعب بيعه بالنسيئة، فقال سليمان أعطني يارب مملكة تكون أعظم الممالك الممكنة للبشر، حتى أني أبقى مع تلك القدرة الكاملة في غاية الاحتراز عنها ليظهر للخلق أن حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى (الوجه الخامس) أن من لم يقدر على الدنيا يبقى ملتفت القلب إليها فيظن أن فيها سعادات عظيمة وخيرات نافعة، فقال سليمان يارب العزة أعطني أعظم الممالك حتى يقف الناس على كمال حالها، فحينئذ يظهر للعقل أنه ليس فيها فائدة، وحينئذ يعرض القلب عنها ولا يلتفت إليها، وأشتغل بالعبودية ساكن النفس غير مشغول القلب بعلائق الدنيا، ثم قال (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) رخاء أي رخوة لينة وهي من الرخاوة والريح إذا كانت لينة لا تزعزع ولا تمتنع عليه كانت طيبة، فإن قيل أليس أنه تعالى قال في آية أخرى (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره) فما الجواب من وجهين (الأول) لا منافاة بين الآيتين فإن المراد أن تلك الريح كانت في قوة الرياح العاصفة إلا أنها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة فكانت رخاء (والوجه الثاني) من الجواب أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى ولا منافاة بين الأمرين وقوله تعالى (حيث أصاب) أي قصد وأراد، وحكى الأصمعي عن العرب أنهم يقولون أصاب الصواب فأخطأ الجواب، وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما، فقال أين تصيبان؟ فقالا هذا مطلوبنا، وبالجملة فالمقصود أنه تعالى جعل الريح مسخرة له حتى صارت تجري بأمره على وفق إرادته، ثم قال (والشياطين كل بناء وغواص) قال صاحب الكشاف "الشياطين" عطف على الريح و"كل بناء" بدل من الشياطين وآخرين عطف على قوله (كل بناء) وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ، وقوله (مقرنين) يقال قرنهم في الحبال والتشديد للكثرة (والأصفاد) الأغلال واحدها صفد والصفد العطية أيضاً. قال النابغة:

ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد

يعني بهذا الصفد القيد فكل من شددته شداً وثيقاً فقد صفدته، وكل من أعطيته عطاء جزيلاً فقد أصفدته، وههنا بحث، وهو أن هذه الآيات دالة على أن الشياطين لها قوة عظيمة، وبسبب تلك القوة قدروا على بناء الأبنية القوية التي لا يقدر عليها البشر، وقدروا

وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ

على الغوص في البحار، واحتاج سليمان عليه السلام إلى قيدهم، ولقائل أن يقول إن هذه الشياطين إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة، فإن كان الأول وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة، إذ لو جاز أن لا نراهم مع كثافة أجسادهم، فليجز أن تكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة ولا نراها ولا نسمعها، وذلك دخول في السفسطة، وإن كان الثاني وهو أن أجسادهم ليست كثيفة، بل لطيفة رقيقة، فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفاً بالقوة الشديدة، وأيضاً لزم أن تتفرق أجسادهم وأن تتمزق بسبب الرياح القوية، وأن يموتوا في الحال، وذلك يمنع من وصفهم ببناء الأبنية القوية. وأيضاً الجن والشياطين إن كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة، فلم لا يقتلون العلماء والزهاد في زماننا؟ ولم لا يخربون ديار الناس؟ مع أن المسلمين مبالغون في إظهار لعنهم وعداوتهم، وحيث لم يحس شيء من ذلك، علمنا أن القول بإثبات الجن والشياطين ضعيف.

واعلم أن أصحابنا يجوزون أن تكون أجسامهم كثيفة مع أنا لا نراها، وأيضاً لا يبعد أن يقال أجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون، ولكنها صلبة بمعنى أنها لا تقبل التفرق والتمزق. وأما الجبائي فقد سلم أنها كانت كثيفة الأجسام، وزعم أن الناس كانوا يشاهدونهم في زمن سليمان. ثم إنه لما توفي سليمان عليه السلام، أمات الله أولئك الجن والشياطين، وخلق نوعاً آخر من الجن والشياطين تكون أجسامهم في غاية الرقة، ولا يكون لهم شيء من القوة، والموجود في زماننا من الجن والشياطين ليس إلا من هذا الجنس.

ثم قال تعالى {هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب} وفيه قولان (الأول) قال ابن عباس رضي الله عنهما: أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب، أي ليس عليك حرج فيما أعطيت وفيما أمسكت (الثاني) أن هذا في أمر الشياطين خاصة، والمعنى هؤلاء الشياطين المسخرون عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فحل عنه، واحبس من شئت منهم في العمل بغير حساب.

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان في الدنيا، أردفه بإنعامه عليه في الآخرة، فقال {وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب} وقد سبق تفسيره.

قوله تعالى: ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب. اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب،

وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ .

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليه أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بأنواع البلاء ، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار ، كأن الله تعالى قال : يا محمد اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاهاً من داود وسليمان عليهما السلام ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : أيوب عطف بيان ، وإذ بدل اشتمال منه (أني مسني) أي بأني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب ، وقرىء (بنصب) بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمها ، فالنصب والنصب كالرشد والرشد ، والعدم والعدم ، والسقم والسقم ، والنصب على أصل المصدر ، والنصب تثقيل نصب ، والمعنى واحد ، وهو التعب والمشقة والعذاب والألم .

واعلم أنه كان قد حصل عنده نوعان من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات ، والألم الشديد في الجسم ، ولما حصل هذان النوعان لا جرم ، ذكر الله تعالى لفظين وهما النصب والعذاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ للناس في هذا الموضع قولان (الأول) أن الآلام والأسقام الحاصلة في جسمه إنما حصلت بفعل الشيطان (الثاني) أنها إنما حصلت بفعل الله ، والعذاب المضاف في هذه الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة ، وإلقاء الخواطر الفاسدة .

وأما القول الأول : فتقريره ما روي أن إبليس سأل ربه ، فقال هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني ؟ فقال الله : نعم عبدي أيوب ، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عياناً ولا يلتفت إليه ، فقال يارب إنه قد امتنع علي فسلطني على ماله ، وكان يجيئه ويقول له : هلك من مالك كذا وكذا ، فيقول الله أعطى والله أخذ ، ثم يحمد الله ، فقال يارب إن أيوب لا يبالي بماله فسلطني على ولده ، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية ، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه ، فقال يارب لا يبالي بماله وولده فسلطني على جسده ، فأذن فيه ، فنفخ في جلد أيوب ، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه ، فمكث في ذلك البلاء سنين ، حتى صار بحيث استقذره أهل بلده ، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد ، فجاء الشيطان إلى امرأته ، وقال لو أن زوجك استعان بي لخلصته من هذا البلاء ، فذكرت المرأة ذلك لزوجها ، فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة ، وعند هذه الواقعة قال

(إني مسني الشيطان بنصب وعذاب) فأجاب الله دعاءه وأوحى إليه (أن اركض برجلك) فأظهر الله من تحت رجله عيناً باردة طيبة فاغتسل منها ، فأذهب الله عنه كل داء في ظاهره وباطنه ، ورد عليه أهله وماله .

والقول الثاني : أن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام ، والدليل عليه وجوه (الأول) أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان ، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان ، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات ، فقد حصل بفعل الشيطان ، وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطي الحياة والموت والصحة والسقم ، هو الله تعالى (الثاني) أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء ، ولم لا يخرب دورهم ، ولم لا يقتل أولادهم (الثالث) أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر إلا على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة ، وذلك يدل على قول من يقول إن الشيطان هو الذي ألقاه في تلك الأمراض والآفات . فإن قال قائل : لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان ؟ قلنا فإذا كان لابد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى ، فأي فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك ؟ بل الحق أن المراد من قوله (إني مسني الشيطان بنصب وعذاب) أنه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطلة كان يلقيه في أنواع العذاب والعناء ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوهاً (الأول) أن علته كانت شديدة الألم ، ثم طالت مدة تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته ، ولم يبق له شيء من الأموال البتة ، وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت ، ثم بلغت نفرة الناس عنه إلى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم ، والشيطان كان يذكره النعم التي كانت والآفات التي حصلت ، وكان يحتال في دفع تلك الوساوس ، فلما قويت تلك الوساوس في قلبه خاف وتضرع إلى الله ، وقال (إني مسني الشيطان بنصب وعذاب) لأنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد . (الثاني) أنها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط في قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال (إني مسني الشيطان) . (الثالث) قيل إن الشيطان لما قال لامرأته لو أطاعني زوجك أزلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك ، فغلب على ظنه أن الشيطان طمع في دينه فشق ذلك عليه فتضرع إلى الله تعالى وقال (إني مسني الشيطان بنصب وعذاب) . (الرابع) روي عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه بقي أيوب في البلاء ثماني عشرة سنة حتى رفضه القريب والبعيد إلا رجلين ، ثم قال أحدهما لصاحبه لقد أذنب أيوب ذنباً ما أتى به أحد من العالمين ، ولولاه ما وقع في مثل هذا البلاء ، فذكروا ذلك

لأيوب عليه السلام، فقال لا أدري ما تقولان غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في الحق» (الخامس) قيل إن امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجيء به إلى أيوب، فاتفق أنهم ما استخدموها البتة وطلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت، ثم في اليوم الثاني فعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة. وكان أيوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة، فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية في قلبه واشتد غمه، فعند ذلك قال (إني مسني الشيطان بنصب وعذاب)، (السادس) قال في بعض الأيام يارب لقد علمت ما اجتمع على أمران إلا آثرت طاعتك، ولما أعطيتني المال كنت للأرامل قيما، ولابن السبيل معيناً، ولليتامى أباً! فنودي من غمامة يا أيوب ممن كان ذلك التوفيق؟ فأخذ أيوب التراب ووضعه على رأسه، وقال منك يارب ثم خاف من الخاطر الأول فقال (مسني الشيطان بنصب وعذاب) وقد ذكروا أقوالا أخرى، والله أعلم بحقيقة الحال. وسمعت بعض اليهود يقول إن لموسى بن عمران عليه السلام كتاباً مفرداً في واقعة أيوب، وحاصل ذلك الكتاب أن أيوب كان رجلا كثير الطاعة لله تعالى مواظباً على العبادة، مبالغاً في التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله. ثم إنه وقع في البلاء الشديد والعناء العظيم، فهل كان ذلك لحكمة أم لا؟ فإن كان ذلك لحكمة فمن المعلوم أنه ما أتى بجرم في الزمان السابق حتى يجعل ذلك العذاب في مقابلة ذلك الجرم، وإن كان ذلك لكثرة الثواب فالإله الحكيم الرحيم قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الآلام الطويلة والأسقام الكريهة. وحينئذ لا يبقى في تلك الأمراض والآفات فائدة. وهذه كلمات ظاهرة جلية وهي دالة على أن أفعال ذي الجلال منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد، والحق الصريح (أنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون).

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لفظ الآية يدل على أن ذلك النصب والعذاب إنما حصل من الشيطان ثم ذلك العذاب على القول الأول عبارة عما حصل في بدنه من الأمراض. وعلى القول الثاني عبارة عن الأحزان الحاصلة في قلبه بسبب إلقاء الوساوس، وعلى التقديرين فيلزم إثبات الفعل للشيطان، وأجاب أصحابنا رحمهم الله بأنا لا ننكر إثبات الفعل للشيطان لكنا نقول فعل العبد مخلوق لله تعالى على التفصيل المعلوم

أما قوله تعالى (اركض برجلك) فالمعنى أنه لما شكى من الشيطان، فكأنه سأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية فأجابه الله إليه بأن قال له (اركض برجلك) والركض هو الدفع القوي بالرجل، ومنه ركضك الفرس، والتقدير قلنا له اركض برجلك. قيل إنه ضرب برجله تلك الأرض فنبعت عين فقيل (هذا مغتسل بارد وشراب) أي هذا ماء تغتسل به فيبرأ باطنك، وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل فيه وشرب منه. والمفسرون قالوا نبعت له

عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه بإذن الله ، وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها

ثم قال تعالى (ووهبنا له أهله) فقد قيل هم عين أهله وزيادة مثلهم ، وقيل غيرهم مثلهم ، (والأول) أولى لأنه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ، ثم اختلفوا فقال بعضهم معناه أزلنا عنهم السقم فعادوا أصحاء ، وقال بعضهم بل حضروا عنده بعد أن غابوا عنه واجتمعوا بعد أن تفرقوا ، وقال بعضهم بل تمكن منهم وتمكنوا منه فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة .

أما قوله (ومثلهم معهم) فالأقرب أنه تعالى متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك ، وقال الحسن رحمه الله : المراد بهبة الأهل أنه تعالى أحياهم بعد أن هلكوا .

ثم قال (رحمة منا) أي إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة ، لا على سبيل اللزوم .

ثم قال (وذكرى لأولي الألباب) يعني سلطنا البلاء عليه أولاً فصبر ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه إلى الآلاء والنعماء ، تنبيهاً لأولي الألباب على أن من صبر ظفر ، والمقصود منه التنبيه على ما وقع ابتداء الكلام به وهو قوله لمحمد (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) وقالت المعتزلة قوله تعالى (رحمة منا وذكرى لأولي الألباب) يعني إنما فعلناها لهذه الأغراض والمقاصد ، وذلك يدل على أن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح والكلام في هذا الباب قد مر غير مرة .

أما قوله تعالى (وخذ بيدك ضغثاً) فهو معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك . واعلم أن هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه ، وفي الخبر أنه حلف على أهله ، ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله حلف عليها ، ويبعد ما قيل إنها رغبته في طاعة الشيطان ، ويبعد أيضاً ما روي أنها قطعت الذوائب عن رأسها لأن المضطر إلى الطعام يباح له ذلك بل الأقرب أنها خانته في بعض المهمات ، وذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برئ ، ولما كانت حسنة الخدمة له لا جرم حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها ، وهذه الرخصة باقية ، وعن النبي ﷺ أنه أتى بمخدج خبث بأمه فقال « خذوا عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة » .

ثم قال تعالى (إنا وجدناه صابراً) فإن قيل كيف وجده صابراً وقد شكى إليه ، والجواب من وجوه : (الأول) أنه شكى من الشيطان إليه وما شكى منه إلى أحد (الثاني) أن الألم حين كان على الجسد لم يذكر شيئاً فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين فتضرع (الثالث) أن الشيطان عدو ، والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدح في الصبر ، ثم قال (نعم العبد إنه أواب)

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (٤٨)

وهذا يدل على أن تشريف نعم العبد إنما حصل لكونه أواباً ، وسمعت بعضهم قال لما نزل قوله تعالى (نعم العبد) في حق سليمان عليه السلام تارة ، وفي حق أيوب عليه السلام أخرى عظم الغم في قلوب أمة محمد ﷺ ، وقالوا إن قوله تعالى (نعم العبد) في حق سليمان تشريف عظيم ، فإن احتجنا إلى اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان حتى نجد هذا التشريف لم نقدر عليه ، وإن احتجنا إلى تحمل بلاء مثل أيوب لم نقدر عليه ، فكيف السبيل إلى تحصيله . فأنزل الله تعالى قوله (نعم المولى ونعم النصير) والمراد أنك إن لم تكن (نعم العبد) فأنا (نعم المولى) ، وإن كان منك الفضول ، فمني الفضل ، وإن كان منك التقصير ، فمني الرحمة والتيسير .

قوله تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن كثير (عبدنا) على الواحد وهي قراءة ابن عباس ، ويقول إن قوله (عبدنا) تشريف عظيم ، فوجب أن يكون هذا التشريف مخصوصاً بأعظم الناس المذكورين في هذه الآية وهو إبراهيم ، وقرأ الباقون (عبادنا) قالوا لأن غير إبراهيم من الأنبياء قد أجرى عليه هذا الوصف فجاء في عيسى (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) وفي أيوب (نعم العبد) وفي نوح (إنه كان عبداً شكوراً) فمن قرأ عبدنا جعل إبراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا وهي إسحق ويعقوب ، ومن قرأ عبادنا جعل إبراهيم وإسحق ويعقوب عطف بيان لعبادنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تقدير الآية كأنه تعالى قال (فاصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) إلى أن قال (واذكر عبدنا إبراهيم) أي واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين ألقي في النار ، وصبر إسحق للذبح ، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره ، ثم قال (أولي الأيدي والأبصار) ، واعلم أن اليد آلة لأكثر الأعمال والبصر آلة لأقوى الإدراكات ، فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر ، إذا عرفت هذا فنقول النفس الناطقة الإنسانية لها قوتان عاملة وعالمة ، أما القوة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله ، وأما القوة العالمة فأشرف ما يصدر عنها معرفة

هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا

الله ، وما سوى هذين القسمين من الأعمال والمعارف فكالعبث والباطل . فقوله (أولي الأيدي والأبصار) إشارة إلى هاتين الحالتين .

قوله تعالى : ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ (بخالصة) بالتنوين وبالإضافة فمن نون كان التقدير (أخلصناهم) أي جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهي ذكرى الدار ، ومن قرأ بالإضافة فالمعنى بما خلص من ذكرى الدار ، يعني أن ذكرى الدار قد تكون لله وقد تكون لغير الله ، فالمعنى إنا أخلصناهم بسبب ما خلص من هذا الذكر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في ذكرى الدار وجوه : (الأول) المراد أنهم استغرقوا في ذكرى الدار الآخرة وبلغوا في هذا الذكر إلى حيث نسوا الدنيا (الثاني) المراد حصول الذكر الجميل الرفيع لهم في الدار الآخرة (الثالث) المراد أنه تعالى أبقى لهم الذكر الجميل في الدنيا وقبل دعاءهم في قوله (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) .

ثم قال تعالى (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) أي المختارين من أبناء جنسهم والأخيار جمع خير أو خير على التخفيف كأموات في جمع ميت أو ميت ، واحتج العلماء بهذه الآية في إثبات عصمة الأنبياء قالوا لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم أخياراً على الإطلاق ، وهذا يعم حصول الخيرية في جميع الأفعال والصفات بدليل صحة الاستثناء وبدليل دفع الإجمال .

ثم قال (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) وهم قوم آخرون من الأنبياء تحملوا الشدائد في دين الله ، وقد ذكرنا الكلام في شرح هذه الأسماء وفي صفات هؤلاء الأنبياء في سورة الأنبياء وفي سورة الأنعام ، فلا فائدة في الإعادة ، وههنا تم الكلام في قصص الأنبياء في هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم قاصرات الطرف أتراب ، هذا ما توعدون ليوم الحساب ،

لرزقنا ماله من نفاد (٥٤)

﴿ إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾ .

اعلم أن في قوله (ذكر) وجهين (الأول) أنه تعالى إنما شرح ذكر أحوال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لأجل أن يصبر محمد عليه السلام على تحمل سفاهة قومه فلما تمم بيان هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقاً آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال ، وأراد أن يميز أحد البابين عن الآخر ، لاجرم قال (هذا ذكر) ، ثم شرع في تقرير الباب الثاني فقال (وإن للمتقين) كما أن المصنف إذا تم كلاماً قال هذا باب ، ثم شرع في باب آخر ، وإذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر قال هذا وقد كان كيت وكيت ، والدليل عليه أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال (هذا وإن للطاغين) (والوجه الثاني) في التأويل ، أن المراد هذا شرف وذكر جميل لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام يذكرون به أبداً ، والأول هو الصحيح .

أما قوله (وإن للمتقين لحسن مآب) .

فاعلم أنه تعالى لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبي ﷺ بأن وصفوه بأنه ساحر كذاب ، وقالوا له على سبيل الاستهزاء (ربنا عجل لنا قطنا) فعند هذا أمر محمداً بالصبر على تلك السفاهة ، وبين أن ذلك الصبر لازم من وجهين (الأول) أنه تعالى لما بين أن الأنبياء المتقدمين صبروا على المكاره والشدائد ، فيجب عليك أن تقتدي بهم في هذا المعنى (الثاني) أنه تعالى بين في هذه الآية أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا ، وكل ذلك يوجب الصبر على تكاليف الله تعالى ، وهذا نظم حسن وترتيب لطيف .

أما قوله تعالى (وإن للمتقين لحسن مآب) المآب ، المرجع . واحتج القائلون بقدم الأرواح بهذه الآية ، وبكل آية تشتمل على لفظ الرجوع ووجه الاستدلال ، أن لفظ الرجوع إنما يصدق لو كانت هذه الأرواح موجودة قبل الأجساد ، وكانت في حضرة جلال الله ثم تعلقت بالأبدان ، فعند انفصالها عن الأبدان يسمى ذلك رجوعاً (وجوابه) أن هذا إن دل فإنما يدل على أن الأرواح كانت موجودة قبل الأبدان ، ولا يدل على قدم الأرواح .

ثم قال تعالى (جنات عدن) وهو بدل من قوله (لحسن مآب) ثم قال (مفتحة لهم الأبواب) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في تأويل هذا اللفظ وجوهاً (الأول) قال الفراء : معناه مفتحة لهم أبوابها ، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة ، تقول العرب : مررت برجل حسن الوجه ، فالألف واللام في الوجه بدل من الإضافة (والثاني) قال الزجاج : المعنى (مفتحة لهم الأبواب) منها (الثالث) قال صاحب الكشاف : (الأبواب) بدل من الضمير ، وتقديره مفتحة

من الإعراب . كقولك ضرب زيد اليد والرجل ، وهو من بدل الاشتمال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ (جنات عدن مفتحة) بالرفع على تقدير أن يكون قوله (جنات عدن) مبتدأ و(مفتحة) خبره ، وكلاهما خبر مبتدأ محذوف ، أي هو (جنات عدن مفتحة لهم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أنه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة في هذه الآية أشياء (الأول) أحوال مساكنهم ، فقوله (جنات عدن) يدل على أمرين (أحدهما) كونها جنات وبساتين (والثاني) كونها دائمة آمنة من الانقضاء .

وفي قوله (مفتحة لهم الأبواب) وجوه (الأول) أن يكون المعنى أن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها وحيوه بالسلام ، فيدخل كذلك محفوفاً بالملائكة على أعز حال وأجمل هيئة ، قال تعالى (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) (الثاني) أن تلك الأبواب كلما أرادوا انفتاحها انفتحت لهم ، وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم (الثالث) المراد من هذا الفتح ، وصف تلك المساكن بالسعة ، ومسافرة العيون فيها ، ومشاهدة الأحوال اللذيذة الطيبة .

ثم قال تعالى (متكئين فيها يدعون فيها) وفيه مباحث .

﴿ الأول ﴾ أنه تعالى ذكر في هذه الآية كونهم متكئين في الجنة ، وذكر في سائر الآيات كيفية ذلك الاتكاء ، فقال في آية (على الأرائك متكئون) وقال في آية أخرى (متكئين على رفرف خضر) .

﴿ البحث الثاني ﴾ قوله (متكئين فيها) حال قدمت على العامل فيها وهو قوله (يدعون فيها) والمعنى يدعون في الجنات (متكئين فيها) ثم قال (بفاكهة كثيرة وشراب) والمعنى بألوان الفاكهة وألوان الشراب ، والتقدير بفاكهة كثيرة وشراب كثير ، والسبب في ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة ، فرغبهم الله تعالى فيه .

ولما بين تعالى أمر المسكن وأمر المأكول والمشروب ذكر عقيبه أمر المنكوح ، فقال (وعندهم قاصرات الطرف) وقد مر تفسيره في سورة والصافات ، وبالجملة فالمعنى (كونهن قاصرات الطرف) عن غيرهم مقصورات القلب على محبتهم ، وقوله (أتراب) أي على سن واحد ، ويحتمل كون الجواري أتراباً ، ويحتمل كونهن أتراباً للأزواج ، قال القفال : والسبب في اعتبار هذه الصفة ، أنهن لما تشابهن في الصفة والسن والحلية كان الميل إليهن على السوية ، وذلك يقتضي عدم الغيرة .

ثم قال تعالى (هذا ما توعدون ليوم الحساب) يعني أن الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة ، ثم إنه تعالى أخبر عن دوام هذا الثواب فقال (إن هذا لرزقنا ما له من نفاد) .

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ (٥٩) قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ (٦١) وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ (٦٤)

قوله تعالى : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ، وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين ، وصف بعده عقاب الطاغين ، ليكون الوعيد مذكوراً عقيب الوعد ، والترهيب عقيب الترغيب .

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال أهل النار أنواعاً (فالأول) مرجعهم ومآبهم ، فقال (هذا وإن للطاغين لشر مآب) وهذا في مقابلة قوله (وإن للمتقين لحسن مآب) فبين تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال المتقين . واختلفوا في المراد بالطاغين ، فأكثر المفسرين حملوه على الكفار ، وقال الجبائي : إنه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفاراً أو لم يكونوا كذلك ، واحتج الأولون بوجوه (الأول) أن قوله (لشر مآب) يقتضي أن يكون مآبهم شراً من مآب غيرهم ، وذلك لا يليق إلا بالكفار (الثاني) أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا (أتخذناهم سخرياً) وذلك لا يليق إلا بالكفار ، لأن الفاسق لا يتخذ المؤمن سخرياً (الثالث) أنه اسم ذم ، والاسم المطلق محمول على الكامل ، والكامل في الطغيان هو الكافر ، واحتج الجبائي على صحة قوله بقوله تعالى

(إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى) وهذا يدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل في حق صاحب الكبيرة ، ولأن كل من تجاوز عن تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى . إذا عرفت هذا فنقول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى أن الذين طغوا وكذبوا رسلي لهم شر مآب ، أي شر مرجع ومصير ، ثم قال (جهنم يصلونها) والمعنى أنه تعالى لما حكم بأن الطاغين لهم شر مآب فسره بقوله (جهنم يصلونها) ثم قال (فبئس المهاد) وهو كقوله (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) شبه الله ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم .

ثم قال تعالى (هذا فليذوقوه حميم وغساق) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فيه وجهان (الأول) أنه على التقديم والتأخير ، والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه (الثاني) أن يكون التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه . ثم يبتدئ فيقول : حميم وغساق .

﴿المسألة الثانية﴾ الغساق بالتخفيف والتشديد فيه وجوه (الأول) أنه الذي يغسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين إذا سال دمعها ، وقال ابن عمر هو القيح الذي يسيل منهم يجتمع فيسقونه (الثاني) قيل الحميم يحرق بحره ، والغساق يحرق ببرده ، وذكر الأزهري : أن الغاسق البارد ، ولهذا قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار (الثالث) أن الغساق المنتن حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة في المشرق لأنتنت أهل المغرب ، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لأنتنت أهل المشرق (الرابع) قال كعب : الغساق عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية .

﴿المسألة الثالثة﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم غساق بتشديد السين حيث كان والباقون بالتخفيف . قال أبو علي الفارسي الاختيار التخفيف لأنه إذا شدد لم يخل من أن يكون اسماً أو صفة ، فإن كان اسماً فالأسماء لم تجيء على هذا الوزن إلا قليلا ، وإن كان صفة فقد أقيم مقام الموصوف والأصل أن لا يجوز ذلك .

ثم قال تعالى (وآخر من شكله أزواج) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ أبو عمرو (وأخر) بضم الألف على جمع أخرى أي أصناف أخر من العذاب ، وهو قراءة مجاهد والباقون آخر على الواحد أي عذاب آخر . أما على القراءة الأولى فقوله وأخر أي ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق ، أي من مثله في الشدة والفظاعة . أزواج أي أجناس ، وأما على القراءة الثانية فالتقدير وعذاب أو مذوق آخر ، وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروباً أو صفة للثلاثة وهم حميم وغساق وآخر من شكله . قال صاحب الكشاف : وقرئ من شكله بالكسر وهي لغة ، وأما الغنج فبالكسر لا غير .

واعلم أنه تعالى لما وصف مسكن الطاغين ومأكولهم حكى أحوالهم الذين كانوا أحباء لهم

في الدنيا أولاً ، ثم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا ثانياً (أما الأول) فهو قوله (هذا فوج مقتحم معكم) واعلم أن هذا حكاية كلام رؤساء أهل النار يقوله بعضهم لبعض بدليل أن ما حكي بعد هذا من أقوال الأتباع وهو قوله (قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا) . وقيل إن قوله (هذا فوج مقتحم معكم) كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم ، وقوله (لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار) كلام الرؤساء ، وقوله (هذا فوج مقتحم معكم) أي هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم في الجهل والضلال ، ومعنى اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم ، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها ، والقحمة الشدة .

وقوله تعالى (لا مرحباً بهم) دعاء منهم على أتباعهم ، يقول الرجل لمن يدعو له مرحباً أي أتيت رحباً في البلاد لا ضيقاً أو رحبت بلادك رحباً ، ثم تدخل عليه كلمة لا في دعاء السوء ، وقوله (بهم) بيان للمدعو عليهم أنهم صالوا النار تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها) قالوا أي الأتباع (بل أنتم لا مرحباً بكم) يريدون أن الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به ، وعللوا ذلك بقولهم (أنتم قدمتموه لنا) والضمير للعذاب أو لصليهم ، فإن قيل ما معنى تقديمهم العذاب لهم؟ قلنا الذي أوجب التقديم هو عمل السوء ، قال تعالى (وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم) إلا أن الرؤساء لما كانوا هم السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم ، والضمير في قوله (قدمتموه) كناية عن الطغيان الذي دل عليه قوله (وإن للطاغين لشر مآب) وقوله (فبئس القرار) أي بئس المستقر والمسكن جهنم . ثم قالت الأتباع (ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً) أي مضاعفاً ومعناه ذا ضعف ونظيره قوله تعالى (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً) وكذلك قوله تعالى (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب) فإن قيل كل مقدار يفرض من العذاب فإن كان بقدر الاستحقاق لم يكن مضاعفاً ، وإن كان زائداً عليه كان ظلماً وإنه لا يجوز ، قلنا المراد منه قوله عليه السلام « ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » والمعنى أنه يكون أحد القسمين عذاب الضلال ، والثاني عذاب الإضلال والله أعلم .

وههنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحباباً لهم في الدنيا ، وأما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا فهو قوله (وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار) يعني أن الكفار إذا نظروا إلى جوانب جهنم [illegible] يقولون (ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار) يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه بهم وسموهم من الأشرار ، إما بمعنى الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى ، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشراراً ثم قالوا (أتخذناهم سخرياً) وفيه مسائل :

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (من الأشرار اتخذناهم) بوصل ألف (اتخذناهم) والباقون بفتحها على الاستفهام ، قال أبو عبيدة وبالوصل نقرأ لأن الاستفهام متقدم في قوله (ما لنا لا نرى رجالا) ، ولأن المشركين لا يشكون في اتخاذهم المؤمنين في الدنيا سخريا ، لأنه تعالى قد أخبر عنهم بذلك في قوله (فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري) فكيف يحسن أن يستفهموا عن شيء علموه ؟ أجاب الفراء عنه بأن قال هذا من الاستفهام الذي معناه التعجب والتوبيخ ، ومثل هذا الاستفهام جائز عن الشيء المعلوم . أما وجه قول من ألحق الهمزة للاستفهام أنه لا بد من المصير إليه ليعادل قوله (اتخذناهم) بأم في قوله (أم زاغت عنهم) فإن قيل فما الجملة المعادلة لقوله (أم زاغت) على القراءة الأولى ؟ قلنا إنها محذوفة والمعنى المقصود دونهم أم زاغت عنهم الأبصار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع (سخريا) بضم السين والباقون بكسرها . وقيل هما بمعنى واحد وقيل بالكسر هو الهزء وبالضم هو التذليل والتسخير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا في نظم الآية على قولين بناء على القراءتين المذكورتين أما القراءة على سبيل الإخبار فالتقدير ما لنا لا نراهم حاضرين لأجل أنهم لحقارتهم تركوا ، أو لأجل أنهم زاغت عنهم الأبصار ، ووقع التعبير عن حقارتهم بقولهم (اتخذناهم سخريا) وأما القراءة على سبيل الاستفهام ، فالتقدير لأجل أنا قد اتخذناهم سخريا وما كانوا كذلك فلم يدخلوا النار ، أم لأجل أنه زاغت عنهم الأبصار . واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرة قال إن ذلك الذي حكينا عنهم لحق لا بد وأن يتكلموا به ، ثم بين أن الذي حكيناه عنهم ما هو فقال (تخاصم أهل النار) وإنما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصما لأن قول الرؤساء (لا مرحبا بهم) وقول الأتباع (بل أنتم لا مرحبا بكم) من باب الخصومة .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ، ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى فى أول السورة أن محمداً ﷺ لما دعا الناس إلى أنه لا إله إلا إله واحد ، وإلى أنه رسول مبين من عند الله ، وإلى أن القول بالقيامة حق ، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب واستهزءوا بقوله . ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين (الأول) ليصير ذلك حاملا لمحمد ﷺ على التأسى بالأنبياء عليهم السلام فى الصبر على سفاهة القوم (والثانى) ليصير ذلك رادعاً للكفار على الإصرار على الكفر والسفاهة وداعياً إلى قبول الإيمان . ولما تمم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر وهو شرح نعيم أهل الثواب وشرح عقاب أهل العقاب . فلما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة فى أول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث ، فقال قل يا محمد إنما أنا منذر ولا بد من الإقرار بأنه ما من إله إلا الله الواحد القهار . فإن الترتيب الصحيح أن تذكر شبهات الخصوم أولا ويجاب عنها ثم تذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب ، فكذا هنا أجاب الله تعالى عن شبهتهم ونبه على فساد كلماتهم ، ثم ذكر عقيبه ما يدل على صحة هذه المطالب ، لأن إزالة ما لا ينبغى مقدمة على إثبات ما ينبغى ، وغسل اللوح من النقوش الفاسدة مقدم على كتب النقوش الصحيحة فيه ، ومن نظر فى هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة إلى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم .

أما قوله (قل إنما أنا منذر) يعنى أبلغ أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد ، وأحوال ثواب من أقر بها ، وكما بدأ فى أول السورة بأدلة التوحيد حيث حكى عنهم أنهم قالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) فكذلك بدأ هنا بتقرير التوحيد فقال (وما من إله إلا الله الواحد القهار) وفى هذه الكلمة إشارة إلى الدليل الدال على كونه منزهاً عن الشريك والنظير ، وبيانه أن الذى يجعل شريكا له فى الإلهية ، إما أن يكون موجوداً قادراً على الإطلاق على التصرف فى العالم أو لا يكون كذلك ، بل يكون جماداً عاجزاً (والأول) باطل لأنه لو كان شريكه قادراً على الإطلاق لم يكن هو قادراً قاهراً ، لأن بتقدير أن يريد هو شيئاً ويريد شريكه ضد ذلك الشىء لم يكن حصول أحد الأمرين أولى من الآخر ، فيفضى إلى اندفاع كل واحد منهما بالآخر ، وحينئذ لا يكون قادراً قاهراً بل كان عاجزاً ضعيفاً ، والعاجز لا يصلح للإلهية . فقوله (إلا الله الواحد القهار) إشارة إلى أن كونه قهاراً يدل على كونه واحداً (وأما الثانى) وهو أن يقال إن الذى جعل شريكاً له لا يقدر على شىء البتة مثل هذه الأوثان ، فهذا أيضاً فاسد لأن صريح العقل يحكم بأن عبادة الإله القادر القاهر أولى من عبادة الجماد الذى لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً فقوله (وما من إله إلا الله الواحد القهار) يدل على هذه الدلائل . واعلم أن كونه سبحانه قهاراً مشعر بالترهيب والتخويف ، فلما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال (رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار) فكونه رباً مشعر بالتربية والإحسان والكرم والجود ، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب . وهذا الموجود هو الذى تجب عبادته ، لأنه هو الذى يخشى عقابه ويرجى فضله وثوابه .

ولنذكر طريقة أخرى في تفسير هذه الآيات ، فنقول إنه تعالى ذكر من صفاته في هذا الموضع خمسة الواحد والقهار والرب والعزيز والغفار . أما كونه واحداً فهو الذي وقع الخلاف فيه بين أهل الحق وبين المشركين واستدل تعالى على كونه واحداً بكونه قهاراً وقد بينا وجه هذه الدلالة إلا أن كونه قهاراً وإن دل على إثبات الوحدانية إلا أنه يوجب الخوف الشديد فلهذا تعالى ذكر صفات ثلاثة دالة على الرحمة والفضل والكرم (أولها) كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما وهذا إنما تتم معرفته بالنظر في آثار حكمة الله تعالى في خلق السموات والأرض والعناصر الأربعة والمواليد الثلاثة ، وذلك بحر لا ساحل له فإذا تأملت في آثار حكمته ورحمته في خلق هذه الأشياء عرفت حينئذ تربيته للكل وذلك يفيد الرجاء العظيم (وثانيها) كونه عزيزاً والفائدة في ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومربي وكريم إلا أنه غير قادر على كل المقدورات ، فأجاب عنه بأنه عزيز أي قادر على كل الممكنات فهو يغلب الكل ولا يغلبه شيء (وثالثها) كونه غفاراً والفائدة في ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومحسن ولكنه يكون كذلك في حق المطيعين المخلصين في العبادة ، فأجاب عنه بأن من بقي على الكفر سبعين سنة ثم تاب فإني أزيل اسمه عن ديوان المذنبين وأستر عليه بفضلي وأعفو عن جميع ذنوبه وأوصله إلى درجات الأبرار . واعلم أنه تعالى لما بين ذلك قال (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) وهذا النبأ العظيم يحتمل وجوهاً فيمكن أن يكون المراد أن القول بأن الإله واحد نبأ عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول بالنبوة نبأ عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول بإثبات الحشر والنشر والقيامة نبأ عظيم ، وذلك لأن هذه المطالب الثلاثة كانت مذكورة في أول السورة ولأجلها امتد الكلام إلى كل ما سبق ذكره ، ويمكن أيضاً أن يكون المراد كون القرآن معجزاً لأن هذا أيضاً قد تقدم ذكره في قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) فهؤلاء الأقوام أعرضوا عنه على ما قال (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) واعلم أن قوله (أنتم عنه معرضون) ترغيب في النظر والاستدلال ومنع من التقليد ، لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق يفوز بأعظم أبواب السعادة ، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل وقع في أعظم أبواب الشقاوة فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية قوية ، وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام وأن لا يكتفي بالمساهلة والمسامحة .

أما قوله تعالى (ما كان لي من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون) فاعلم أنه تعالى رغب المكلفين في الاحتياط في هذه المسائل الأربعة ، وبالغ في ذلك الترغيب من وجوه (الأول) أن كل واحد منها نبأ عظيم ، والنبأ العظيم يجب الاحتياط فيه (الثاني) أن الملأ الأعلى اختصموا وأحسن ما قيل فيه أنه تعالى لما قال (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون) والمعنى أنهم قالوا أي فائدة في خلق

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ

البشر مع أنهم يشتغلون بقضاء الشهوة وهو المراد من قوله (من يفسد فيها) وبإمضاء الغضب وهو المراد من قوله (ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك) فقال الله سبحانه وتعالى : (إنى أعلم ما لا تعلمون) وتقرير هذا الجواب والله أعلم ، أن يقال إن المخلوقات بحسب القسمة العقلية على أقسام أربعة : (أحدها) الذين حصل لهم العقل والحكمة ، ولم تحصل لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط (وثانيها) الذين حصل لهم النفس والشهوة ، ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهي البهائم (وثالثها) الأشياء الخالية عن القسمين ، وهي الجمادات وبقي في التقسيم (قسم رابع) وهو الذي حصل فيه الأمران وهو الإنسان والمقصود من تخليق الإنسان ليس هو الجهل والتقليد والتكبر والتمرد فإن كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة ، فقوله (إنى أعلم ما لا تعلمون) يعنى أن هذا النوع من المخلوقات ، وإن حصلت فيه الشهوة الداعية إلى الفساد والغضب الحامل له على سفك الدماء ، لكن حصل فيه العقل الذي يدعوه إلى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة ، وإذا ثبت أنه تعالى إنما أجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الإنسان أن يسعى في تحصيل هذه الصفات ، وأن يجتهد في اكتسابها ، وأن يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والإصرار والتكبر ، وإذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعياً له إلى الجد والاجتهاد في اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة زاجراً له عن أضدادها ومقابلاتها ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام في هذا المقام . فإن قيل الملائكة لا يجوز أن يقال إنهم اختصموا بسبب قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فإن المخاصمة مع الله كفر ، قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب ، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز ، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه ، ولما أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز أمره أن يقول (إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين) يعني أنا ما عرفت هذه المخاصمة إلا بالوحي ، وإنما أوحى الله إلى هذه القصة لأنذركم بها وتصير هذه القصة حاملة لكم على الإخلاص في الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد .

قوله تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ،

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين . قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾

اعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر ، وذلك لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمداً عليه الصلاة والسلام بسبب الحسد والكبر ، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال ، ومنعهم عن الإصرار والتقليد ، وذكر في تقريره أموراً أربعة (أولها) أنه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه (والثاني) أن قصة سؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر يدل على أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هي المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر (الثالث) أن إبليس إنما خاصم آدم عليه السلام لأجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنهما ، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات ، واعلم أن هذه القصة قد تقدم شرحها في سور كثيرة ، فلا فائدة في الإعادة إلا ما لا بد منه وفيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله (إني خالق بشراً من طين) سؤالان :

﴿ الأول ﴾ أن هذا النظم إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين ، كما إذا قيل أنا متخذ سواراً من ذهب ، فهذا إنما يحسن لو أمكن اتخاذه من الفضة .

(الثاني) ذكر هنا أنه خلق البشر من طين . وفي سائر الآيات ذكر أنه خلقه من سائر الأشياء كقوله في آدم إنه خلقه من تراب ، وكقوله (من صلصال من حمإ مسنون) وكقوله (خلق الإنسان من عجل) .

(الثالث) أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه خالق بشراً من طين ، لم يقولوا شيئاً ، وفي الآية الأخرى وهي التي قال (إني جاعل في الأرض خليفة) بين أنهم أوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض . والجواب عن الأول أن التقدير كأنه سبحانه وصف لهم أولا أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية ، فلما قال (إني خالق بشراً من طين) فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات ، إنما أخلقه من الطين . والجواب عن الثاني أن المادة البعيدة هو التراب ، وأقرب منه الطين ، وأقرب منه الحمأ المسنون ، وأقرب منه الصلصال فثبت أنه لا منافاة بين الكل . والجواب عن الثالث أنه في الآية المذكورة في سورة البقرة بين لهم أنه يخلق في الأرض خليفة ، وفي الآية المذكورة هنا بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين .

﴿المسألة الثانية﴾ قال (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم إلا بأمرين التسوية أولا ، ثم نفخ الروح ثانياً ، وهذا حق لأن الإنسان مركب من جسد ونفس .

أما الجسد فإنه إنما يتولد من المني ، والمني إنما يتولد من دم الطمث وهو إنما يتولد من الأخلاط الأربعة ، وهي إنما تتولد من الأركان الأربعة ، ولا بد في حصول هذه التسوية من رعاية مقدار عنصر من كل واحد منها ، ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركيباتها ، ومن رعاية المدة التي في خلالها حصل ذلك المزاج الذي لأجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة .

وأما النفس فإليها الإشارة بقوله (ونفخت فيه من روحي) ولما أضاف الروح إلى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوي قدسي ، وذهبت الحلولية إلى أن كلمة من تدل على التبعيض ، وهذا يوهم أن الروح جزء من أجزاء الله تعالى ، وهذا في غاية الفساد ، لأن كل ما له جزء وكل فهو مركب وممكن الوجود لذاته ومحدث .

وأما كيفية نفخ الروح ، فاعلم أن الأقرب أن جوهر النفس عبارة عن أجسام شفافة نورانية ، علوية العنصر ، قدسية الجوهر ، وهي تسري في البدن سريان الضوء في الهواء ، وسريان النار في الفحم ، فهذا القدر معلوم ، أما كيفية ذلك النفخ فما لا يعلمه إلا الله تعالى .

﴿المسألة الثالثة﴾ الظاهر في قوله (فقعوا له ساجدين) يدل على أنه كما تم نفخ الروح في الجسد توجه أمر الله عليهم بالسجود ، وأما أن المأمورين بذلك السجود ملائكة الأرض ، أو دخل فيه ملائكة السموات ، مثل جبريل وميكائيل ، والروح الأعظم المذكور في قوله (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) ففيه مباحث عميقة ، وقال بعض الصوفية : الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية ، فإنها في بدن الإنسان خوادم النفس الناطقة .

وإبليس الذي لم يسجد هو القوة الوهمية التي هي المنازعة لجوهر العقل ، والكلام فيه طويل . وأما بقية المسائل وهي : كيفية سجود الملائكة لآدم ، وأن ذلك هل يدل على كونه أفضل من الملائكة أم لا ، وأن إبليس هل كان من الملائكة أم لا ، وأنه هل كان كافراً أصلاً أم لا ؟ فكل ذلك تقدم في سورة البقرة وغيرها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج من أثبت لله عضواً والجوارح لله تعالى بقوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) في إثبات يدين لله تعالى ، بأن قالوا ظاهر الآية يدل عليه ، فوجب المصير إليه ، والآيات الكثيرة واردة على وفق هذه الآية ، فوجب القطع به .

واعلم أن الدلائل الدالة على نفي كونه تعالى جسماً مركباً من الأجزاء والأعضاء قد سبقت إلا أنا نذكر ههنا نكتاً جارية مجرى الإلزامات الظاهرة (فالأول) أن من قال إنه مركب من الأعضاء والأجزاء ، فإما أن يثبت الأعضاء التي ورد ذكرها في القرآن ولا يزيد عليها ، وإما أن يزيد عليها ، فإن كان الأول لزمه إثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها في القبح ، لأنه يلزمه إثبات وجه بحيث لا يوجد منه إلا مجرد رقعة الوجه لقوله (كل شيء هالك إلا وجهه) ويلزمه أن يثبت في تلك الرقعة عيوناً كثيرة لقوله (تجري بأعيننا) وأن يثبت جنباً واحداً لقوله تعالى (يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله) وأن يثبت على ذلك الجنب أيدي كثيرة لقوله تعالى (مما عملت أيدينا) وبتقدير أن يكون له يدان فإنه يجب أن يكون كلاهما على جانب واحد لقوله ﷺ « الحجر الأسود يمين الله في الأرض » وأن يثبت له ساقاً واحداً لقوله تعالى (يوم يكشف عن ساق) فيكون الحاصل من هذه الصورة مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة ، وجنب واحد ويكون عليه أيد كثيرة وساق واحد ، ومعلوم أن هذه الصورة أقبح الصور ، ولو كان هذا عبداً لم يرغب أحد في شرائه ، فكيف يقول العاقل إن رب العالمين موصوف بهذه الصورة .

وأما القسم الثاني : وهو أن لا يقتصر على الأعضاء المذكورة في القرآن بل يزيد وينقص على وفق التأويلات ، فحينئذ يبطل مذهبه في الحمل على مجرد الظواهر ، ولا بد له من قبول دلائل العقل .

﴿ الحجة الثانية ﴾ في إبطال قولهم إنهم إن أثبتوا الأعضاء لله تعالى ، فإن أثبتوا له عضو الرجل فهو رجل ، وإن أثبتوا له عضو النساء فهو أنثى ، وإن نفوهما فهو خصي أو عنين ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ أنه في ذاته سبحانه وتعالى ، إما أن يكون جسماً صلباً لا ينغمز البتة فيكون حجراً صلباً ، وإما أن يكون قابلاً للانغمار فيكون ليناً قابلاً للتفرق والتمزق ، وتعالى الله عن ذلك .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ أنه إن كان بحيث لا يمكنه أن يتحرك عن مكانه ، كان كالزمن المقعد العاجز ، وإن كان بحيث يمكنه أن يتحرك عن مكانه ، كان محلاً للتغيرات ، فدخل تحت قوله (لا أحب الآفلين) .

(الحجة الخامسة) إن كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحرك كان كالميت ، وإن كان يفعل هذه الأشياء كان إنساناً كثير التهمة محتاجاً إلى الأكل والشرب والوقاع وذلك باطل.

(الحجة السادسة) أنهم يقولون إنه ينزل كل ليلة من العرش إلى السماء الدنيا ، فنقول لهم حين نزوله : هل يبقى مدبراً للعرش ويبقى مدبراً للسماء الدنيا حين كان على العرش ، وحينئذ لا يبقى في النزول فائدة ، وإن لم يبق مدبراً للعرش فعند نزوله يصير معزولا عن إلهية العرش والسموات .

(الحجة السابعة) أنهم يقولون إنه تعالى أعظم من العرش ، وإن العرش لا نسبة لعظمته إلى عظمة الكرسي ، وعلى هذا الترتيب حتى ينتهي إلى السماء الدنيا ، وإذا كان كذلك كانت السماء الدنيا بالنسبة إلى عظمة الله كالذرة بالنسبة إلى البحر ، فإذا نزل فإما أن يقال إن الإله يصير صغيراً بحيث تسعه السماء الدنيا ، وإما أن يقال إن السماء الدنيا تصير أعظم من العرش ، وكل ذلك باطل .

(الحجة الثامنة) ثبت أن العالم كرة ، فإن كان فوق بالنسبة إلى قوم كان تحت بالنسبة إلى قوم آخرين وذلك باطل ، وإن كان فوق بالنسبة إلى الكل ، فحينئذ يكون جسما محيطاً بهذا العالم من كل الجوانب ، فيكون إله العالم على هذا القول فلكا من الأفلاك .

(الحجة التاسعة) لما كانت الأرض كرة ، وكانت السموات كرات ، فكل ساعة تفرض الساعات فإنها تكون ثلث الليل في حق أقوام معينين من سكان كرة الأرض ، فلو نزل من العرش في ثلث الليل وجب أن يبقى أبداً نازلا عن العرش ، وأن لا يرجع إلى العرش البتة .

(الحجة العاشرة) أنا إنما زيفنا إلهية الشمس والقمر لثلاثة أنواع من العيوب (أولها) كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض (وثانيها) كونه محدوداً متناهياً (وثالثها) كونه موصوفاً بالحركة والسكون والطلوع والغروب ، فإذا كان إله المشبهة مؤلفاً من الأعضاء والأجزاء كان مركباً ، فإذا كان على العرش كان محدوداً متناهياً ، وإن كان ينزل من العرش ويرجع إليه كان موصوفاً بالحركة والسكون ، فهذه الصفات الثلاثة إن كانت منافية للإلهية وجب تنزيه الإله عنها بأسرها ، وذلك يبطل قول المشبهة ، وإن لم تكن منافية الإلهية فحينئذ لا يقدر أحد على الطعن في إلهية الشمس والقمر .

(الحجة الحادية عشرة) قوله تعالى (قل هو الله أحد) ولفظ الأحد مبالغة في الوحدة ، وذلك ينافي كونه مركباً من الأجزاء والأبعاض .

(الحجة الثانية عشرة) قوله تعالى (والله الغني وأنتم الفقراء) ولو كان مركباً من الأجزاء والأبعاض لكان محتاجاً إليها وذلك يمنع من كونه غنياً على الإطلاق ، فثبت بهذه الوجوه أن القول بإثبات الأعضاء والأجزاء لله محال ، ولما ثبت بالدلائل اليقينية وجوب تنزيه الله تعالى عن هذه الأعضاء ، فنقول ذكر العلماء في لفظ اليد وجوهاً (الأول) أن اليد عبارة عن القدرة تقول العرب مالي بهذا الأمر من يد ، أي من قوة وطاقة . قال تعالى (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) ،

(الثاني) اليد عبارة عن النعمة يقال أيادي فلان في حق فلان ظاهرة والمراد النعم والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة أو نعم الدين والدنيا (الثالث) أن لفظ اليد قد يزاد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى (نشراً بين يدي رحمته).

ولقائل أن يقول حمل اليد على القدرة ههنا غير جائز، ويدل عليه وجوه (الأول) أن ظاهر الآية يقتضي إثبات اليدين، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لزم إثبات قدرتين لله وهو باطل (والثاني) أن الآية تقتضي أن كون آدم مخلوقاً باليدين يوجب فضيلته وكونه مسجوداً للملائكة، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لكان آدم مخلوقاً بالقدرة، لكن جميع الأشياء مخلوقة بقدرة الله تعالى فكما أن آدم عليه السلام مخلوق بيد الله تعالى، فكذلك إبليس مخلوق بيد الله تعالى، وعلى تقدير أن تكون اليد عبارة عن القدرة، لم تكن هذه الصلة علة لكون آدم مسجوداً لإبليس أولى من أن يكون إبليس مسجوداً لآدم، وحينئذ يختل نظم الآية ويبطل (الثالث) أنه جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال «كلتا يديه يمين» ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق بالقدرة.

(وأما التأويل الثاني) وهو حمل اليدين على النعمتين فهو أيضاً باطل لوجوه (الأول) أن نعم الله تعالى كثيرة كما قال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وظاهر الآية يدل على أن اليد لا تزيد على الإثنتين (الثاني) لو كانت اليد عبارة عن النعمة فنقول النعمة مخلوقة لله فحينئذ لا يكون آدم مخلوقاً لله تعالى بل يكون مخلوقاً لبعض المخلوقات، وذلك بأن يكون سبباً لمزيد النقصان أولى من أن يكون سبباً لمزيد الكمال (الثالث) لو كانت اليد عبارة عن النعمة لكان قوله (تبارك الذي بيده الملك) معناه تبارك الذي بنعمته الملك ولكان قوله «بيدك الخير» معناه بنعمتك الخير ولكان قوله (بل يداه مبسوطتان) معناه نعمتاه مبسوطتان، ومعلوم أن كل ذلك فاسد.

(وأما التأويل الثالث) وهو قوله إن لفظ اليد قد يذكر زيادة لأجل التأكيد فنقول لفظ اليد قد يستعمل في حق من يكون هذا المعنى حاصلا له وفي حق من لا يكون هذا المعنى حاصلا في حقه (أما الأول) فكقولهم في حق من جنى بلسانه هذا ما كسبت يداك والسبب في هذا أن محل القدرة هو اليد فأطلق اسم اليد على القدرة، وعلى هذا التقدير فيصير المراد من لفظ اليد القدرة، وقد تقدم إبطال هذا الوجه (وأما الثاني) فكقوله (بين يدي عذاب شديد) وقوله (بين يدي الساعة) إلا أنا نقول هذا المجاز بهذا اللفظ مذكور والمجاز لا يقاس عليه ولا يكون مطرداً، فلا جرم لا يجوز أن يقال إن هذا المعنى إنما حصل بيد العذاب وبيد الساعة، ونحن نسلم أن قوله (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) قد يجوز أن يراد به التأكيد والصلة، أما المذكور في هذه الآية ليس هذا اللفظ بل قوله تعالى (خلقت بيدي) وإن كان القياس في المجازات باطلا فقد سقط كلامكم بالكلية، فهذا منتهى البحث في هذا الباب.

والذي تلخص عندي في هذا الباب أن السلطان العظيم لا يقدر على عمل شيء بيده إلا إذا كانت

لأنه عنايته مصروفة إلى ذلك المعنى ، فإذا كانت المشابهة الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازاً عنه عند قيام الدلائل الباهرة . وهذا ما لخصناه في هذا الباب ، والله أعلم .

أما قوله تعالى { أستكبرت أم كنت من العالين } فالمعنى : أستكبرت الآن أم كنت أبداً من المتكبرين العالين ، فأجاب إبليس بقوله { أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين } فالمعنى أني لو كنت مساوياً له في الشرف لكان يقبح أمري بسجودي له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيراً منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين ، فصح أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة :

{ المقدمة الأولى } أن إبليس مخلوق من النار ، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنه { خلقتني من نار وخلقته من طين } وقوله تعالى { والجان خلقناه من قبل من نار السموم } .

{ المقدمة الثانية } أن النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه (الأول) أن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعدها عنه فوجب كون النار أفضل من الأرض (الثاني) أن النار خليفة الشمس والقمر في إضاءة هذا العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الأرض ، فخليفتهما في الإضاءة أفضل من الأرض (الثالث) أن الكيفية الفاعلة الأصلية ، إما الحرارة أو البرودة والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت (الرابع) الأرض كثيفة والنار لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة (الخامس) النار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة (السادس) النار خفيفة تشبه الروح والأرض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض ولذلك قال الأطباء اتفقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الأجساد وأن العنصرين الخفيفين أعون على تولد الأرواح (السابع) النار صاعدة والأرض هابطة والصاعد أشرف من الهابط (الثامن) أن أول بروج الفلك هو الحمل لأنه هو الذي يبدأ من نقطة الاستواء الشمالي ثم إن الحمل على طبيعة النار وأشرف أعضاء الحيوان هو القلب والروح وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضي (التاسع) أن الأجسام الأرضية كلما كانت أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالأرض كانت أخس ، مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والأحجار الصافية النورانية ومثاله أيضاً من الثياب الإبريسم وما يتخذ منه ، وإذا ثبت أن كل ما كان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالأمر ظاهر (العاشر) أن القوة الباصرة قوة في غاية الشرف والجلالة ولا يتم عملها إلا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار (الحادي عشر) أن أشرف أجسام العالم الجسماني هو الشمس ولا شك أنه شبيه بالنار في صورته وطبعه وأثره (الثاني عشر) أن النضج والهضم والحياة لا تتم إلا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لما تم المزاج ولما تولدت المركبات (الثالث عشر) أن أقوى العناصر

الأربعة في قوة الفعل هو النار وأكثرها في قوة الانفعال هو الأرض والفعل أفضل من الانفعال فالنار أفضل من الأرض . أما القائلون بتفضيل الأرض على النار فذكروا أيضاً وجوها (الأول) أن الأرض أمين مصلح فإذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كل ما أسلمته إليها (الثاني) أن الحسن البصري أثنى على النار (١) فليستمع ما يقوله الحسن القمي (الثالث) أن الأرض مستولية على النار فإنها تطفئ النار ، وأما النار فإنها لا تؤثر في الأرض الخالصة .

(وأما المقدمة الثالثة) فهي أن من كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه . فاعلم أن هذه المقدمة كاذبة جداً وذلك لأن أصل الرماد النار وأصل البساتين النزهة والأشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد . وأيضاً فهب أن اعتبار هذه الجهة يوجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يصير معارضاً بجهة أخرى توجب الرجحان مثل إنسان نسيب عار عن كل الفضائل فإن نسبه يوجب رجحانه ، إلا أن الذي لا يكون نسيباً قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو أفضل من ذلك النسيب بدرجات لا حد لها . فالمقدمة الكاذبة في القياس الذي ذكره إبليس هي هذه المقدمة . فإن قال قائل هب أن إبليس أخطأ في هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة ؟ وبيان هذا السؤال من وجوه (الأول) أن قوله (اسجدوا) أمر والأمر لا يقتضي الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لا توجب العصيان فضلا عن الكفر . وأيضاً فالذين يقولون إن الأمر للوجوب فهم لا ينكرون كونه محتملا للندب احتمالا ظاهراً ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلا عن الكفر (الثاني) هب أنه للوجوب إلا أن إبليس ما كان من الملائكة فأمر الملائكة بسجود آدم لا يدخل فيه إبليس (الثالث) هب أنه يتناوله إلا أن تخصيص النص بالقياس جائز فخصص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس (الرابع) هب أنه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأموراً به إلا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه الكفر (والجواب) هب أن صيغة الأمر لا تدل على الوجوب ولكن يجوز أن ينضم إليها من القرائن ما يدل على الوجوب . وههنا حصلت تلك القرائن وهي قوله تعالى (أستكبرت أم كنت من العالين) فلما أتى إبليس بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك القياس ليتوسل به إلى القدح في أمر الله وتكليفه وذلك يوجب الكفر . إذا عرفت هذا فنقول إن إبليس لما ذكر هذا القياس الفاسد قال تعالى (اخرج منها فإنك رجيم) .

واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف وههنا الحكم بكونه رجيما ورد عقيب ما حكى عنه أنه خصص النص بالقياس ، فهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم ، وقوله (منها) أي من الجنة أو من السموات والرجيم المرجوم وفيه قولان :

(١) [illegible]

(الأول) أنه مجاز عن الطرد ، لأن الظاهر أن من طرد فقد يرمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد فإن قالوا الطرد هو اللعن فلو حملنا قوله (رجيم) على الطرد لكان قوله بعد ذلك (وإن عليك لعنتي) تكراراً والجواب من وجهين (الأول) إنا نحمل الرجيم على الطرد من الجنة أو من السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله (والثاني) أنا نحمل الرجيم على الطرد ونحمل قوله (وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين) على أن ذلك الطرد يمتد إلى آخر القيامة فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكريراً .

(والقول الثاني) في تفسير الرجيم أن يحمله على الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب والله أعلم . فإن قيل كلمة إلى لانتهاء الغاية فقوله (إلى يوم الدين) يقتضي انقطاع تلك اللعنة عند مجيء يوم الدين . أجاب صاحب الكشاف بأن اللعنة باقية عليه في الدنيا فاذا جاء يوم القيامة حصل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير اللعنة مع حضورها منسية .

واعلم أن إبليس لما صار ملعوناً قال (فأنظرني إلى يوم يبعثون) قيل إنما طلب الانظار إلى يوم يبعثون لأجل أن يتخلص من الموت لأنه إذا نظر إلى يوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجيء يوم البعث لا يموت أيضاً فحينئذ يتخلص من الموت فقال تعالى (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) ومعناه إنك من المنظرين إلى يوم يعلمه الله ولا يعلمه أحد سواه . فقال إبليس (فبعزتك) وهو قسم بعزة الله وسلطانه (لأغوينهم أجمعين) فهنا أضاف الإغواء إلى نفسه وهو على مذهب القدر وقال مرة أخرى (رب بما أغويتني) فأضاف الإغواء إلى الله على ما هو مذهب الجبر وهذا يدل على أنه متحير في هذه المسألة .

وأما قوله (إلا عبادك منهم المخلصين) ففيه فوائد :

(الفائدة الأولى) قيل غرض إبليس من ذكر هذا الاستثناء أن لا يقع في كلامه الكذب لأنه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوي الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن إغواء عباد الله الصالحين ، فكأن إبليس قال إنما ذكرت هذا الاستثناء لئلا يقع الكذب في هذا الكلام ، وعند هذا يقال إن الكذب شيء يستنكف منه إبليس فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه ؟ فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله (وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) ؟ قلنا إن إبليس لم يقل إني لم أقصد إغواء عباد الله الصالحين بل قال لأغوينهم وهو وإن كان يقصد الإغواء إلا أنه لا يغويهم .

(الفائدة الثانية) هذه الآية تدل على أن إبليس لا يغوي عباد الله المخلصين ، وقال تعالى في صفة يوسف (إنه من عبادنا المخلصين) فتحصل من مجموع هاتين الآيتين أن إبليس ما أغوى يوسف عليه السلام ، وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون إلى يوسف عليه السلام من القبائح .

واعلم أن إبليس لما ذكر هذا الكلام قال الله تعالى (فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وفيه مسائل :

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم وحمزة (فالحق) بالرفع (والحق) بالنصب، والباقون بالنصب فيهما. أما الرفع فتقديره فالحق قسمي. وأما النصب فعلى القسم، أي فبالحق، كقولك والله لأفعلن، وأما قوله (والحق أقول) فانتصب قوله (والحق) بقوله (أقول).

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (منك) أي من جنسك، وهم الشياطين (وممن تبعك منهم) من ذرية آدم، فإن قيل قوله (أجمعين) تأكيد لماذا؟ قلنا: يحتمل أن يؤكد به الضمير في منهم، أو الكاف في منك مع من تبعك، ومعناه لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحداً.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة أن الكل بقضاء الله من وجوه (الأول) أنه تعالى قال في حق إبليس (اخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين) فهذا إخبار من الله تعالى بأنه لا يؤمن، فلو آمن لانقلب خبر الله الصدق كذباً وهو محال، فكان صدور الإيمان منه محالاً مع أنه أمر به (والثاني) أنه قال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) فالله تعالى علم منه أنه يغويهم، وسمع منه هذه الدعوى، وكان قادراً على منعه عن ذلك، والقادر على المنع إذا لم يمنع كان راضياً به، فإن قالوا لعل ذلك المنع مفسدة، قلنا هذا قول فاسد، لأن ذلك المنع يخلص إبليس عن الإضلال، ويخلص بني آدم عن الضلال، وهذا عين المصلحة (الثالث) أنه تعالى أخبر أنه يملأ جهنم من الكفرة، فلو لم يكفروا لزم الكذب والجهل في حق الله تعالى (الرابع) أنه لو أراد أن لا يكفر الكافر لوجب أن يبقي الأنبياء والصالحين، وأن يميت إبليس والشياطين، وحيث قلب الأمر علمنا أنه ضده (الخامس) أن تكليف أولئك الكفار بالإيمان يقتضي تكليفهم بالإيمان بهذه الآيات التي هي دالة على أنهم لا يؤمنون البتة، وحينئذ يلزم أن يصيروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون البتة، وذلك تكليف بما لا يطاق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين، إن هو إلا ذكر للعالمين، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾.

اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقاً كثيرة دالة على وجوب الاحتياط في طلب الدين، ثم قال عند الختم: هذا الذي أدعو الناس إليه يجب أن ينظر في حال الداعي، وفي حال الدعوة ليظهر أنه حق أو باطل. أما الداعي وهو أنا، فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجراً ومالاً، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال البتة، وكان من الظاهر أنه ﷺ كان بعيداً عن الدنيا عديم الرغبة فيها، وأما كيفية الدعوة

فقال : وما أنا من المتكلفين والمفسرون ، ذكروا فيه وجوها ، والذي يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذي أدعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة ، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته ، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله (أولا) ثم أدعوكم (ثانياً) إلى تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق به ، ويقوي ذلك قوله (ليس كمثله شيء) وأمثاله ، ثم أدعوكم (ثالثاً) إلى الإقرار بكونه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة ، ثم أدعوكم (رابعاً) إلى الإقرار بكونه منزهاً عن الشركاء والأضداد ، ثم أدعوكم (خامساً) إلى الإمتناع عن عبادة هذه الأوثان ، التي هي جمادات خسيسة ولا منفعة في عبادتها ولا مضرة في الإعراض عنها ، ثم أدعوكم (سادساً) إلى تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة ، وهم الملائكة والأنبياء . ثم أدعوكم (سابعاً) إلى الإقرار بالبعث والقيامة (ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ثم أدعوكم (ثامناً) إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، فهذه الأصول الثمانية ، هي الأصول القوية المعتبرة في دين الله تعالى ، ودين محمد ﷺ وبدائه العقول ، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول الثمانية . فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها ، بل كل عقل سليم وطبع مستقيم ، فإنه يشهد بصحتها وجلالتها ، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله (إن هو إلا ذكر للعالمين) ولما بين هذه المقدمات قال (ولتعلمن نبأه بعد حين) والمعنى أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد ، وأبيتم قبول هذه البيانات التي ذكرناها ، فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين في هذا الإعراض أو مخطئين ، وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه في التخويف والترهيب ، والله أعلم .

قال المصنف رحمة الله عليه : تم تفسير هذه السورة يوم الخميس في آخر الثلاثاء الثاني من شهر ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة ، والحمد لله على آلائه ونعمائه ، والصلاة على المطهرين من عباده في أرضه وسمائه ، والمدح والثناء كما يليق بصفاته وأسمائه ، والتعظيم التام لأنبيائه وأوليائه ، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

(٣٩) سورة الزمر مكية
وآياتها خمس وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار . لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ .

اعلم أن في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الفراء والزجاج : في رفع (تنزيل) وجهين (أحدهما) أن يكون قوله (تنزيل) مبتدأ وقوله (من الله العزيز الحكيم) خبر (والثاني) أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب ، فيضمر المبتدأ كقوله (سورة أنزلناها) أي هذه سورة . قال بعضهم الوجه الأول أولى لوجوه (الأول) أن الإضمار خلاف الأصل ، فلا يصار إليه إلا لضرورة ، ولا ضرورة هنا (الثاني) أنا إذا قلنا (تنزيل الكتاب من الله) جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة ، وهي أن تنزيل

الكتاب يكون من الله ، لا من غيره وهذا الحصر معنى معتبر . أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة (الثالث) أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله ، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر ، لأن هذا إشارة إلى السورة ، والسورة ليست نفس التنزيل ، بل السورة منزلة ، فحينئذ نحتاج إلى أن نقول المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لا لضرورة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا إنه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا ، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمحدث المخلوق (والجواب) أنا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلا وآيات أخر تدل على كونه منزلا .

أما (الأول) فقوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين) ، وقال (تنزيل من حكيم حميد) وقال (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) .

وأما (الثاني) فقوله (إنا نحن نزلنا الذكر) ، وقال (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) وأنت تعلم أن كونه منزلا أقرب إلى الحقيقة من كونه تنزيلا ، فكونه منزلا مجاز أيضاً لأنه إن كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لا يقبل الانفصال والنزول ، وإن كان المراد منه الحروف والأصوات فهي أعراض لا تقبل الانتقال والنزول ، بل المراد من النزول نزول الملك الذي بلغها إلى الرسول ﷺ .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة العزيز هو القادر الذي لا يغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادراً على ما لا نهاية له والحكيم هو الذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة ، وهذا إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، وأنه غني عن جميع الحاجات إذا ثبت هذا فنقول كونه تعالى (عزيزاً حكيما) يدل على هذه الصفات الثلاثة ، العلم بجميع المعلومات ، والقدرة على كل الممكنات ، والاستغناء عن كل الحاجات ، فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح ، وإذا كان كذلك فكل ما يفعله يكون حكمة وصواباً . إذا ثبت هذا فنقول الانتفاع بالقرآن يتوقف على أصلين : (أحدهما) أن يعلم أن القرآن كلام الله ، والدليل عليه أنه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقاً ، وثبت بالتواتر أنه كان يقول القرآن كلام الله فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين أن القرآن كلام الله (والأصل الثاني) أن الله أراد بهذه الألفاظ المعاني التي هي موضوعة لها ، إما بحسب اللغة أو بحسب العرفية العربية أو الشرعية لأنه لو لم يرد بها ذلك لكان تلبيساً ، وذلك لا يليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا أن الانتفاع بالقرآن لا يحصل إلا بعد تسليم هذين الأصلين ، وثبت أنه لا سبيل إلى إثبات هذين الأصلين إلا بإثبات كونه تعالى حكيما ، وثبت أن لا سبيل

إلى إثبات كونه حكيماً إلا بالبناء على كونه تعالى عزيزاً ، فلهذا السبب قال (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) .

أما قوله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لفظ التنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله عليه نجماً نجماً على سبيل التدريج ولفظ الإنزال يشعر بأنه تعالى أنزله عليه دفعة واحدة فكيف الجمع بينهما ؟ والجواب : إن صح الفرق بين التنزيل وبين الإنزال من الوجه الذي ذكرتم فطريق الجمع أن يقال المعنى إنا حكمنا حكماً كلياً جزماً بأن يوصل إليك هذا الكتاب ، وهذا هو الإنزال ، ثم أوصلناه نجماً نجماً إليك على وفق المصالح وهذا هو التنزيل .

﴿ السؤال الثاني ﴾ ما المراد من قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) ؟ (والجواب) فيه وجهان (الأول) المراد (أنزلنا الكتاب إليك) ملتبساً بالحق والصدق والصواب على معنى كل ما أودعناه فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف فهو حق وصدق يجب العمل به والمصير إليه (الثاني) أن يكون المراد (إنا أنزلنا إليك الكتاب) بناء على دليل حق دل على أن الكتاب نازل من عند الله ، وذلك الدليل هو أن الفصحاء عجزوا عن معارضته ، ولو لم يكن معجزاً لما عجزوا عن معارضته .

ثم قال ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى لما بين في قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب أردفه بما يجب عليه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله تعالى بالكلية . فأما اشتغاله بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص فهو المراد من قوله تعالى (فاعبد الله مخلصاً) ، وأما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله (ألا لله الدين الخالص) لأن قوله (ألا لله) يفيد الحصر ، ومعنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور وينتفي عن غير المذكور ، واعلم أن العبادة مع الإخلاص لا تعرف حقيقة إلا إذا عرفنا أن العبادة ما هي وأن الإخلاص ما هو وأن الوجوه المنافية للإخلاص ما هي فهذه أمور ثلاثة لا بد من البحث عنها :

أما العبادة : فهي فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول يؤتى به لمجرد اعتقاد أن الآمر به عظيم يجب قبول قوله .

وأما الإخلاص : فهو أن يكون الداعي له إلى الإتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والامتثال ، فإن حصل معه داع آخر فإما أن يكون جانب الداعي إلى الطاعة راجحاً على الجانب الآخر أو معادلاً له أو مرجوحاً ، وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط ، وأما إذا كان الداعي إلى طاعة الله راجحاً على الجانب الآخر فقد اختلفوا في أنه هل يفيد أم لا ، وقد ذكرنا هذه المسألة مراراً ولفظ القرآن يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص ، لأن قوله (فاعبد الله مخلصاً)

صريح في أنه يجب الإتيان بالعبادة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وأما بيان الوجوه المنافية للإخلاص فهي الوجوه الداعية للشريك وهي أقسام: (أحدها) أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل (وثانيها) أن يكون مقصوده من الإتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار (وثالثها) أن يأتي بها ويعتقد أن لها تأثيراً في إيجاب الثواب أو دفع العقاب (ورابعها) وهو أن يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة، وهذا القول إنما يتفرع على قول المعتزلة.

﴿المسألة الثانية﴾ من الناس من قال (فاعبد الله مخلصاً له الدين) المراد منه شهادة أن لا إله إلا الله، واحتجوا بما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا إله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي» وهذا قول من يقول: لا تضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر، وأما الأكثرون فقالوا الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الأوامر والنواهي، وهذا هو الأولى لأن قوله (فاعبد الله) عام، ويروى أن امرأة الفرزدق لما قرب وفاتها أوصت أن يصلي الحسن البصري عليها، فلما صلى عليها ودفنت، قال للفرزدق يا أبا فراس ما الذي أعددت لهذا الأمر؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله، فقال الحسن رضي الله عنه هذا العمود فأين الطنب؟ فبين بهذا أن عمود الخيمة لا ينتفع به إلا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة. قال القاضي فأما ما يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وأبي الدرداء «وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء» فإن صح فإنه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة وإلا لم يجز قبول هذا الخبر لأنه مخالف للقرآن، ولأنه يوجب أن لا يكون الإنسان مزجوراً عن الزنا والسرقة، وأن لا يكون متهدداً بفعلهما لأنه مع شدة شهوته القبيح يعلم أنه لا يضره مع تمسكه بالشهادتين فكان ذلك إغراء بالقبيح والكل ينافي حكمة الله تعالى ولا يلزم أن يقال ذلك فالقول بأنه يزول ضرره بالتوبة يوجب أيضاً الإغراء بالقبيح، لأنا نقول إن من اعتقد أن ضرره يزول بالتوبة فقد اعتقد أن فعل القبيح مضرة إلا أنه يزيل ذلك الضرر بفعل التوبة بخلاف قول من يقول إن فعل القبيح لا يضر مع التمسك بالشهادتين، هذا تمام كلام القاضي، فيقال له: أما قولك إن القول بالمغفرة مخالف للقرآن فليس كذلك بل القرآن يدل عليه قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أي حال ظلمهم كما يقال رأيت الأمير على أكله وشربه أي حال كونه آكلا وشارباً، وقال (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وأما قوله إن ذلك يوجب الإغراء بالقبيح، فيقال له إن كان الأمر كذلك وجب أن يقبح غفرانه عقلا، وهذا مذهب البغداديين من المعتزلة، وأنت لا تقول به، لأن مذهب البصريين أن عذاب المذنب جائز عقلا، وأيضاً فيلزم عليه أن لا يحصل الغفران بالتوبة، لأنه إذا علم أنه إذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم ينزجر وأما

الفرق الذي ذكره القاضي فبعيد ، لأنه إذا عزم على أن يتوب عنه في الحال علم أنه لا يضره ذلك الذنب البتة . ثم نقول مذهبنا أنا نقطع بحصول العفو عن الكبائر في الجملة ، فأما في حق كل واحد من الناس فذلك مشكوك فيه لأنه تعالى قال (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فقطع بحصول المغفرة في الجملة ، إلا أنه سبحانه وتعالى لم يقطع بحصول هذا الغفران في حق كل أحد بل في حق من شاء ، وإذا كان كذلك كان الخوف حاصلاً فلا يكون الإغراء حاصلاً والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء الدين بالرفع ، ثم قال وحق من رفعه أن يقرأ مخلَصاً بفتح اللام لقوله تعالى (وأخلصوا دينهم لله) حتى يطابق قوله (ألا لله الدين الخالص) والخالص والمخلص واحد إلا أنه وصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر ، واعلم أنه تعالى لما بين أن رأس العبادات ورئيسها الإخلاص في التوحيد أردفه بذم طريقة المشركين فقال (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وتقدير الكلام والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وعلى هذا التقدير فخبر الذين محذوف وهو قوله يقولون ، واعلم أن الضمير في قوله (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) عائد على الأشياء التي عبدت من دون الله . وهي قسمان العقلاء وغير العقلاء ، أما العقلاء فهو أن قوماً عبدوا المسيح وعزيراً والملائكة ، وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة ، وأما الأشياء التي عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهي الأصنام ، إذا عرفت هذا فنقول الكلام الذي ذكره الكفار لائق بالعقلاء ، أما بغير العقلاء فلا يليق . وبيانه من وجهين (الأول) أن الضمير في قوله (ما نعبدهم) ضمير للعقلاء فلا يليق بالأصنام (الثاني) أنه لا يبعد أن يعتقد أولئك الكفار في المسيح والعزير والملائكة أن يشفعوا لهم عند الله ، أما يبعد من العاقل أن يعتقد في الأصنام والجمادات أنها تقربه إلى الله ، وعلى هذا التقدير فمرادهم أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله . ويمكن أن يقال إن العاقل لا يعبد الصنم من حيث إنه خشب أو حجر ، وإنما يعبدونه لاعتقادهم أنها تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية ، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين مضوا ، ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى تلك الأشياء التي جعلوا هذه التماثيل صوراً لها .

وحاصل كلام عباد الأصنام أنهم قالوا إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الأرواح السماوية ، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر ، فهذا هو المراد من قولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .

واعلم أن الله تعالى لما حكى مذاهبهم أجاب عنها من وجوه : (الأول) أنه اقتصر في الجواب على مجرد التهديد فقال (إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) واعلم أن الرجل المبطل إذا ذكر مذهباً باطلاً وكان مصراً عليه ، فالطريق في علاجه أن يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الإصرار عن

قلبه ، فإذا زال الإصرار عن قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل الدال على بطلانه ، فيكون هذا الطريق أفضى إلى المقصود . والأطباء يقولون لابد من تقديم المنضج على سقي المسهل فإن بتناول المنضج تصير المواد الفاسدة رخوة قابلة للزوال ، فإذا سقيته المسهل بعد ذلك حصل النقاء التام ، فكذلك ههنا سماع التهديد والتخويف أولا يجري مجرى سقي المنضج أولا ، وإسماع الدليل ثانياً يجري مجرى سقي المسهل ثانياً . فهذا هو الفائدة في تقديم هذا التهديد .

ثم قال تعالى (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) والمراد أن من أصر على الكذب والكفر بقي محروماً عن الهداية . والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الأصنام بأنها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها ، والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض ، وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفر الراجع إلى الاعتقاد ، والأمر هنا كذلك فإن وصفهم لها بالإلهية كذب ، واعتقادهم فيها بالإلهية جهل وكفر . ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة ، والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام ، وذلك المنعم هو الله سبحانه وتعالى وهذه الأوثان لا مدخل لها في ذلك الإنعام فالاشتغال بعبادة هذه الأوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق .

ثم قال تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) والمراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهاً عن الولد وبيانه من وجوه (الأول) أنه لو اتخذ ولداً لما رضي إلا بأكمل الأولاد وهو الابن فكيف نسبتم إليه البنت (الثاني) أنه سبحانه واحد حقيقي والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد ، أما أنه واحد حقيقي فلأنه لو كان مركباً لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره ، فكان يحتاج إلى غيره والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته ، وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلوجوه (الأول) أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه ، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد . وهذا إنما يعقل في الشيء الذي ينفصل منه جزء ، والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه (الثاني) شرط الولد أن يكون مماثلا في تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين ، وذلك محال لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد ، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلولاً بسبب منفصل ، فلا يكون إلهاً واجب الوجود لذاته . فثبت أن كونه إلهاً واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحداً في حقيقته ، وكونه واحداً في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له ، ثبت أن كونه واحداً يمنع من ثبوت الولد (الثالث) أن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة والزوجان لابد وأن يكونا من جنس واحد ، فلو كان له ولد لما كان واحداً بل كانت زوجته من جنسه . وأما أن كونه قهاراً يمنع من ثبوت الولد له ، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذي يموت فيحتاج

خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

لأن ولده يقوم مقامه. فالمحتاج إلى الولد هو الذي يكون مقهوراً بالموت. أما الذي يكون قاهراً، ولا يقهره غيره كان الولد في حقه محالاً. فثبت أن قوله (هو الله الواحد القهار) ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار. خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها. وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج. يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث. ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون. إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون. إنه عليم بذات الصدور ﴾

اعلم أن الآية المتقدمة دلت على أنه تعالى بين كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً قهاراً غالباً أي كامل القدرة، فلما بنى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقيبها ما يدل على كمال القدرة وعلى كمال الاستغناء، وأيضاً فإنه تعالى طعن في إلهية الأصنام فذكر عقيبها الصفات التي باعتبارها تحصل الإلهية. واعلم أنا بينا في مواضع من هذا الكتاب أن الدلائل التي ذكرها الله تعالى في

إثبات الإله ، إما أن تكون فلكية أو عنصرية ، أما الفلكية فأقسام (أحدها) خلق السموات والأرض ، وهذا المعنى يدل على وجود الإله القادر من وجوه كثيرة شرحناها فى تفسير قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) و (الثانى) اختلاف أحوال الليل والنهار وهو المراد هنا من قوله (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وذلك لأن النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان ، وفى كل يوم يغلب هذا ذاك تارة ، وذاك هذا أخرى ، وذلك يدل على أن كل واحد منهما مغلوب مقهور ، ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه وتعالى ، والمراد من هذا التكوير أنه يزيد فى كل واحد منهما بقدر ما ينقص عن الآخر ، والمراد من تكوير الليل والنهار ما ورد فى الحديث « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » أى من الإدبار بعد الإقبال ، واعلم أنه سبحانه وتعالى عبر عن هذا المعنى بقوله (يكور الليل على النهار) وبقوله (يغشى الليل النهار) وبقوله (يولج الليل فى النهار) وبقوله (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر) و (الثالث) اعتبار أحوال الكواكب لاسيما الشمس والقمر ، فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ، وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله (كل يجرى لأجل مسمى) الأجل المسمى يوم القيامة ، لا يزالان يجريان إلى هذا اليوم فإذا كان يوم القيامة ذهبا ، ونظيره قوله تعالى (وجمع الشمس والقمر) والمراد من هذا التسخير أن هذه الأفلاك تدور كدوران المنجنون على حد واحد إلى يوم القيامة وعنده تطوى السماء كطى السجل للكتب .

ولما ذكر الله هذه الأنواع الثلاثة من الدلائل الفلكية قال (ألا هو العزيز الغفار) والمعنى أن خلق هذه الأجرام العظيمة وإن دل على كونه عزيزاً أى كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان ، فإنه لما كان الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة فكونه غفاراً يوجب كثرة الرحمة ، وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة ، ثم إنه تعالى أتبع ذكر الدلائل الفلكية بذكر الدلائل المأخوذة من هذا العالم الأسفل ، فبدأ بذكر الإنسان فقال (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) ودلالة تكوين الإنسان على الإله المختار قد سبق بيانها مراراً كثيرة ، فإن قيل كيف جاز أن يقول (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) والزوج مخلوق قبل خلقهم ؟ أجابوا عنه من وجوه (الأول) أن كلمة ثم كما تجيء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية ، فكذلك تجيء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر ، كقول القائل بلغنى ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت أمس كان أعجب ، ويقول أيضاً قد أعطيتك اليوم شيئاً ، ثم الذى أعطيتك أمس أكثر (الثانى) أن يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها زوجها (الثالث) أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الاستدلال بخلقة الإنسان على وجود الصانع ذكر عقيبه الاستدلال

بوجود الحيوان عليه فقال (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وهي الإبل والبقر والضأن والمعز وقد بينا كيفية دلالة هذه الحيوانات على وجود الصانع في قوله (والأنعام خلقها لكم فيها دفء) وفي تفسير قوله تعالى (وأنزل لكم) وجوه: (الأول) أن قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء لأجل أنه كتب في اللوح المحفوظ كل كائن يكون (الثاني) أن شيئاً من الحيوان لا يعيش إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء والتراب، والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه أنزلها (الثالث) أنه تعالى خلقها في الجنة ثم أنزلها إلى الأرض وقوله (ثمانية أزواج) أي ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز، والزوج اسم لكل واحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد منه قال تعالى (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى).

ثم قال تعالى (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق) وفيه أبحاث:

(الأول) قرأ حمزة بكسر الألف والميم، والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم، والباقون أمهاتكم بضم الألف وفتح الميم.

(الثاني) أنه تعالى لما ذكر تخليق الناس من شخص واحد وهو آدم عليه السلام أردفه بتخليق الأنعام، وإنما خصها بالذكر لأنها أشرف الحيوانات بعد الإنسان، ثم ذكر عقيب ذكرهما حالة مشتركة بين الإنسان وبين الأنعام وهي كونها مخلوقة في بطون أمهاتهم وقوله (خلقاً من بعد خلق) المراد منه ما ذكره الله تعالى في قوله (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين) وقوله (في ظلمات ثلاث) قيل الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل الصلب والرحم والبطن ووجه الاستدلال بهذه الحالات قد ذكرناه في قوله (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء).

واعلم أنه تعالى لما شرح هذه الدلائل ووصفها قال (ذلكم الله ربكم) أي ذلكم الشيء الذي عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم، وفي هذه الآية دلالة على كونه سبحانه وتعالى منزهاً عن الأجزاء والأعضاء وعلى كونه منزهاً عن الجسمية والمكانية، وذلك أنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة لم يذكر إلا كونه فاعلاً لهذه الأشياء، ولو كان جسماً مركباً من الأعضاء لكان تعريفه بتلك الأجزاء والأعضاء تعريفاً للشيء بأجزاء حقيقته، وأما تعريفه بأحواله وأفعاله وآثاره فذلك تعريف له بأمور خارجة عن ذاته، والتعريف الأول أكمل من الثاني، ولو كان ذلك القسم ممكناً لكان الاكتفاء بهذا القسم الثاني تقصيراً ونقصاً وذلك غير جائز، فعلمنا أن الاكتفاء بهذا القسم إنما حسن لأن القسم الأول محال ممتنع الوجود، وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعالياً عن الجسمية والأعضاء والأجزاء.

ثم قال تعالى (له الملك) وهذا يفيد الحصر أي له الملك لا لغيره، ولما ثبت أنه لا ملك

إلا له وجب القول بأنه لا إله إلا هو لأنه لو ثبت إله آخر ، فذلك الإله إما أن يكون له الملك أو لا يكون له الملك ، فإن كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكاً قادراً ويجرى بينهما التمانع كما ثبت في قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وذلك محال ، وإن لم يكن للثاني شيء من القدرة والملك فيكون ناقصاً ولا يصلح للإلهية ، فثبت أنه لما دل الدليل على أنه لا مالك إلا الله ، وجب أن يقال لا إله للعالمين ولا معبود للخلق أجمعين إلا الله الأحد الحق الصمد ، ثم اعلم أنه سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته ، رتب عليه تزييف طريقة المشركين والضالين من وجوه : (الأول) قوله (فأنى تصرفون) يحتج به أصحابنا ويحتج به المعتزلة . أما أصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية : أنها صريحة في أنهم لم ينصرفوا بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفها عنهم غيرهم ، وما ذاك الغير إلا الله . وأيضاً فدليل العقل يقوى ذلك لأن كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب ، فلما لم يحصل ذلك وإنما حصل الجهل والضلال علمنا أنه من غيره لا منه ، وأما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم : أن قوله (فأنى تصرفون) تعجب من هذا الانصراف ، ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا التعجب معنى .

ثم قال تعالى (إن تكفروا فإن الله غني عنكم) والمعنى أن الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة ، وذلك لأنه تعالى غني على الإطلاق ، ويمتنع في حقه جر المنفعة ودفع المضرة ، وإنما قلنا إنه غني لوجوه : (الأول) أنه واجب الوجود لذاته وواجب الوجود في جميع صفاته ، ومن كان كذلك كان غنياً على الإطلاق (الثاني) أنه لو كان محتاجاً لكانت تلك الحاجة إما قديمة وإما حادثة ، والأول باطل وإلا لزم أن يخلق في الأزل ما كان محتاجاً إليه وذلك محال ، لأن الخلق والأزل متناقض ، والثاني باطل لأن الحاجة نقصان والحكيم لا يدعوه الداعي إلى تحصيل النقصان لنفسه (الثالث) هب أنه بقي الشك في أنه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه أم لا ؟ أما من المعلوم بالضرورة أن الإله القادر على خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي والعناصر الأربعة والمواليد الثلاثة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو ، وأن يضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك ، فثبت بما ذكرنا أن جميع العالمين لو كفروا وأصروا على الجهل فإن الله غني عنهم .

ثم قال تعالى بعده (ولا يرضى لعباده الكفر) يعني أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفران إلا أنه لا يرضى بالكفر ، واحتج الجبائي بهذه الآية من وجهين : (الأول) أن المجبرة يقولون إن الله تعالى خلق كفر العباد وإنه من جهة ما خلقه حق وصواب ، قال ولو كان الأمر كذلك لكان قد رضي الكفر من الوجه الذي خلقه ، وذلك ضد الآية (الثاني) لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب ، وحيث أجمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الله وليس أيضاً برضا الله تعالى ، وأجاب

الأصحاب عن هذا الاستدلال من وجوه (الأول) أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين . قال الله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) وقال (عيناً يشرب بها عباد الله) وقال (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) فعلى هذا التقدير قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) ولا يرضى للمؤمنين الكفر ، وذلك لا يضرنا (الثاني) أنا نقول الكفر بإرادة الله تعالى ولا نقول إنه برضا الله لأن الرضا عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله ، قال الله تعالى (لقد رضي الله عن المؤمنين) أي يمدحهم ويثني عليهم (الثالث) كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمه الله يقول : الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض ، وليس عبارة عن الإرادة ، والدليل عليه قول ابن دريد :

رضيت قسراً وعلى القسر رضا ... من كان ذا سخط على صرف القضا

أثبت الرضا مع القسر وذلك يدل على ما قلناه (الرابع) هب أن الرضا هو الإرادة إلا أن قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) عام ، فتخصيصه بالآيات الدالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر كقوله تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) والله أعلم .

ثم قال تعالى (وإن تشكروا يرضه لكم) والمراد أنه لما بين أنه لا يرضى الكفر بين أنه يرضى الشكر ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلف القراء في هاء (يرضه) على ثلاثة أوجه (أحدها) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الهاء مختلسة غير مشبعة (وثانيها) قرأ أبو عمرو وحمزة في بعض الروايات يرضه ساكنة الهاء للتخفيف (وثالثها) قرأ نافع في بعض الروايات وابن كثير وابن عامر والكسائي مضمومة الهاء مشبعة ، قال الواحدي رحمه الله من القراء من أشبع الهاء حتى ألحق بها واواً ، لأن ما قبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه وله ، فكما أن هذا مشبع عند الجميع كذلك يرضه ، ومنهم من حرك الهاء ولم يلحق الواو ، لأن الأصل يرضاه والألف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية ، ومع بقاء الألف لا يجوز إثبات الواو فكذا ههنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل (أما القول) فهو الإقرار بحصول النعمة (وأما الاعتقاد) فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم .

ثم قال تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) قال الجبائي هذا يدل على أنه تعالى لا يعذب أحداً على فعل غيره ، فلو فعل الله كفرهم لما جاز أن يعذبهم عليه ، وأيضاً لا يجوز أن يعذب الأولاد بذنوب الآباء بخلاف ما يقول القوم . واحتج أيضاً من أنكر وجوب ضرب الدية على العاقلة بهذه الآية .

ثم قال تعالى (ثم إلى ربكم مرجعكم) واعلم أنا ذكرنا كثيراً أن أهم المطالب للإنسان أن يعرف خالقه بقدر الإمكان ، وأن يعرف ما يضره وما ينفعه في هذه الحياة الدنيوية ، وأن يعرف أحواله بعد الموت ، ففي هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الأعلى والعالم الأسفل على كمال

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

قدرة الصانع وعلمه وحكمته، ثم أتبعه بأن أمره بالشكر ونهاه عن الكفر ثم بين أحواله بعد الموت بقوله (ثم إلى ربكم مرجعكم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المشبهة تمسكوا بلفظ إلى على أن إله العالم في جهة وقد أجبنا عنه مراراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ زعم القوم أن هذه الأرواح كانت قبل الأجساد وتمسكوا بلفظ الرجوع الموجود في هذه الآية وفي سائر الآيات .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت هذه الآية على إثبات البعث والقيامة .

ثم قال (فينبئكم بما كنتم تعملون) وهذا تهديد للعاصي وبشارة للمطيع ، وقوله تعالى (إنه عليم بذات الصدور) كالعلة لما سبق ، يعني أنه يمكنه أن ينبئكم بأعمالكم ، لأنه عالم بجميع المعلومات ، فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف . وقال ﷺ « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار . أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾

اعلم أن الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك وبين أن الله تعالى هو الذي يجب أن يعبد ، بين في هذه الآية أن طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام متناقضة وذلك لأنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا في طلب دفعه إلا إلى الله ، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام ومعلوم أنهم إنما رجعوا إلى الله تعالى عند حصول الضر ، لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضر ، وإذا عرفوا أن الأمر كذلك في بعض الأحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا

به في كل الأحوال فثبت أن طريقتهم في هذا الباب متناقضة .

أما قوله تعالى : (وإذا مس الإنسان) فقيل المراد بالإنسان أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره ، وقيل المراد به الكافر الذي تقدم ذكره ، لأن الكلام خرج على معهود تقدم .

وأما قوله (ضر) فيدخل فيه جميع المكاره سواء كان في جسمه أو في ماله أو أهله وولده ، لأن اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد (دعا ربه) أي استجار بربه وناداه ولم يؤمل في كشف الضر سواه ، فلذلك قال (منيباً إليه) أي راجعاً إليه وحده في إزالة ذلك الضر لأن الإنابة هي الرجوع (ثم إذا خوله نعمة منه) أي أعطاه . قال صاحب الكشاف . وفي حقيقته وجهان (أحدهما) جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال ، إذا كان متعهداً له حسن القيام به ومنه ما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة (والثاني) جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر . وفي المعنى قالت العرب :

إن الغني طويل الذيل مياس

ثم قال تعالى (نسي ما كان يدعو إليه من قبل) أي نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه ، وما بمعنى من كقوله تعالى (وما خلق الذكر والأنثى) وقوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) وقوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وقيل نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه والمراد من قوله نسي أي ترك دعاءه كأنه لم يفزع إلى ربه ، ولو أراد به النسيان الحقيقي لما ذمه عليه ، ويحتمل أن يكون المراد أنه نسي أن لا مفزع . وأن لا إله سواه فعاد إلى اتخاذ الشركاء مع الله .

قوله تعالى : ﴿ وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بفتح الياء والباقون ليضل بضم الياء على معنى ليضل غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد أنه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين ، فعند الضر يعتقدون أنه لا مفزع إلى ما سواه وعند النعمة يعودون إلى اتخاذ آلهة معه ، ومعلوم أنه تعالى إذا كان إنما يفزع إليه في حال الضر لأجل أنه هو القادر على الخير والشر ، وهذا المعنى باق في حال الراحة والفراغ كان في تقرير حالهم في هذين الوقتين ما يوجب المناقضة وقلة العقل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ معنى قوله (ليضل عن سبيله) أنه لا يقتصر في ذلك على أن يضل نفسه بل يدعو غيره إما بفعله أو قوله إلى أن يشاركه في ذلك ، فيزداد إثماً على إثمه ، واللام في قوله (ليضل) لام العاقبة كقوله (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال (قل تمتع بكفرك قليلاً) وليس المراد منه الأمر بل

الزجر ، وأن يعرفه قلة نفعه في الدنيا ، ثم يكون مصيره إلى النار .

ولما شرح الله تعالى صفات المشركين والضالين ، ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح أحوال المحقين الذين لا رجوع لهم إلا إلى الله ولا اعتماد لهم إلا على فضل الله ، فقال (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة (أمن) مخففة الميم والباقون بالتشديد ، أما التخفيف ففيه وجهان (الأول) أن الألف ألف الاستفهام داخلة على من ، والجواب محذوف على تقدير كمن ليس كذلك ، وقيل كالذي جعل لله أنداداً فاكتفى بما سبق ذكره (والثاني) أن يكون ألف نداء كأنه قيل يامن هو قانت من أهل الجنة ، وأما التشديد فقال الفراء الأصل أم من فأدغمت الميم في الميم وعلى هذا القول هي أم التي في قولك أزيد أفضل أم عمرو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « أفضل الصلاة صلاة القنوت » وهو القيام فيها ، ومنه القنوت في الصبح لأنه يدعو قائماً ، عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وتلا (أمن هو قانت) وعن ابن عباس القنوت طاعة الله ، لقوله (كل له قانتون) أي مطيعون ، وعن قتادة (آناء الليل) ساعات الليل أوله ووسطه وآخره ، وفي هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل وأنه أرجح من قيام النهار ، ويؤكده وجوه (الأول) أن عبادة الليل أستر عن العيون فتكون أبعد عن الرياء (الثاني) أن الظلمة تمنع من الإبصار ونوم الخلق يمنع من السماع ، فإذا صار القلب فارغاً عن الاشتغال بالأحوال الخارجية عاد إلى المطلوب الأصلي ، وهو معرفة الله وخدمته (الثالث) أن الليل وقت النوم فتركه يكون أشق فيكون الثواب أكثر (الرابع) قوله تعالى (إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلا) وقوله (ساجداً) حال ، وقرىء ساجد وقائم على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين .

واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فكونه قانتاً ساجداً قائماً ، وأما العلم فقوله (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية .

(الفائدة الثانية) أنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظباً عليه ، فإن القنوت عبارة عن كون الرجل قائماً بما يجب عليه من الطاعات ، وذلك يدل على أن العمل إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان ، وقوله (ساجداً وقائماً) إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له في الأول مقام القهر وهو قوله (يحذر الآخرة) ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله (ويرجو رحمة ربه) ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ

{ساجداً وقائماً} أنه قال في مقام الخوف {يحذر الآخرة} فما أضاف الحذر إلى نفسه، وفي مقام الرجاء أضافه إلى نفسه، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى.

﴿المسألة الثالثة﴾ قيل المراد من قوله {أمن هو قانت آناء الليل} عثمان لأنه كان يحيي الليل في ركعة واحدة يقرأ القرآن في ركعة واحدة، والصحيح أن المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ويدخل فيه عثمان وغيره لأن الآية غير مقصورة عليه.

﴿المسألة الرابعة﴾ لا شبهة في أن في الكلام حذفاً، والتقدير أمن هو قانت كغيره، وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} وتقدير الآية قل هل يستوي الذين يعلمون وهم الذين وصفهم بأنهم يقنتون آناء الليل سجداً وقياماً، والذين لا يعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغة يشركون، وإذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وإنما وصف الله الكفار بأنهم لا يعلمون، لأنهم وإن آتاهم الله آلة العلم إلا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم، فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولي الألباب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم.

وأما قوله تعالى {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم، وقد بالغنا في تقرير هذا المعنى في تفسير قوله تعالى {وعلم آدم الأسماء كلها} قال صاحب الكشاف أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون، وبالذين لا يعلمون الذين لا يأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء، وهو تنبيه على أن من لا يعمل فهو غير عالم، ثم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون، ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة.

ثم قال تعالى {إنما يتذكر أولوا الألباب} يعني هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لا يعرفه أيضاً إلا أولوا الألباب، قيل لبعض العلماء: إنكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء، فأجاب العالم بأن هذا أيضاً يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فلا جرم تركوه.

قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب، قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً

ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصاً له ديني ، فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين ، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده ياعبادي فاتقون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين نفي المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم ، أتبعه بأن أمر رسوله بأن يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام :

(النوع الأول) قوله (قل ياعبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم) والمراد أن الله تعالى أمر المؤمنين بأن ينتهوا إلى الإيمان التقوى ، وهذا من أول الدلائل على أن الإيمان يبقى مع المعصية ، قال القاضي أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا إيمانهم ، لأن عند الاتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب وبالإقدام عليها يحبط ، فيقال له هذا بأن يدل على ضد قولك أولى ، لأنه لما أمر المؤمنين بالتقوى دل ذلك على أنه يبقى مؤمناً مع عدم التقوى ، وذلك يدل على أن الفسق لا يزيل الإيمان .

واعلم أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالاتقاء بين لهم ما في هذا الاتقاء من الفوائد ، فقال تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) فقوله (في هذه الدنيا) يحتمل أن يكون صلة لقوله (أحسنوا) أو لحسنة ، فعلى التقدير الأول معناه للذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة ، وهي دخول الجنة ، والتنكير في قوله (حسنة) للتعظيم يعني حسنة لا يصل العقل إلى كنه كمالها . وأما على (التقدير الثاني) فمعناه الذين أحسنوا فلهم في هذه الدنيا حسنة ، والقائلون بهذا القول قالوا هذه الحسنة هي الصحة والعافية ، وأقول الأولى أن تحمل على الثلاثة المذكورة في قوله ﷺ وثلاثة ليس لها نهاية : الأمن والصحة والكفاية ، ومن الناس من قال القول الأول أولى ويدل عليه وجوه (الأول) أن التنكير في قوله (حسنة) يدل على النهاية والجلالة والرفعة ، وذلك لا يليق

بأحوال الدنيا ، فإنها خسيسة ومنقطعة . وإنما يليق بأحوال الآخرة ، فإنها شريفة وآمنة من الانقضاء والانقراض (والثاني) أن ثواب المحسن بالتوحيد والأعمال الصالحة إنما يحصل في الآخرة قال تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) وأيضاً فنعمة الدنيا من الصحة والأمن والكفاية حاصلة للكفار ، وأيضاً فحصولها للكافر أكثر وأتم من حصولها المؤمن ، كما قال ﷺ « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » وقال تعالى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون) . (الثالث) أن قوله (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) يفيد الحصر ، بمعنى أنه يفيد أن حسنة هذه الدنيا لا تحصل إلا للذين أحسنوا ، وهذا باطل . أما لو حملنا هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر ، فكان حمله على حسنة الآخرة أولى ، ثم قال الله تعالى (وأرض الله واسعة) وفيه قولان (الأول) المراد أنه لا عذر البتة للمقصرين في الإحسان ، حتى إنهم إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان وصرف الهمم إليه ، قيل لهم فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة ، فتحولوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات ، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ، ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم ، وطاعة إلى طاعتهم ، والمقصود منه الترغيب في الهجرة من مكة إلى المدينة والصبر على مفارقة الوطن ، ونظيره قوله تعالى (قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) و(القول الثاني) قال أبو مسلم : لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة ، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهي خشية الله ، ثم بين أن من اتقى فله في الآخرة الحسنة ، وهي الخلود في الجنة ، ثم بين أن أرض الله ، أي جنته واسعة ، لقوله تعالى (تبوأ من الجنة حيث نشاء) وقوله تعالى (وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) والقول الأول عندي أولى ، لأن قوله (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) لا يليق إلا بالأول ، وفي هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أما تحقيق الكلام في ماهية الصبر ، فقد ذكرناه في سورة البقرة ، والمراد ههنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم ، وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تسمية المنافع التي وعد الله بها على الصبر بالأجر توهم أن العمل علة الثواب ، لأن الأجر هو المستحق ، إلا أنه قامت الدلائل القاهرة على أن العمل ليس علة للثواب ، فوجب حمل لفظ الأجر على كونه أجراً بحسب الوعد ، لا بحسب الاستحقاق .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى وصف ذلك الأجر بأنه بغير حساب ، وفيه وجوه (الأول) قال الجبائي : المعنى أنهم يعطون ما يستحقون ويزدادون تفضلا فهو بغير حساب ، ولو لم يعطوا إلا المستحق لكان ذلك حساباً ، قال القاضي هذا ليس بصحيح ، لأن الله تعالى وصف الأجر

بأنه بغير حساب ، ولو لم يعطها إلا الأجر المستحق ، والأجر غير التفضل (الثاني) أن الثواب له صفات ثلاثة (أحدها) أنها تكون دائمة لا آخر لها. وقوله (بغير حساب) معناه بغير نهاية ، لأن كل شيء دخل تحت الحساب فهو متناه ، فما لا نهاية له كان خارجاً عن الحساب (وثانيها) أنها تكون منافع كاملة في أنفسها ، وعقل المطيع ما كان يصل إلى كنه ذلك الثواب . قال ﷺ « إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه ، وما لا يتوقعه الإنسان ، فقد يقال إنه ليس في حسابه . فقوله (بغير حساب) محمول على هذا المعنى (والوجه الثالث) في التأويل أن ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال . روى صاحب الكشاف عن النبي ﷺ أنه قال « ينصب الله الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صباً ، قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل » .

(النوع الثاني) من البيانات التي أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) قال مقاتل : إن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى ! فأنزل الله : قل يا محمد إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأقول إن التكليف نوعان (أحدهما) الأمر بالاحتراز عما لا ينبغي (والثاني) الأمر بتحصيل ما ينبغي ، والمرتبة الأولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة . إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قدم الأمر بإزالة ما لا ينبغي فقال (اتقوا ربكم) لأن التقوى هي الاحتراز عما لا ينبغي ثم ذكر عقيبه الأمر بتحصيل ما ينبغي فقال (إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وهذا يشتمل على قيدين : (أحدهما) الأمر بعبادة الله (الثاني) كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلي وشوائب الشرك الخفي . وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أن غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير ، وقوله تعالى (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) لا شبهة في أن المراد إني أول من تمسك بالعبادات التي أرسلت بها ، وفي هذه الآية فائدتان :

(الفائدة الأولى) كأنه يقول إني لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يعملون ذلك ، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعاً فيه وأكثرهم مداومة عليه .

(الفائدة الثانية) أنه قال (إني أمرت أن أعبد الله) والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح ، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح ، فقدم ذكر الجزء الأشرف وهو قوله (مخلصاً له الدين) ثم ذكر عقيبه الأدون وهو عمل الجوارح وهو الإسلام ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم

منزلا وأهلا وخدماً في الجنة ، فإن أطاع أعطى ذلك ، وإن كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين . والخاسر المغبون . ولما شرح الله خسرانهم وصف ذلك الخسران بغاية الفظاعة فقال (ألا ذلك هو الخسران المبين) كان التكرير لأجل التأكيد (الثاني) أنه تعالى ذكر في أول هذه الكلمة حرف ألا وهو للتنبيه ، وذكر التنبيه في هذا الموضع يدل على التعظيم كأنه قيل إنه بلغ في العظمة إلى حيث لا تصل عقولكم إليها فتنبهوا لها (الثالث) أن كلمة (هو) في قوله (هو الخسران المبين) تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران فإنه يصير في مقابلته كلا خسران (الرابع) وصفه بكونه (مبينا) يدل على التهويل ، وأقول قد بينا أن لفظ الآية يدل على كونه (خسرانا مبينا) فلنبين بحسب المباحث العقلية كونه خسرانا مبينا ، والقول فيه يفتقر إلى بيان أمرين إلى أن يكون خسرانا ثم كونه مبينا (أما الأول) فتقريره أنه تعالى أعطى هذه الحياة وأعطى العقل ، وأعطى المكنة وكل ذلك رأس المال ، أما هذه الحياة فالمقصود منها أن يكتسب بها الحياة الطيبة في الآخرة .

وأما العقل فإنه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هي رأس المال والنظر ، والفكر لا معنى له إلا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب إلى تحصيل علوم كسبية ، فتلك العلوم البديهية أشباه بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر في رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء ، وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح ، وأيضا حصول القدرة على الأعمال يشبه رأس المال ، واستعمال تلك القوة في تحصيل أعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر في رأس المال ، وحصول أعمال الخير والبر يشبه الربح ، إذا ثبت هذا فنقول : إن من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ، ثم إنه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير البتة كان محروما عن الربح بالكلية ، وإذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية فكان ذلك خسرانا ، فهذا بيان كونه خسرانا (وأما الثاني) وهو بيان كون ذلك الخسران مبينا فهو أن من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار ، فهذا كما لم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له أيضا مزيد ضرر ، أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التي هي رأس مالهم في استخراج وجوه الشبهات وتقوية الجهالات والضلالات ، واستعملوا قواهم وقدرهم في أعمال الشر والباطل والفساد ، فهم قد جمعوا بين أمور في غاية الرداءة (أولها) أنهم أتعبوا أبدانهم وعقولهم طلبا في تلك العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة (وثانيها) أنهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة (وثالثها) أن تلك المتاعب الشديدة التي كانت موجودة في الدنيا في نصرة تلك الضلالات تصير أسبابا للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت ، وعند الوقوف على هذه المعاني يظهر أنه لا يعقل خسران أقوى من خسرانهم ، ولا حرمان أعظم من حرمانهم ، ونعوذ بالله منه .

ولما شرح الله تعالى أحوال حرمانهم عن الربح وبين كيفية خسرانهم ، بين أنهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران ، بل ضموا إليه استحقاق العذاب العظيم والعقاب الشديد ، فقال (لهم من

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ

فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب ، ونظيره في الأحوال النفسانية إحاطة الجهل والحرمان والحرص وسائر الأخلاق الذميمة بالإنسان ، فإن قيل الظلل ما علا الإنسان فكيف سمى ما تحته بالظلل ؟ والجواب من وجوه (الأول) أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) . (الثاني) أن الذي يكون تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته لأن النار دركات كما أن الجنة درجات (والثالث) أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الحرارة والإحراق والإيذاء ، أطلق اسم أحدهما على الآخر لأجل المماثلة والمشابهة ، قال الحسن هم بين طبقتين من النار لا يدرون ما فوقهم أكثر مما تحتهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقوله تعالى (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) .

ثم قال تعالى (ذلك يخوف الله به عباده) أي ذلك الذي تقدم ذكره من وصف العذاب فقوله (ذلك) مبتدأ وقوله (يخوف الله به عباده) خبر ، وفي قوله (يخوف الله به عباده) قولان (الأول) التقدير ذلك العذاب المعد للكفار هو الذي يخوف الله به عباده أي المؤمنين ، لأنا بينا أن لفظ العباد في القرآن مختص بأهل الإيمان وإنما كان تخويفاً للمؤمنين لأجل أنهم إذا سمعوا أن حال الكفار ما تقدم خافوا فأخلصوا في التوحيد والطاعة (الوجه الثاني) أن هذا الكلام في تقدير جواب عن سؤال ، لأنه يقال إنه تعالى غني عن العالمين منزه عن الشهوة والانتقام وداعية الإيذاء ، فكيف يليق به أن يعذب هؤلاء المساكين إلى هذا الحد العظيم ، وأجيب عنه بأن المقصود منه تخويف الكفار والضلال عن الكفر والضلال ، فإذا كان التكليف لا يتم إلا بالتخويف والتخويف لا يكمل الانتفاع به إلا بإدخال ذلك الشيء في الوجود وجب إدخال ذلك النوع من العذاب في الوجود تحصيلا لذلك المطلوب الذي هو التكليف ، والوجه الأول عندي أقرب ، والدليل عليه أنه قال بعده (يا عباد فاتقون) وقوله (يا عباد) الأظهر منه أن المراد منه المؤمنون فكأنه قال المقصود من شرح عذاب الكفار للمؤمنين تخويف المؤمنين فيا أيها المؤمنون بالغوا في الخوف والحذر والتقوى .

قوله تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ، أفمن

أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾ .

اعلم أن الله تعالى لما ذكر وعيد عبدة الأصنام والأوثان ذكر وعد من اجتنب عبادتها واحترز عن الشرك ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد أبداً فيحصل كمال الترغيب والترهيب ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، وفى هذا اللفظ أنواع من المبالغة (أحدها) التسمية بالمصدر كأن عين ذلك الشىء طغيان (وثانيها) أن البناء بناء المبالغة فإن الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط (وثالثها) ما ذكرنا من تقديم اللام على العين ومثل هذا إنما يصار إليه عند المبالغة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن المراد من الطاغوت ههنا الشيطان أم الأوثان ، فقيل إنه الشيطان فإن قيل إنهم ما عبدوا الشيطان وإنما عبدوا الصنم ، قلنا الداعى إلى عبادة الصنم لما كان هو الشيطان كان الإقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان ، وقيل المراد بالطاغوت الصنم وسميت طواغيت على سبيل المجاز لأنه لا فعل لها ، والطغاة هم الذين يعبدونها إلا أنه لما حصل الطغيان عند مشاهدتها والقرب منها ، وصفت بهذه الصفة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب بحسب الظاهر ، وقيل كل ما يعبد ويطاع من دون الله فهو طاغوت ، ويقال فى التواريخ إن الأصل فى عبادة الأصنام ، أن القوم كانوا مشبهة اعتقدوا فى الإله أنه نور عظيم ، وفى الملائكة أنها أنوار مختلفة فى الصغر والكبر ، فوضعوا تماثيل وصوراً على وفق تلك الخيالات ، فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقاد أنهم يعبدون الله والملائكة ، وأقول حاصل الكلام فى قوله (والذين اجتنبوا الطاغوت) أى أعرضوا عن عبودية كل ما سوى الله . قوله تعالى (وأنابوا إلى الله) أى رجعوا بالكلية إلى الله . ورأيت فى السفر الخامس من التوراة ، أن الله تعالى قال لموسى : ياموسى أجب إلهك بكل قلبك . وأقول مادام يبقى فى القلب التفات إلى غير الله فهو ما أجاب إلهه بكل قلبه ، وإنما تحصل الإجابة بكل القلب إذا أعرض القلب عن كل ما سوى الله من حب الطاعات فكيف يعرض عنها مع

أنه بالحس يشاهد الأسباب المفضية إلى المسببات فى هذا العالم ، قلنا ليس المراد من إعراض القلب عنها أن يقضى عليها بالعدم فان ذلك دخول فى السفسطة وهو باطل ، بل المراد أن يعرف أن واجب الوجود لذاته واحد ، وأن كل ما سواه فإنه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكناً لذاته فإنه لا يوجد إلا بتكوين الواجب وإيجاده ، ثم إنه سبحانه وتعالى جعل تكوينه للأشياء على قسمين منها ما يكون بغير واسطة وهى عالم السموات والروحانيات ، ومنها ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم الأسفل ، فإذا عرفت الأشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله ومن الله وبالله ، وأنه لا مدبر إلا هو ولا مؤثر غيره ، وحينئذ ينقطع نظره عن هذه الممكنات ويبقى مشغول القلب بالمؤثر الأول والموجد الأول ، فإنه إن كان قد وضع الأسباب الروحانية والجسمانية بحيث تتأدى إلى هذا المطلوب ، فهذا الشىء يحصل وإن كان قد وضعها بحيث لا يفضى إلى حصول هذا الشىء لم يحصل ، وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولا يبقى فى قلبه التفات إلى شىء إلا إلى الموجد الأول ، وقد اتفق أنى كنت أنصح بعض الصبيان فى حفظ العرض والمال فعارضنى وقال لا يجوز الاعتماد على الجد والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره ، فقلت هذه كلمة حق سمعتها ولكنك ما عرفت معناها ، وذلك لأنه لا شبهة أن الكل من الله تعالى إلا أنه سبحانه دبر الأشياء على قسمين منها ما جعل حدوثه وحصوله معلقاً بأسباب معلومة ومنها ما يحدثه من غير واسطة هذه الأسباب .

(أما القسم الأول) فهو حوادث هذا العالم الأسفل .

(وأما القسم الثانى) فهو حوادث هذا العالم الأعلى ، وإذا ثبت هذا فنقول من طلب حوادث هذا العالم الأسفل لا من الأسباب التى عينها الله تعالى كان هذا الشخص منازعاً لله فى حكمته مخالفاً فى تدبيره ، فإن الله تعالى حكم بحدوث هذه الأشياء بناء على تلك الأسباب المعينة المعلومة وأنت تريد تحصيلها لا من تلك الأسباب ، فهذا هو الكلام فى تحقيق الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقوله تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت) إشارة إلى الإعراض عن غير الله وقوله تعالى (وأنابوا إلى الله) إشارة إلى الإقبال بالكلية على عبادة الله ، ثم إنه تعالى وعد هؤلاء بأشياء (أحدها) قوله تعالى (لهم البشرى) واعلم أن هذه الكلمة تتعلق بجهات (أحدها) أن هذه البشارة متى تحصل ؟ فنقول إنها تحصل عند القرب من الموت وعند الوضع فى القبر وعند الوقوف فى عرصة القيامة وعند ما يصير فريق فى الجنة وفريق فى السعير وعند ما يدخل المؤمنون الجنة ، ففى كل موقف من هذه المواقف تحصل البشارة بنوع من الخير والروح والراحة والريحان (وثانيها) أن هذه البشارة فبماذا تحصل ؟ فنقول إن هذه البشارة تحصل بزوال المكروهات وبحصول المرادات ، أما زوال المكروهات فقوله تعالى (أن لا تخافوا ولا تحزنوا) والخوف إنما يكون من المستقبل والحزن إنما يكون بسبب الأحوال الماضية فقوله (أن

لا تخافوا) يعني لا تخافوا مما تستقبلونه من أحوال القيامة ولا تحزنوا بسبب ما فاتكم من خيرات الدنيا ، ولما أزال الله عنهم هذه المكروهات بشرهم بحصول الخيرات والسعادات فقال (وأبشروا بالجنة) وقال أيضاً في آية أخرى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار) وقال أيضاً (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) (وثالثها) أن المبشر من هو ؟ فنقول يحتمل أن يكون هم الملائكة ، إما عند الموت فقوله (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم) وإما بعد دخول الجنة فقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ويحتمل أن يكون هو الله سبحانه كما قال (تحيتهم يوم يلقونه سلام) .

واعلم أن قوله (لهم البشرى) فيه أنواع من التأكيدات (أحدها) أنه يفيد الحصر فقوله (لهم البشرى) أي لهم لا لغيرهم ، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى وأناب بالكلية على الله تعالى (وثانيها) أن الألف واللام في لفظ البشرى تفيد الماهية فيفيد أن هذه الماهية بتمامها لهؤلاء ، ولم يبق منها نصيب لغيرهم (وثالثها) أن لا فرق بين الإخبار وبين البشارة فالبشارة هو الخبر الأول بحصول الخيرات . إذا عرفت هذا فنقول كل ما عرفوه في الدنيا من أنواع الثواب والخير إذا سمعوه عند الموت أو في القبر فذلك لا يكون إلا إخباراً ، فثبت أن هذه البشارة لا تتحقق إلا إذا حصل الإخبار بحصول أنواع أخر من السعادات فوق ما عرفوها وسمعوها في الدنيا نسأل الله تعالى الفوز بها ، قال تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) (ورابعها) أن المخبر بقوله (لهم البشرى) هو الله تعالى وهو أعظم العظماء وأكمل الموجودات والشرط المعتبر في حصول هذه البشارة شرط عظيم وهو الاجتناب عما سوى الله تعالى والإقبال بالكلية على الله والسلطان العظيم إذا ذكر شرطاً عظيماً ، ثم قال من أتى بذلك الشرط العظيم أبشر فهذه البشارة الصادرة من السلطان العظيم المرتبة على حصول ذلك الشرط العظيم تدل على أن الشيء الذي وقعت البشارة به قد بلغ في الكمال والرفعة إلى حيث لا يصل إلى شرحها العقول والأفكار ، فثبت أن قوله (لهم البشرى) يدل على نهاية الكمال والسعادة من هذه الوجوه والله أعلم .

(واعلم أنه تعالى) لما قال (لهم البشرى) وكان هذا كالمجمل أردفه بكلام يجري مجرى التفسير والشرح له فقال تعالى (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) والمراد بعباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم وهذا يدل على أن رأس السعادات ومركز الخيرات ومعدن الكرامات هو الإعراض عن غير الله تعالى ، والإقبال بالكلية على طاعة الله ، والمقصود من هذا التنبيه على أن الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا هم الموصوفون بأنهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فوضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً

على هذا الترتيب . ومنهم من قال إنه تعالى لما بين أن الذين اجتنبوا وأنابوا لهم البشرى وكانت تلك درجة عالية لا يصل إليها إلا الأولون ، وقصر التبشير عليهم يقتضي الحرمان للأكثرين ، وذلك لا يليق بالرحمة التامة ، لا جرم ضم إليهم فقال كل من اختار الأحسن في كل باب كان في زمرة السعداء . واعلم أن هذه الآية تدل على فوائد :

(الفائدة الأولى) وجوب النظر والاستدلال ، وذلك لأنه تعالى بين أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة فإنه يختار منها ما هو الأحسن الأصوب ، ومن المعلوم أن تميز الأحسن الأصوب عما سواه لا يحصل بالسماع ، لأن السماع صار قدراً مشتركاً بين الكل ، لأن قوله (الذين يستمعون القول) يدل على أن السماع قدر مشترك فيه ، فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع وإنما يتأتى بحجة العقل ، وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل وبناء الأمر على النظر والاستدلال .

(الفائدة الثانية) أن الطريق إلى تصحيح المذاهب والأديان قسمان (أحدهما) إقامة الحجة والبينة على صحته على سبيل التفصيل ، وذلك أمر لا يمكن تحصيله إلا بالخوض في كل واحدة من المسائل على التفصيل (والثاني) أنا نترك البحث عن الدلائل وتقريرها والشبهات وترتيبها فنعرض تلك المذاهب واعتقاداتها على عقولنا ، فكل ما حكم أول العقل بأنه أفضل وأكمل كان أولى بالقبول . مثاله أن صريح العقل شاهد بأن الإقرار بأن إله العالم عالم قادر حكيم رحيم أولى من إنكار ذلك ، فكان ذلك المذهب أولى . والإقرار بأن الله تعالى لا يجري في ملكه وسلطانه إلا ما كان على وفق مشيئته أولى من القول بأن أكثر ما يجري في سلطان الله على خلاف إرادته ، وأيضاً الإقرار بأن الله فرد أحد صمد منزه عن التركيب والأعضاء أولى من القول بكونه مجتمعاً مؤلفاً . وأيضاً القول باستغنائه عن الزمان والمكان أولى من القول باحتياجه إليهما ، وأيضاً القول بأن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب أولى من القول بأنه لا يعفو عنه البتة ، وكل هذه الأبواب تدخل تحت قوله (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فهذا ما يتعلق باختيار الأحسن في أبواب الاعتقادات .

وأما ما يتعلق بأبواب التكاليف فهو على قسمين : منها ما يكون من أبواب العبادات ، ومنها ما يكون من أبواب المعاملات . فأما العبادات فمثل قولنا الصلاة التي يذكر في تحريمها الله أكبر ويكون النية فيها مقارنة للتكبير ، ويقرأ فيها سورة الفاتحة ، ويؤتى فيها بالطمأنينة في المواقف الخمسة ، ويقرأ فيها التشهد ، ويخرج منها بقوله السلام عليكم ، فلا شك أنها أحسن من الصلاة التي لا يراعى فيها شيء من هذه الأحوال ، فوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة ، وأن يترك ما سواها ، وكذلك القول في جميع أبواب العبادات . وأما المعاملات فكذلك مثل أنه تعالى شرع القصاص والدية والعفو ، ولكنه ندب إلى العفو فقال (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وعن ابن عباس

أن المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث فيه محاسن ومساوي، فيحدث بأحسن ما سمع ويترك ما سواه .

واعلم أنه تعالى حكم على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بأن قال (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) وفي ذلك دقيقة عجيبة ، وهي أن حصول الهداية في العقل والروح أمر حادث ، ولا بد له من فاعل وقابل . أما الفاعل فهو الله سبحانه وهو المراد من قوله (أولئك الذين هداهم الله) وأما القابل فإليه الإشارة بقوله (وأولئك هم أولوا الألباب) فإن الإنسان ما لم يكن عاقلا كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقية في قلبه . وإنما قلنا إن الفاعل لهذه الهداية هو الله ، وذلك لأن جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحق والاعتقاد الباطل ، وإذا كان الشيء قابلا للضدين كانت نسبة ذلك القابل إليهما على السوية ، ومتى كان الأمر كذلك امتنع كون ذلك القابل سببا لرجحان أحد الطرفين ، ألا ترى أن الجسم لما كان قابلا للحركة والسكون على السوية ، امتنع أن تصير ذات الجسم سببا لرجحان أحد الطرفين على الآخر ، فإن قالوا لا نقول إن ذات النفس تستقل بوجوب هذا الرجحان ، بل نقول إنه يريد تحصيل أحد الطرفين ، فتصير تلك الإرادة سببا لذلك الرجحان ، فنقول هذا باطل ، لأن ذات النفس كما أنها قابلة لهذه الإرادة ، فكذلك ذات العقل قابلة لإرادة مضادة لتلك الإرادة ، فيمتنع كون جوهر النفس سببا لتلك الإرادة ، فثبت أن حصول الهداية لا بد لها من فاعل ومن قابل (أما الفاعل) فيمتنع أن يكون هو النفس ، بل الفاعل هو الله تعالى (وأما القابل) فهو جوهر النفس ، فلهذا السبب قال (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) ثم قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار) وفيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ في لفظ الآية سؤال ، وهو أنه يقال إنه قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب) ولا يصح في الكلام العربي أن يدخل حرف الاستفهام على الاسم وعلى الخبر معا ، فلا يقال أزيد أفضله ، بل ههنا شيء آخر ، وهو أنه كما دخل حرف الاستفهام على الشرط وعلى الجزاء ، فكذلك دخل حرف الفاء عليهما معا ، وهو قوله (أفمن حق) ، (أفأنت تنقذ) ، ولأجل هذا السؤال اختلف النحويون وذكروا فيه وجوها (الأول) قال الكسائي الآية جملتان والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب ينجيه ، أفأنت تنقذ من في النار (الثاني) قال صاحب الكشاف : أصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، وهي جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب والتقدير أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هي الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع من في النار موضع الضمير ، والآية على هذا جملة واحدة (الثالث) لا يبعد أن يقال إن حرف الاستفهام إنما ورد ههنا لإفادة معنى الإنكار ، ولما كان استنكاره هذا

الناس كاملا تاماً . لاجرم ذكر هذا الحرف في الشرط وأعاده في الجزاء تنبيهاً على المبالغة التامة في
ذلك الإنكار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية في مسألة الهدى والضلال ، وذلك لأنه تعالى
قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب) فإذا حقت كلمة العذاب عليه امتنع منه فعل الإيمان والطاعة ،
وإلا لزم انقلاب خبر الله الصدق كذباً ، وانقلاب علمه جهلا وهو محال (والوجه الثاني) في
الاستدلال بالآية أنه تعالى حكم بأن حقية كلمة العذاب توجب الاستنكار التام من صدور الإيمان
والطاعة عنه ، ولو كان ذلك ممكناً ولم تكن حقية كلمة العذاب مانعة منه لم يبق لهذا الاستنكار
والاستبعاد معنى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج القاضي بهذه الآية على أن النبي ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر ، قال
لأنه حق عليهم العذاب فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى إنقاذهم من النار ، وأن الله تعالى حكم
عليهم بالإنكار والاستبعاد ، فيقال له لا نسلم أن أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب ، وكيف يحق
العذاب عليهم مع أن الله تعالى قال (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)
ومع قوله (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) والله أعلم .

﴿ النوع الثاني ﴾ من الأشياء التي وعدها الله هؤلاء الذين اجتنبوا وأنابوا قوله تعالى (لكن
الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية) وهذا كالمقابل لما ذكر في وصف الكفار
(لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) فإن قيل ما معنى قوله (مبنية) ؟ قلنا لأن المنزل إذا بني
على منزل آخر تحته كان الفوقاني أضعف بناء من التحتاني فقوله (مبنية) معناه أنه وإن كان فوق
غيره لكنه في القوة والشدة مساو للمنزل الأسفل ، والحاصل أن المنزل الفوقاني والتحتاني حصل
في كل واحد منهما فضيلة ومنقصة ، أما الفوقاني ففضيلته العلو والارتفاع ومنقصته الرخاوة
والسخافة ، وأما التحتاني فبالضد منه ، أما منازل الجنة فإنها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهي
عالية مرتفعة وتكون في غاية القوة والشدة ، وقال حكماء الإسلام هذه الغرف المبنية بعضها فوق
البعض ، مثاله من الأحوال النفسانية العلوم الكسبية فإن بعضها يكون مبنياً على البعض والنتائج
الأخيرة التي هي عبارة عن معرفة ذات الله وصفاته تكون في غاية القوة بل تكون في القوة
والشدة كالعلوم الأصلية البديهية .

ثم قال (تجري من تحتها الأنهار) وذلك معلوم ، ثم ختم الكلام فقال (وعد الله لا يخلف الله
الميعاد) فقوله (وعد الله) مصدر مؤكد لأن قوله (لهم غرف) في معنى وعدهم الله ذلك ، وفي
الآية دقيقة شريفة ، وهي أنه تعالى في كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله وأنه لا يخلف
وعده ، ولم يذكر في آيات الوعيد البتة مثل هذا التأكيد والتقوية ، وذلك يدل على أن جانب الوعد
أرجح من جانب الوعيد بخلاف ما يقوله المعتزلة ، فإن قالوا أليس أنه قال في جانب الوعيد (ما يبدل

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

القول لدي وما أنا بظلام للعبيد) فلما قوله ما يبدل القول لدى ليس تصريحاً بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين أعني الوعد والوعيد ، فثبت أن الترجيح الذي ذكرناه حق والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولي الألباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها ، وذلك أنه تعالى بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر وقيل كل ما كان في الأرض فهو من السماء ، ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع في الأرض ، أي فيدخله ويُنظمه ينابيع في الأرض عيوناً ، ومسالك ومجاري كالعروق في الأجسام ، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ، أو مختلفاً أصنافه من بر وشعير وسمسم ثم يهيج ، وذلك لأنه إذا تم جفافه جاز له أن ينفصل عن منابته وإن لم تتفرق أجزاؤه ، فتلك الأجزاء كأنها هاجت لأن تتفرق ثم يصير حطاماً يابساً (إن في ذلك لذكرى) يعني أن من شاهد هذه الأحوال في النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك وأنه وإن طال عمره فلابد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون متحطم الأعضاء والأجزاء ، ثم تكون عاقبته الموت ، فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال في النبات تذكره حصول مثل هذه الأحوال في نفسه وفي حياته ، فحينئذ تعظم نفرته عن الدنيا وطيباتها ، والحاصل أنه تعالى في الآيات المتقدمة ذكر ما يقوي الرغبة في الآخرة ، وذكر في هذه الآية ما يقوي النفرة عن الدنيا ، فشرح صفات القيامة يقوي الرغبة في طاعة الله ، وشرح صفات الدنيا يقوي النفرة عن الدنيا ، وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا ، لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات ، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض ، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض ، فهذا تمام الكلام في تفسير الآية ، بقي هنا ما يتعلق بالبحث عن الألفاظ ، قال الواحدي : والينابيع جمع ينبوع وهو يفعول من نبع ينبع يقال نبع الماء ينبع وينبِع وينبَع ثلاث لغات ذكرها الكسائي والفراء ، وقوله (ينابيع) نصب بحذف الخافض لأن التقدير فسلكه في ينابيع ثم يهيج أي يخضر والحطام ما يتفتت ويتكسر من النبت .

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين . الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد . أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون . كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الإعراض عن الدنيا بين بعده ذلك أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور ونور القلوب فقال (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) واعلم أنا بالغنا في سورة الأنعام في تفسير قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام)

في تفسير شرح الصدر وفي تفسير الهداية ، ولا بأس بإعادة كلام وجيز هاهنا ، فنقول إنه ثبت أن جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة إلى الإلهيات عظيمة الرغبة في الاتصال بالروحانيات ، وبعضها نذلة كدرة خسيسة مائلة إلى الجسمانيات وفي هذا التفاوت أمر حاصل في جواهر النفوس البشرية ، والاستقراء يدل على أن الأمر كذلك ، فإذا عرفت هذا فنقول المراد بشرح الصدر هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود في فطرة النفس ، وإذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلا كفى خروج تلك الحالة من القوة إلى الفعل بأدنى سبب ، مثل الكبريت الذي يشتعل بأدنى نار . أما إذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والأحوال الروحانية ، بل كانت مستغرقة في طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الأحوال المناسبة للإلهيات فكانت قاسية كدرة ظلمانية ، وكلما كان إيراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر كانت قسوتها وظلمتها أقوى . إذا عرفت هذه القاعدة فنقول . أما شرح الصدر فهو ما ذكرناه ، وأما النور فهو عبارة عن الهداية والمعرفة ، وما لم يحصل شرح الصدر أولا لم يحصل النور ثانياً ، وإذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الانتفاع البتة بسماع الدلائل ، وربما صار سماع الدلائل سبباً لزيادة القسوة ولشدة النفرة فهذه أصول يجب أن تكون معلومة عند الإنسان حتى يمكنه الوقوف على معاني هذه الآيات . أما استدلال أصحابنا في مسألة الجبر والقدر وكلام الخصوم عليه فقد تقدم هنالك والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من محذوف الخبر كما في قوله (أمن هو قانت) والتقدير : أفمن شرح الله صدره للإسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته . والجواب متروك لأن الكلام المذكور دل عليه وهو قوله تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) فيه سؤال ، وهو أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان كما قال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فكيف جعله في هذه الآية سبباً لحصول قسوة القلب ، والجواب أن نقول إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلى الطبائع البهيمية والأخلاق الذميمة ، فإن سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورة ، وتقرير هذا الكلام بالأمثلة فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه ، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح ، وقد نرى إنساناً واحداً يذكر كلاماً واحداً في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره ، وما ذاك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس ، ومن اختلاف أحوال تلك النفوس ، ولما نزل قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب وإنسان آخر فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى (ثم أنشأناه خلقاً آخر) قال كل واحد منهم (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال رسول الله ﷺ

ما كتب فهكذا أنزلت ، فازداد هو إيماناً على إيمان وازداد ذلك الإنسان كفراً على كفر . إذا عرفت هذا فلم يبعد أيضاً أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية ، ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية . إذا عرفت هذا فنقول إن رأس الأدوية التي تفيد الصحة الروحانية ورأسها هو ذكر الله تعالى ، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله تعالى سبباً لازدياد مرضها كان مرض تلك النفس مرضاً لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت في نهاية الشر والرداءة ، فلهذا المعنى قال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين) وهذا كلام كامل محقق . ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان ، والمقصود منه بيان أن القرآن لما كان موصوفاً بهذه الصفات ، ثم إنه في حق ذلك الإنسان صار سبباً لمزيد القسوة دل ذلك على أن جوهر تلك النفس قد بلغ في الرداءة والخساسة إلى أقصى الغايات . فنقول إنه تعالى وصف القرآن بأنواع من صفات الكمال .

(الصفة الأولى) قوله تعالى (الله نزل أحسن الحديث) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه : (الأول) أنه تعالى وصفه بكونه حديثاً في هذه الآية وفي آيات أخرى منها قوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله) ومنها قوله تعالى (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) والحديث لابد وأن يكون حادثاً ، قالوا بل الحديث أقوى في الدلالة على الحدوث من الحادث لأنه يصح أن يقال هذا حديث وليس بعتيق ، وهذا عتيق وليس بحديث ، فثبت أن الحديث هو الذي يكون قريب العهد بالحدوث ، وسمي الحديث حديثاً لأنه مؤلف من الحروف والكلمات ، وتلك الحروف والكلمات تحدث حالاً فحالاً وساعة فساعة ، فهذا تمام تقرير هذا الوجه .

أما (الوجه الثاني) في بيان استدلال القوم أن قالوا : إنه تعالى وصفه بأنه نزله والمنزل يكون في محل تصرف الغير ، وما يكون كذلك فهو محدث وحادث .

وأما (الوجه الثالث) في بيان استدلال القوم أن قالوا : إن قوله أحسن الحديث يقتضي أن يكون هو من جنس سائر الأحاديث كما أن قوله زيد أفضل الإخوة يقتضي أن يكون زيد مشاركاً لأولئك الأقوام في صفة الأخوة ويكون من جنسهم ، فثبت أن القرآن من جنس سائر الأحاديث ، ولما كان سائر الأحاديث حادثة وجب أيضاً أن يكون القرآن حادثاً .

أما (الوجه الرابع) في الاستدلال أن قالوا إنه تعالى وصفه بكونه كتاباً والكتاب مشتق من الكتبة وهي الاجتماع ، وهذا يدل على أنه مجموع جامع ومحل تصرف متصرف ، وذلك يدل على كونه محدثاً (والجواب) أن نقول نحمل هذا الدليل على الكلام المؤلف من الحروف والأصوات والألفاظ والعبارات ، وذلك الكلام عندنا محدث مخلوق والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كون القرآن أحسن الحديث ، إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه .

﴿ القسم الأول ﴾ أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين : ﴿ الأول ﴾ أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة ﴿ والثاني ﴾ أن يكون بحسب النظم في الأسلوب ، وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر ، ولا من جنس الخطب ، ولا من جنس الرسائل ، بل هو نوع يخالف الكل ، مع أن كل ذي طبع سليم يستطيبه ويستلذه .

﴿ القسم الثاني ﴾ أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى ، وفيه وجوه : ﴿ الأول ﴾ أنه كتاب منزه عن التناقض ، كما قال تعالى ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ومثل هذا الكتاب إذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات ﴿ الوجه الثاني ﴾ اشتماله على الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل ﴿ الوجه الثالث ﴾ أن العلوم الموجودة فيه كثيرة جداً .

وضبط هذه العلوم أن نقول : العلوم النافعة هي ما ذكره الله في كتابه في قوله ﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ فهذا أحسن ضبط يمكن ذكره للعلوم النافعة .

﴿ أما القسم الأول ﴾ وهو الإيمان بالله ، فاعلم أنه يشتمل على خمسة أقسام : معرفة الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء . أما معرفة الذات فهي أن يعلم وجود الله وقدمه وبقاءه ، وأما معرفة الصفات فهي نوعان :

﴿ أحدهما ﴾ ما يجب تنزيهه عنه ، وهو كونه جوهراً ومركباً من الأعضاء والأجزاء ، وكونه مختصاً بحيز وجهة ، ويجب أن يعلم أن الألفاظ الدالة على التنزيه أربعة : ليس ولم وما ولا ، وهذه الأربعة المذكورة مذكورة في كتاب الله تعالى لبيان التنزيه .

أما كلمة ليس ، فقوله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وأما كلمة لم ، فقوله ﴿ لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وأما كلمة ما ، فقوله ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ ، ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ وأما كلمة لا ، فقوله تعالى ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ ، ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ ، ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ ، وقوله في سبعة وثلاثين موضعاً من القرآن ﴿ لا إله إلا الله ﴾ .

﴿ وأما النوع الثاني ﴾ وهي الصفات التي يجب كونه موصوفاً بها من القرآن ﴿ فأولها ﴾ العلم بالله ، والعلم بكونه محدثاً خالقاً ، قال تعالى ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ﴾ ﴿ وثانيها ﴾ العلم بكونه قادراً ، قال تعالى في أول سورة القيامة ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ وقال في آخر هذه السورة ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ﴿ وثالثها ﴾ العلم بكونه تعالى عالماً ، قال تعالى ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾ ﴿ ورابعها ﴾ العلم بكونه عالماً بكل المعلومات ، قال تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ وقوله تعالى ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ ﴿ وخامسها ﴾ العلم

بكونه حياً ، قال تعالى (هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين) (وسادسها) العلم بكونه مريداً ، قال الله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) (وسابعها) كونه سميعاً بصيراً ، قال تعالى (وهو السميع البصير) وقال تعالى (إنني معكما أسمع وأرى) (وثامنها) كونه متكلماً ، قال تعالى (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) (وتاسعها) كونه آمراً ، قال تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) (وعاشرها) كونه رحماناً رحيماً مالكاً ، قال تعالى (الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) فهذا ما يتعلق بمعرفة الصفات التي يجب اتصافه بها .

(وأما القسم الثالث) وهو الأفعال ، فاعلم أن الأفعال إما أرواح وإما أجسام . أما الأرواح فلا سبيل إلى الوقوف عليها إلا بالقليل ، كما قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وأما الأجسام ، فهي إما العالم الأعلى وإما العالم الأسفل . أما العالم الأعلى فالبحث فيه من وجوه (أحدها) البحث عن أحوال السموات . و (ثانيها) البحث عن أحوال الشمس والقمر كما قال تعالى (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) و (ثالثها) البحث عن أحوال الأضواء ، قال الله تعالى (الله نور السموات والأرض) وقال تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) و (رابعها) البحث عن أحوال الظلال ، قال الله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً) و (خامسها) اختلاف الليل والنهار ، قال الله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) و (سادسها) منافع الكواكب ، قال تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) و (سابعها) صفات الجنة ، قال تعالى (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) و (ثامنها) صفات النار ، قال تعالى (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) و (تاسعها) صفة العرش ، قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله) و (عاشرها) صفة الكرسي ، قال تعالى (وسع كرسيه السموات والأرض) و (حادي عشرها) صفة اللوح والقلم . أما اللوح ، فقوله تعالى (بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ) وأما القلم ، فقوله تعالى (ن والقلم وما يسطرون) .

وأما شرح أحوال العالم الأسفل (فأولها) الأرض ، وقد وصفها بصفات كثيرة (إحداها) كونه مهداً ، قال تعالى (الذي جعل لكم الأرض مهداً) و (ثانيها) كونه مهاداً ، قال تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً) و (ثالثها) كونه كفاتاً ، قال تعالى (ألم نجعل الأرض كفاتاً . أحياء وأمواتاً) و (رابعها) الذلول ، قال تعالى (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً) و (خامسها) كونه بساطاً ، قال تعالى (والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً) والكلام فيه طويل و (ثانيها) البحر قال تعالى (وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً) و (ثالثها) الهواء والرياح ، قال تعالى

(وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته) وقال تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) و(رابعها) الآثار العلوية كالرعد والبرق، قال تعالى (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) وقال تعالى (فترى الودق يخرج من خلاله) ومن هذا الباب ذكر الصواعق والأمطار وتراكم السحاب و(خامسها) أحوال الأشجار والثمار وأنواعها وأصنافها. و(سادسها) أحوال الحيوانات، قال تعالى (وبث فيها من كل دابة) وقال (والأنعام خلقها لكم) و(سابعها) عجائب تكوين الإنسان في أول الخلقة، قال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) و(ثامنها) العجائب في سمعه وبصره وإدراكه وعقله وفهمه و(تاسعها) تواريخ الأنبياء والملوك وأحوال الناس من أول خلق العالم إلى آخر قيام القيامة. و(عاشرها) ذكر أحوال الناس عند الموت وبعد الموت، وكيفية البعث والقيامة، وشرح أحوال السعداء والأشقياء. فقد أشرنا إلى عشرة أنواع من العلوم في عالم السموات، وإلى عشرة أخرى في عالم العناصر، والقرآن مشتمل على شرح هذه الأنواع من العلوم العالية الرفيعة.

(وأما القسم الرابع) وهو شرح أحكام الله تعالى وتكاليفه، فنقول هذه التكاليف إما أن تحصل في أعمال القلوب أو في أعمال الجوارح.

(أما القسم الأول) فهو المسمى بعلم الأخلاق وبيان تمييز الأخلاق الفاضلة والأخلاق الفاسدة، والقرآن يشتمل على كل ما لا بد منه في هذا الباب. قال الله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) وقال (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين).

(وأما الثاني) فهو التكاليف الحاصلة في أعمال الجوارح وهو المسمى بعلم الفقه والقرآن مشتمل على جملة أصول هذا العلم على أكمل الوجوه.

(وأما القسم الخامس) وهو معرفة أسماء الله تعالى فهو مذكور في قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وهذا كله يتعلق بمعرفة الله.

(وأما القسم الثاني) من الأصول المعتبرة في الإيمان الإقرار بالملائكة كما قال تعالى (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته) والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الإجمال وأخرى على طريق التفصيل، أما بالإجمال فقوله (وملائكته) وأما بالتفصيل فمنها ما يدل على كونهم رسل الله قال تعالى (جاعل الملائكة رسلا) ومنها أنها مدبرات لهذا العالم، قال تعالى (فالمقسمات أمرا فالمدبرات أمرا) وقال تعالى (والصافات صفا) ومنها حملة العرش قال (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) ومنها الحافون حول العرش قال (وترى الملائكة حافين من حول العرش) ومنها خزنة النار قال تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد) ومنها الكرام الكاتبون قال (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين) ومنها المعقبات قال تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين

(وأما القسم الثالث) من الأصول المعتبرة في الإيمان معرفة الكتب والقرآن يشتمل على شرح أحوال كتاب آدم عليه السلام قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) ومنها أحوال صحف إبراهيم عليه السلام قال تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) ومنها أحوال التوراة والإنجيل والزبور

(وأما القسم الرابع) من الأصول المعتبرة في الإيمان معرفة الرسل والله تعالى قد شرح أحوال البعض وأبهم أحوال الباقين قال (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك)

(القسم الخامس) ما يتعلق بأحوال المكلفين وهي على نوعين (الأول) أن يقروا بوجوب هذه التكاليف عليهم وهو المراد من قوله (وقالوا سمعنا وأطعنا) . (الثاني) أن يعترفوا بصدور التقصير عنهم في تلك الأعمال ثم طلبوا المغفرة وهو المراد من قوله (غفرانك ربنا) ثم لما كانت مقادير رؤية التقصير في مواقف العبودية بحسب المكاشفات في مطالعة عزة الربوبية أكثر ، كانت المكاشفات في تقصير العبودية أكثر وكان قوله (غفرانك ربنا) أكثر .

(القسم السادس) معرفة المعاد والبعث والقيامة وهو المراد من قوله (وإليك المصير) وهذا هو الإشارة إلى معرفة المطالب المهمة في مطالب الدين ، والقرآن بحر لا نهاية له في تقرير هذه المطالب وتعريفها وشرحها ولا ترى في مشارق الأرض ومغاربها كتاباً يشتمل على جملة هذه العلوم كما يشتمل القرآن عليها . ومن تأمل في هذا التفسير علم أنا لم نذكر من بحار فضائل القرآن إلا قطرة ، ولما كان الأمر على هذه الجملة . لا جرم مدح الله عز وجل القرآن فقال تعالى (الله نزل أحسن الحديث) والله أعلم

(الصفة الثانية) من صفات القرآن قوله تعالى (كتاباً متشابهاً) أما الكتاب فقد فسرناه في قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وأما كونه متشابهاً فاعلم أن هذه الآية تدل على أن القرآن كله متشابه . وقوله (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) يدل على كون البعض متشابهاً دون البعض . وأما كونه كله متشابهاً كما في هذه الآية ، فقال ابن عباس معناه أنه يشبه بعضه بعضاً . وأقول هذا التشابه يحصل في أمور (أحدها) أن الكاتب البليغ إذا كتب كتاباً طويلاً ، فإنه يكون بعض كلماته فصيحاً ، ويكون البعض غير فصيح ، والقرآن يخالف ذلك فإنه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه (وثانيها) أن الفصيح إذا كتب كتاباً في واقعة بألفاظ فصيحة فلو كتب كتاباً آخر في غير تلك الواقعة كان الغالب أن كلامه في الكتاب الثاني غير كلامه في الكتاب الأول ، والله تعالى حكى قصة موسى عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة في الفصاحة (وثالثها) أن كل ما فيه من الآيات والبينات فإنه يقوي بعضها بعضاً ويؤكد بعضها بعضاً (ورابعها) أن هذه الأنواع الكثيرة من العلوم التي عددناها متشابهة مشتركة في أصل القصود منها بأسرها الدعوة إلى

الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات ، تارة تقشعر جلودهم وأخرى تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . وليس فيه أن عقولهم تزول وأن أعضاءهم تضطرب ، فدل هذا على أن تلك الأحوال لو حصلت لكانت من الشيطان . وأقول ههنا بحث آخر وهو أن الشيخ أبا حامد الغزالي أورد مسألة في كتاب إحياء علوم الدين ، وهي أنا نرى كثيراً من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الأبيات المشتملة على شرح الوصل والهجر ، وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شيء من هذه الأحوال ، ثم إنه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه كثيرة . وأنا أقول : إني خلقت محروماً عن هذا المعنى ، فإني كلما تأملت في أسرار القرآن اقشعر جلدي ووقف على شعري وحصلت في قلبي دهشة وروعة ، وكلما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل علي وما وجدت البتة في نفسي منها أثراً . وأعلم أن المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا ، وبيانه من وجوه (الأول) أن تلك الأشعار كلمات مشتملة على وصل وهجر وبغض وحب تليق بالخلق ، وإثباته في حق الله تعالى كفر ، وأما الانتقال من تلك الأحوال إلى معان لائقة بجلال الله فلا يصل إليها إلا العلماء الراسخون في العلم ، وأما المعاني التي يشتمل عليها القرآن فهي أحوال لائقة بجلال الله ، فمن وقف عليها عظم الوله في قلبه ، فإن من كان عنده نور الإيمان وجب أن يعظم اضطرابه عند سماع قوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) إلى آخر الآية (والثاني) وهو أني سمعت بعض المشايخ قال كما أن الكلام له أثر فكذلك صدور ذلك الكلام من القائل المعين له أثر ، لأن قوة نفس القائل تعين على نفاذ الكلام في الروح ، والقائل في القرآن هو الله بواسطة جبريل بتبليغ الرسول المعصوم ، والقائل هناك شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور (والثالث) أن مدار القرآن على الدعوة إلى الحق قال تعالى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض) وأما الشعر فمداره على الباطل قال تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فهذه الوجوه الثلاثة فروق ظاهرة ، وأما ما يتعلق بالوجدان من النفس فإن كل أحد إنما يخبر عما يجده من نفسه والذي وجدته من النفس والعقل ما ذكرته والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في بيان ما بقي من المشكلات في هذه الآية ونذكرها في معرض السؤال والجواب .

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف تركيب لفظ تقشعر (الجواب) قال صاحب الكشاف تركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعياً ودالاً على معنى زائد يقال : اقشعر جلده من الخوف وقف شعره ، وذلك مثل في شدة الخوف .

﴿ السؤال الثاني ﴾ كيف قال (تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) وما الوجه في تعديته

بحرف إلى ؟ (والجواب) التقدير تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها إلى حضرة الله وهو لا يحس بالإدراك .

(السؤال الثالث) لم قال إلى ذكر الله ولم يقل إلى ذكر رحمة الله ؟ (والجواب) أن من أحب الله لأجل رحمته فهو ما أحب الله ، وإنما أحب شيئاً غيره ، وأما من أحب الله لا لشيء سواه فهذا هو المحب الحق وهو الدرجة العالية ، فلهذا السبب لم يقل ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر رحمة الله بل قال إلى ذكر الله ، وقد بين الله تعالى هذا المعنى في قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) وفي قوله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وأيضاً قال لأمة موسى (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) وقال أيضاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم (فاذكروني أذكركم) .

(السؤال الرابع) لم قال في جانب الخوف قشعريرة الجلود فقط ، وفي جانب الرجاء لين الجلود والقلوب معاً ؟ (والجواب) لأن المكاشفة في مقام الرجاء أكمل منها في مقام الخوف ، لأن الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ومحل المكاشفات هو القلوب والأرواح والله أعلم .

ثم إنه تعالى لما وصف القرآن بهذه الصفات قال (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) فقوله (ذلك) إشارة إلى الكتاب وهو هدى الله يهدي به من يشاء من عباده وهو الذي شرح صدره أولاً لقبول هذه الهداية (ومن يضلل الله) أي من جعل قلبه قاسياً مظلماً بليد الفهم منافياً لقبول هذه الهداية (فما له من هاد) واستدلال أصحابنا بهذه الآية وسؤالات المعتزلة وجوابات أصحابنا عين ما تقدم في قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

أما قوله تعالى (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) فاعلم أنه تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا وبحكم في الآخرة ، أما حكمهم في الدنيا فهو الضلال التام كما قال (ومن يضلل الله فما له من هاد) وأما حكمهم في الآخرة فهو العذاب الشديد وهو المراد من قوله (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) وتقريره أن أشرف الأعضاء هو الوجه لأنه محل الحسن والصباحة ، وهو أيضاً صومعة الحواس ، وإنما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه ، وأثر السعادة والشقاوة لا يظهر إلا في الوجه قال تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة) ويقال لمقدم القوم يا وجه العرب ، ويقال للطريق الدال على كنه حال الشيء وجه كذا هو كذا ، فثبت بما ذكرنا أن أشرف الأعضاء هو الوجه ، فإذا وقع الإنسان في نوع من أنواع العذاب فإنه يجعل يده وقاية لوجهه وفداء له ، وإذا عرفت هذا فنقول إذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ما سوى الوجه فداء للوجه لا جرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء ، ونظيره قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

أي لا عيب فيهم إلا هذا وهو ليس بعيب فلا عيب فيهم إذن بوجه من الوجوه، فكذا هاهنا لا يقدرون على الاتقاء بوجه من الوجوه إلا بالوجه وهذا ليس باتقاء، فلا قدرة لهم على الاتقاء البتة. ويقال أيضاً إن الذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ولا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه. إذا عرفت هذا فنقول: جوابه محذوف وتقديره أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره. وسوء العذاب شدته.

ثم قال تعالى (وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون) ولما بين الله تعالى كيفية عذاب القاسية قلوبهم في الآخرة بين أيضاً كيفية وقوعهم في العذاب في الدنيا فقال (كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) وهذا تنبيه على حال هؤلاء لأن الفاء في قوله (فأتاهم العذاب) تدل على أنهم إنما أتاهم العذاب بسبب التكذيب، فإذا كان التكذيب حاصلاً هاهنا لزم حصول العذاب استدلالاً بالعلة على المعلول، وقوله (من حيث لا يشعرون) أي من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها، بينما هم آمنون إذ أتاهم العذاب من الجهة التي توقعوا الأمن منها. ولما بين أنه أتاهم العذاب في الدنيا بين أيضاً أنه أتاهم الخزي وهو الذل والصغار والهوان، والفائدة في ذكر هذا القيد أن العذاب التام هو أن يحصل فيه الألم مقروناً بالهوان والذل.

ثم قال (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) يعني أن أولئك وإن نزل عليهم العذاب والخزي كما تقدم ذكره، فالعذاب المدخر لهم في يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذي وقع، والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب. فلما ذكر الله تعالى هذه الفوائد المتكاثرة والنفائس المتوافرة في هذه المطالب، بين تعالى أنه بلغت هذه البيانات إلى حد الكمال والتمام فقال (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) والمقصود ظاهر. وقالت المعتزلة دلت الآية على أن أفعال الله وأحكامه معللة، ودلت أيضاً على أنه يريد الإيمان والمعرفة من الكل لأن قوله (ولقد ضربنا للناس) مشعر بالتعليل، وقوله في آخر الآية (لعلهم يتذكرون) مشعر بالتعليل أيضاً، ومشعر بأن المقصود من ضرب هذه الأمثال إرادة حصول التذكر والعلم. ولما كانت هذه البيانات النافعة والبينات الباهرة موجودة في القرآن، لا جرم وصف القرآن بالمدح والثناء، فقال (قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون) وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه (الأول) أن قوله (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) يدل على أنه تعالى إنما ذكر هذه الأمثال ليحصل لهم التذكر، والشيء الذي يؤتى به لغرض آخر يكون محدثاً، فإن القديم هو الذي يكون موجوداً في الأزل، وهذا يمتنع أن يقال إنه إنما أتى به لغرض كذا وكذا،

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(والثاني) أنه وصفه بكونه عربياً وإنما كان عربياً لأن هذه الألفاظ إنما صارت دالة على هذه المعاني بوضع العرب وباصطلاحهم ، وما كان حصوله بسبب أوضاع العرب واصطلاحاتهم كان مخلوقاً محدثاً (والثالث) أنه وصفه بكونه قرآناً والقرآن عبارة عن القراءة والقراءة مصدر والمصدر هو المفعول المطلق فكان فعلا ومفعولا (والجواب) أنا نحمل كل هذه الوجوه على الحروف والأصوات وهي حادثة ومحدثة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج قوله (عربيا) منصوب على الحال والمعنى ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عربيته وبيانه ، ويجوز أن ينتصب على المدح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى وصفه بصفات ثلاثة (أولها) كونه قرآناً ، والمراد كونه متلواً في المحاريب إلى قيام القيامة ، كما قال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ، (وثانيها) كونه عربياً والمراد أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وثالثها) كونه (غير ذي عوج) والمراد براءته عن التناقض ، كما قال (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وأما قوله (لعلهم يتقون) فالمعتزلة يتمسكون به في تعليل أحكام الله تعالى .

(وفيه بحث آخر) وهو أنه تعالى قال في الآية الأولى (لعلهم يتذكرون) وقال في هذه الآية (لعلهم يتقون) والسبب فيه أن التذكر متقدم على الاتقاء ، لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه ، حصل الاتقاء والاحتراز والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون . فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل ما يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم فقال (ضرب الله مثلا) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ المتشاكسون المختلفون العسرون يقال شكس يشكس شكوساً وشكساً إذا عسر، وهو رجل شكس، أي عسر، وتشاكس إذا تعاسر. قال الليث: التشاكس التنازع والاختلاف، ويقال الليل والنهار متشاكسان، أي أنهما متضادان إذا جاء أحدهما ذهب الآخر. وقوله فيه صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه.

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو سالماً بالألف وكسر اللام يقال سلم فهو سالم والباقون سلماً بفتح السين واللام بغير الألف، ويقال أيضاً بفتح السين وكسرها مع سكون اللام أما من قرأ سالماً فهو اسم الفاعل تقدير سلم فهو سالم، وأما سائر القراءات فهي مصادر سلم والمعنى ذا سلامة، وقوله (لرجل) أي ذا خلوص له من الشركة من قولهم: سلمت له الضيعة، وقرىء بالرفع على الابتداء أي وهناك رجل سالم لرجل.

﴿المسألة الثالثة﴾ تقدير الكلام: اضرب لقومك مثلاً وقل لهم ما يقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع، كل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجاذبونه في حوائجهم وهو متحير في أمره، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون، وإذا احتاج في مهم إليهم فكل واحد منهم يرده إلى الآخر، فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه، وأيهم يعينه في حاجاته، فهو بهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم، ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص، وذلك المخدوم يعينه على مهماته، فأي هذين العبدين أحسن حالاً وأحمد شأناً، والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة، كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقال (ولعلا بعضهم على بعض) فيبقى ذلك المشرك متحيراً ضالاً، لا يدري أي هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد، وممن يطلب رزقه، وممن يلتمس رفقه، فهمه شعاع، وقلبه أوزاع، أما من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه، فكان حال هذا أقرب إلى الصلاح من حال الأول، وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد، فإن قيل: هذا المثال لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنها جمادات، فليس بينها منازعة ولا مشاكسة، قلنا إن عبدة الأصنام مختلفون منهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة، فهم في الحقيقة إنما يعبدون الكواكب السبعة، ثم إن القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة، ألا ترى أنهم يقولون زحل هو النحس الأعظم، والمشتري هو السعد الأعظم، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأرواح الفلكية، والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الأرواح السماوية، وحينئذ يحصل بين تلك الأرواح منازعة ومشاكسة، وحينئذ يكون المثل مطابقاً، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأشخاص من العلماء والزهاد الذين مضوا، فهم يعبدون هذه التماثيل لتصير أولئك الأشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله، والقائلون

﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾

بهذا القول، تزعم كل طائفة منهم أن الحق هو ذلك الرجل الذي هو على دينه، وأن من سواه مبطل، وعلى هذا التقدير أيضاً ينطبق المثال، ثبت أن هذا المثال مطابق للمقصود.

أما قوله تعالى (هل يستويان مثلا) فالتقدير هل يستويان صفة، فقوله (مثلا) نصب على التمييز، والمعنى هل تستوي صفتاهما وحالاتهما، وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ مثلين، ثم قال (الحمد لله) والمعنى أنه لما بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد، وثبت أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الحق، ثبت أن الحمد له لا لغيره، ثم قال تعالى (بل أكثرهم لا يعلمون) أي لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره، وأن المستحق للعبادة هو الله لا غيره، وقيل المراد أنه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة والبينات الباهرة، قال الحمد لله على حصول هذه البيانات وظهور هذه البينات، وإن كان أكثر الخلق لم يعرفوها ولم يقفوا عليها، ولما قرر الله هذه البينات قال (إنك ميت وإنهم ميتون) والمراد أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم في الدنيا، فلا تبال يا محمد بهذا فإنك ستموت وهم أيضاً سيموتون، ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى، والعادل الحق يحكم بينكم فيوصل إلى كل واحد ما هو حقه، وحينئذ يتميز المحق من المبطل، والصديق من الزنديق، فهذا هو المقصود من الآية، وقوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) أي إنك وإياهم وإن كنتم أحياء فإنك وإياهم في أعداد الموتى، لأن كل ما هو آت آت، ثم بين تعالى نوعاً آخر من قبائح أفعالهم، وهو أنهم يكذبون ويضمون إليه أنهم يكذبون القائل المحق. أما أنهم يكذبون، فهو أنهم أثبتوا لله ولداً وشركاء. وأما أنهم مصرون على تكذيب الصادقين، فلأنهم يكذبون محمداً ﷺ بعد قيام الدلالة القاطعة على كونه صادقاً في ادعاء النبوة، ثم أردفه بالوعيد فقال (أليس في جهنم مثوى للكافرين) ومن الناس من تمسك بهذه الآية في تكفير المخالف من أهل القبلة، وذلك لأن المخالف في المسائل القطعية كلها يكون كاذباً في قوله، ويكون مكذباً للمذهب الذي هو الحق، فوجب دخوله تحت هذا الوعيد.

قوله تعالى : ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين، ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧)

يعملون . أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين والمكذبين للصادقين ذكر عقيبه وعد الصادقين ووعد المصدقين ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (والذي جاء بالصدق وصدق به) تقديره : والذي جاء بالصدق والذي صدق به . وفيه قولان (الأول) أن المراد شخص واحد فالذي جاء بالصدق محمد ، والذي صدق به هو أبو بكر ، وهذا القول مروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضي الله عنهم (والثاني) أن المراد منه كل من جاء بالصدق ، فالذي جاء بالصدق الأنبياء ، والذي صدق به الأتباع ، واحتج القائلون بهذا القول بأن الذي جاء بالصدق جماعة وإلا لم يجز أن يقال (أولئك هم المتقون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن الرسالة لا تتم إلا بأركان أربعة : المرسل والمرسل والرسالة والمرسل إليه ، والمقصود من الإرسال إقدام المرسل إليه على القبول والتصديق . فأول شخص أتى بالتصديق هو الذي يتم به الإرسال ، وسمعت بعض القاصين من الذي يروى عن النبي ﷺ أنه قال « دعوا أبا بكر فإنه من تتمة النبوة » .

واعلم أن سواء قلنا المراد بالذي صدق به شخص معين ، أو قلنا المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، فإن أبا بكر داخل فيه .

(أما على التقدير الأول) فدخول أبي بكر فيه ظاهر ، وذلك لأن هذا يتناول أسبق الناس إلى التصديق ، وأجمعوا على أن الأسبق الأفضل إما أبو بكر وإما علي ، وحمل هذا اللفظ على أبي بكر أولى ، لأن علياً عليه السلام كان وقت البعثة صغيراً ، فكان كالولد الصغير الذي يكون في البيت ، ومعلوم أن إقدامه على التصديق لا يفيد مزيد قوة وشوكة ، أما أبو بكر فإنه كان رجلا كبيراً في السن كبيراً في المنصب ، فإقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة في الإسلام ، فكان حمل هذا اللفظ على أبي بكر أولى .

(وأما على التقدير الثاني) فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وعلى هذا التقدير يكون أبو بكر داخلا فيه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء وصدق بالتخفيف أي صدق به الناس ، ولم

بكذبهم إياه أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف ، وقيل صار صادقاً به أي بسببه ، لأن القرآن معجزة ، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح فيصير المدعي للرسالة صادقاً بسبب تلك المعجزة وقرئ وصدق

واعلم أنه تعالى أثبت للذي جاء بالصدق وصدق به أحكاماً كثيرة .

(فالحكم الأول) قوله (أولئك هم المتقون) وتقريره أن التوحيد والشرك ضدان ، وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثاني أخس وأرذل ، ولما كان التوحيد أشرف الأشياء كان الشرك أخس الأشياء ، والآتي بأحد الضدين يكون تاركاً للضد الثاني ، فالآتي بالتوحيد الذي هو أفضل الأشياء يكون تاركاً للشرك الذي هو أخس الأشياء وأرذلها ، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين .

(الحكم الثاني) للمصدقين قوله تعالى (لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) . وهذا الوعد يدخل فيه كل ما يرغب المكلف فيه ، فإن قيل لاشك أن الكمال محبوب لذاته مرغوب فيه لذاته ، وأهل الجنة لاشك أنهم عقلاء فإذا شاهدوا الدرجات العالية التي هي للأنبياء وأكابر الأولياء عرفوا أنها خيرات عالية ودرجات كاملة ، والعلم بالشيء من حيث إنه كمال ، وخير يوجب الميل إليه والرغبة فيه ، وإذا كان كذلك فهم يشاءون حصول تلك الدرجات لأنفسهم فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية ، وأيضاً فإن لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا في الغصة ووحشة القلب ، وأجيب عنه بأن الله تعالى يزيل الحقد والحسد عن قلوب أهل الآخرة ، وذلك يقتضي أن أحوالهم في الآخرة بخلاف أحوالهم في الدنيا ، ومن الناس من تمسك بهذه الآية في أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة ، قالوا إن الذين يعتقدون أنهم يرون الله تعالى لاشك أنهم داخلون تحت قوله تعالى (وصدق به) لأنهم صدقوا الأنبياء عليهم السلام ، ثم إن ذلك الشخص يريد رؤية الله تعالى فوجب أن يحصل له ذلك لقوله تعالى (لهم ما يشاءون عند ربهم) فإن قالوا لانسلم أن أهل الجنة يشاءون ذلك ، قلنا هذا باطل لأن الرؤية أعظم وجوه التجلي وزوال الحجاب ، ولا شك أنها حالة مطلوبة لكل أحد نظراً إلى هذا الاعتبار ، بل لو ثبت بالدليل كون هذا المطلوب ممتنع الوجود لعله فإنه يترك طلبه ، لا لأجل عدم المقتضي للطلب ، بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعاً في نفسه ، فثبت أن هذه المشيئة قائمة والنص يقتضي حصول كل ما أرادوه وشاءوه فوجب حصولها .

واعلم أن قوله (عند ربهم) لا يفيد العندية بمعنى الجهة والمكان بل بمعنى الصمدية والإخلاص كما في قوله تعالى (عند مليك مقتدر) واعلم أن المعتزلة تمسكوا بقوله (وذلك جزاء المحسنين) على أن هذا الأجر مستحق لهم على إحسانهم في العبادة .

(الحكم الثالث) قوله تعالى (ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) فقوله (لهم ما يشاءون عند ربهم) يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه

وقوله (ليكفر الله عنهم) يدل على حصول العقاب عنهم على أكمل الوجوه ، وقيل المراد أنهم إذا صدقوا الأنبياء عليهم فيما أنزلوا فإن الله يكفر عنهم أسوأ أعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الإيمان ، ويوصل إليهم أحسن أنواع الثواب ، وقال مقاتل يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوى . واعلم أن مقاتلا كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لا يضر شيء من المعاصي مع الإيمان ، كما لا ينفع شيء من الطاعات مع الكفر ، واحتج بهذه الآية فقال إنها تدل على أن من صدق الأنبياء والرسل فإنه تعالى يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ولا يجوز حمل هذا الأسوأ على الكفر السابق ، لأن الظاهر من الآية يدل على أن التكفير إنما حصل فى حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر التى يأتى بها بعد الإيمان ، فتكون هذه الآية تنصيصاً على أنه تعالى يكفر عنهم بعد إيمانهم أسوأ ما يأتون به وذلك هو الكبائر .

(الحكم الرابع) أنه جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) ذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك فى النفوس والأمر كذلك ، لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غنى عن كل الحاجات فهو تعالى عالم بحاجات العبد وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات ، وهو ليس بخيلا ولا محتاجاً حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد ، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات ، فلهذا قال (أليس الله بكاف عبده) ولما ذكر الله هذه المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال (ويخوفونك بالذين من دونه) يعنى لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثاً وباطلا ، قرأ أكثر القراء عبده بلفظ الواحد وهو اختيار أبى عبيدة لأنه قال له (ويخوفونك) روى أن قريشاً قالت للنبى ﷺ إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقرأ جماعة (عباده) بلفظ الجمع قيل المراد بالعباد الأنبياء فإن نوحاً كفاه الغرق ، وإبراهيم النار ، ويونس بالإنجاء مما وقع له ، فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك ، وقيل أمم الأنبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى (وهمت كل أمة برسولهم) وكفاهم الله شر من عاداهم .

واعلم أنه تعالى لما أطنب فى شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هى الفصل الحق فقال (ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل) يعنى هذا الفضل لا ينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله (أليس الله بعزيز ذى انتقام) تهديد للكفار .

واعلم أن أصحابنا يتمسكون فى مسألة خلق الأعمال وإرادة الكائنات بقوله (ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل) والكلام فيه من الجانبين معلوم والمعتزلة يتمسكون

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

على صحة مذهبهم في هاتين المسألتين بقوله (أليس الله بعزيز ذي انتقام) ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به .

قوله تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ، قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون ، من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أطنب في وعيد المشركين وفي وعد الموحدين عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام ، وفي هذا التزييف عن أصلين :

(الأصل الأول) هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) واعلم أن من الناس من قال إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه . وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض وفي عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة ، علم أنه لابد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم .

(والأصل الثاني) أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته) فثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم ، وثبت أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر ، وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية ، وكان الاعتماد عليه كافياً وهو المراد من قوله (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل

إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

إلى تخويف المشركين مكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) وقرئ (كاشفات ضره ، وممسكات رحمته) بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف . فإن قيل كيف قوله (كاشفات) و (ممسكات) على التأنيث بعد قوله (ويخوفونك بالذين من دونه) ؟ قلنا المقصود التنبيه على كمال ضعفها فإن الأنوثة مظنة الضعف ولأنهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة ، ولما أورد الله عليهم هذه الحجة التي لا دفع لها قال بعده على وجه التهديد (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم) أي أنتم تعتقدون في أنفسكم أنكم في نهاية القوة والشدة فاجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم . فإني عامل أيضاً في تقرير ديني (فسوف تعلمون) أن العذاب والخزي يصيبني أو يصيبكم والمقصود منه التخويف .

قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل . الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن النبي ﷺ كان يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا) وقال (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وقال تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) ولما أطنب الله تعالى في هذه الآية في فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد أردفه بكلام يزيل

ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول ﷺ فقال (إنا أنزلنا عليك الكتاب) الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلنا إنزاله مقروناً بالحق وهو المعجز الذي يدل على أنه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود إليه ، ومن ضل فضرر ضلاله يعود إليه (وما أنت عليهم بوكيل) والمعنى أنك لست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر ، بل القبول وعدمه مفوض إليهم ، وذلك لتسلية الرسول في إصرارهم على الكفر ، ثم بين تعالى أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، وذلك لأن الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم ، وكما أن الحياة واليقظة وكذلك الموت والنوم لا يحصلان إلا بتخليق الله عز وجل وإيجاده فكذلك الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى في القدر ، ومن عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب ، فيصير التنبيه على هذه الحقيقة سبباً لزوال ذلك الحزن عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا وجه النظم في الآية ؛ وقيل نظم الآية أنه تعالى ذكر حجة أخرى في إثبات أنه الإله العالم ليدل على أنه بالعبادة أحق من هذه الأصنام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المقصود من الآية أنه تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم إلا أنه يمسك الأنفس التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى وهي النائمة إلى أجل مسمى أي إلى وقت ضربه لموتها فقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) يعني أنه تعالى يتوفى الأنفس التي يتوفاها عند الموت يمسكها ولا يردها إلى البدن وقوله (ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) يعني أن النفس التي يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة إلى أجل مسمى ، وذلك الأجل هو وقت الموت فهذا تفسير لفظ الآية وهو مطابقة للحقيقة ، ولكن لابد فيه من مزيد بيان ، فنقول النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء وهو الحياة ، فنقول إنه في وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت . وأما في وقت النوم فإنه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن ، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه ، وإذا ثبت هذا ظهر أن القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه (أحدها) أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك اليقظة (وثانيها) أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم (وثالثها) أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت فثبت أن الموت والنوم يشتركان في كون كل واحد منهما توفياً للنفس ، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة في صفات معينة ، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم ، وهو المراد من قوله (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ويحتمل أن يكون المراد بهذا أن الدليل يدل على أن الواجب على العاقل أن يعبد إلهاً موصوفاً بهذه القدرة وبهذه الحكمة

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

وأن لا يعبد الأوثان التي هي جمادات لا شعور لها ولا إدراك . واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا ، فقالوا نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين ، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال (أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون) وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها (والأول) باطل لأن هذه الجمادات وهي الأصنام لا تملك شيئاً ولا تعقل شيئاً فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها (والثاني) باطل لأن في يوم القيامة لا يملك أحد شيئاً ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله ، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذي يأذن في تلك الشفاعة ، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره ، وهذا هو المراد من قوله تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) ثم بين أنه لا ملك لأحد غير الله بقوله (له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون) ومنهم من تمسك في نفي الشفاعة مطلقاً بقوله تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) وهذا ضعيف لأنا نسلم أنه سبحانه ما لم يأذن في الشفاعة لم يقدر أحد على الشفاعة . فإن قيل قوله (الله يتوفى الأنفس حين موتها) فيه سؤال لأن هذا يدل على أن المتوفى هو الله فقط ، وتأكد هذا بقوله (الذي خلق الموت والحياة) وبقوله (ربي الذي يحيي ويميت) وبقوله (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) ثم إن الله تعالى قال في آية أخرى (قل يتوفاكم ملك الموت) وقال في آية ثالثة (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) وجوابه أن المتوفي في الحقيقة هو الله ، إلا أنه تعالى فوض في عالم الأسباب كل نوع من أنواع الأعمال إلى ملك من الملائكة ، ففوض قبض الأرواح إلى ملك الموت وهو رئيس وتحته أتباع وخدم فأضيف التوفي في هذه الآية إلى الله تعالى بالإضافة الحقيقية ، وفي الآية الثانية إلى ملك الموت لأنه هو الرئيس في هذا العمل وإلى سائر الملائكة لأنهم هم الأتباع لملك الموت والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾

بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون . وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين ، وهو أنك إذا ذكرت الله وحده تقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم ، وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات ، وأما ذكر الأصنام التي هي الجمادات الخسيسة ، فهو رأس الجهالات والحماقات ، فنفرتهم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الأصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحمق الشديد ، قال صاحب الكشاف ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه لأن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى يظهر أثر ذلك السرور في بشرة وجهه ويتهلل ، والاشمئزاز أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح إلى داخل القلب فيبقى في أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الأرضية ، ولما حكى عنهم هذا الأمر العجيب الذي تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بأمرين (أحدهما) أنه ذكر الدعاء العظيم ، فوصفه أولا بالقدرة التامة وهي قوله (قل اللهم فاطر السموات والأرض) وثانياً بالعلم الكامل وهو قوله تعالى عالم الغيب والشهادة ، وإنما قدم ذكر القدرة على ذكر العلم لأن العلم بكونه تعالى قادراً متقدم على العلم بكونه عالماً ، ولما ذكر هذا الدعاء قال (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) يعني أن نفرتهم عن التوحيد وفرحهم عند سماع الشرك أمر معلوم الفساد بديهة العقل ، ومع ذلك ، القوم قد أصروا عليه ، فلا يقدر أحد على إزالتهم عن هذا الاعتقاد الفاسد والمذهب الباطل إلا أنت . عن أبي سلمة قال : سألت عائشة بم كان يفتتح رسول الله ﷺ صلاته بالليل ؟ قالت كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك وإنك لتهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر في وعيدهم أشياء (أولها) أن هؤلاء

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

الكفار لو ملكوا كل ما في الأرض من الأموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد (وثانيها) قوله تعالى (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) أي ظهرت لهم أنواع من العقاب لم تكن في حسابهم، وكما أنه ﷺ قال في صفة الثواب في الجنة «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» فكذلك في العقاب حصل مثله وهو قوله (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) (وثالثها) قوله تعالى (وبدا لهم سيئات ما كسبوا) ومعناه ظهرت لهم آثار تلك السيئات التي اكتسبوها أي ظهرت لهم أنواع من العقاب آثار تلك السيئات التي اكتسبوها، ثم قال (وحاق بهم) من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزءون به، فنبه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم.

قوله تعالى: ﴿فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون، قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فأصابهم سيئات ما كسبوا، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين، أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

اعلم أن هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة، وذلك لأنهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفزعون إلى الله تعالى، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه، ثم إنه تعالى إذا خولهم النعمة، وهي إما السعة في المال أو العافية في النفس، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه وبسبب جهده وجده، فإن كان مالا قال إنما حصل بكسبي، وإن كان صحة قال إنما حصل ذلك بسبب علاج الأطباء، وهذا تناقض عظيم، لأنه كان في حال العجز والحاجة أضاف الكل

إلى الله ، وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله ، وأسنده إلى كسب نفسه ، وهذا تناقض قبيح ، فبين تعالى قبح طريقتهم فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة ، فقال (بل هي فتنة) يعني النعمة التي خولها هذا الكافر فتنة ، لأن عند حصولها يجب الشكر ، وعند زوالها يجب الصبر ، ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من أوتي النعمة ، كما يقال فتنت الذهب بالنار ، إذا عرضته على النار لتعرف خلاصته .

ثم قال تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) والمعنى ما قدمنا أن هذا التخويل إنما كان لأجل الاختبار . وبقي في الآية أبحاث نذكرها في معرض السؤال والجواب .

﴿ السؤال الأول ﴾ ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء هنا ، وعطف مثلها في أول السورة بالواو؟ (والجواب) أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء ، ثم ذكر بفاء التعقيب أنهم إذا وقعوا في الضر والبلاء ، التجأوا إلى الله تعالى وحده ، فكان الفعل الأول مناقضاً للفعل الثاني ، فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون في المناقضة الصريحة في الحال ، وأنه ليس بين الأول والثاني فاصل مع أن كل واحد منهما مناقض للثاني ، فهذا هو الفائدة في ذكر فاء التعقيب ههنا ، فأما الآية الأولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم في التناقض في الحال ، فلا جرم ذكر الله بحرف الواو لا بحرف الفاء .

﴿ السؤال الثاني ﴾ ما معنى التخويل؟ (الجواب) التخويل هو التفضل ، يعني نحن نتفضل عليه وهو يظن أنه إنما وجده بالاستحقاق .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما المراد من قوله (إنما أوتيته على علم)؟ (الجواب) يحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علم الله بكوني مستحقاً لذلك ، ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علمي بكوني مستحقاً له ، ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علم لأجل ذلك العلم قدرت على اكتسابه مثل أن يكون مريضاً فيعالج نفسه ، فيقول إنما وجدت الصحة لعلمي بكيفية العلاج ، وإنما وجدت المال لعلمي بكيفية الكسب .

﴿ السؤال الرابع ﴾ النعمة مؤنثة ، والضمير في قوله (أوتيته) عائد على النعمة ، فضمير التذكير كيف عاد إلى المؤنث ، ثم قال بعده (بل هي فتنة) فجعل الضمير مؤنثاً فما السبب فيه؟ (والجواب) أن التقدير حتى إذا خولناه شيئاً من النعمة ، فلفظ النعمة مؤنث ومعناه مذكر ، فلا جرم جاز الأمران .

قوله تعالى : ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ فما أغنى عنهم الضمير في قالها راجع إلى قوله (إنما أوتيته على علم عندي) لأنها كلمة أو جملة من القول (والذين من قبلهم) هم قارون وقومه حيث قال (إنما أوتيته على علم) عندي وقومه راضون به فكأنهم قالوها ، ويجوز أيضاً أن يكون في الأمم الخالية قائلون مثلها .

ثم قال تعالى (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى ما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل والقول الفاسد الذي اكتسبوه من عذاب الله شيئاً بل أصابهم سيئات ما كسبوا ، ولما بين في أولئك المتقدمين أنهم أصابهم سيئات ما كسبوا أى عذاب عقائدهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة قال (وما هم بمعجزين) أى لا يعجزونني في الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى (أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى : أو لم يعلموا أن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويقبض تارة أخرى ، وقوله (ويقدر) أى ويقتر ويضيق ، والدليل عليه أنا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه ، ولا بد له من سبب ، وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله ، لأنا نرى العاقل القادر في أشد الضيق ، ونرى الجاهل المريض الضعيف في أعظم السعة ، وليس ذلك أيضاً لأجل الطالع والأنجم والأفلاك لأن في الساعة التى ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر ، قد ولد فيه أيضاً عالم من الناس ، وعالم من الحيوانات غير الإنسان ، ويولد أيضاً في تلك الساعة عالم من النبات ، فلما شاهدنا حدوث هذه الأشياء الكثيرة في تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة والشقاوة ، علمنا أنه ليس المؤثر في السعادة والشقاوة هو الطالع ، ولما بطلت هذه الأقسام ، علمنا أن المؤثر فيه هو الله سبحانه ، وصح بهذا البرهان العقلي القاطع على صحة قوله تعالى (أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) .

قال الشاعر :

فلا السعد يقضى به المشترى ولا النحس يقضى علينا زحل
ولكنه حكم رب السما ء وقاضى القضاة تعالى وجل

تم بعونه تعالى الجزء السادس والعشرون من التفسير الكبير للامام الفخر الرازى رحمه الله تعالى ويتلوه الجزء السابع والعشرون وأوله تفسير قوله تعالى :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾

فهرست

الجزء السادس والعشرون من التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي

صفحة

٣ سورة فاطر
قوله تعالى (الحمد لله فاطر السموات) الآيات
٥ « « (إن الشيطان لكم عدو) «
٦ « « (أفمن زين له سوء عمله) الآية
« « (والله الذي أرسل الرياح) «
٧ « « (من كان يريد العزة) «
٩ « « (والله خلقكم من تراب) «
١٠ « « (وما يستوي البحران) «
١١ « « (يولج الليل في النهار) «
١٢ « « (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) «
١٣ « « (يا أيها الناس أنتم الفقراء) «
١٤ « « (إن يشأ يذهبكم) الآيات
١٥ « « (إنما تنذر الذين يخشون ربهم) الآية
١٦ « « (وما يستوي الأعمى والبصير) الآيات
١٨ « « (إن الله يسمع من يشاء) «
١٩ « « (ثم أخذت الذين كفروا) «
٢٠ « « (ومن الجبال جدد بيض وحمر) «
٢١ « « (إنما يخشى الله من عباده العلماء) الآية

صفحة

٢٢ قوله تعالى (إن الذين يتلون كتاب الله) الآيات
٢٤ « « (إن الله بعباده لخبير بصير) «
٢٦ « « (جنات عدن يدخلونها) الآية
٢٧ « « (وقالوا الحمد لله) الآيات
٢٨ « « (والذين كفروا لهم نار جهنم) الآية
٢٩ « « (وهم يصطرخون فيها) «
٣٠ « « (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) «
٣١ « « (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) الآيات
٣٢ « « (إن الله يمسك السموات والأرض) الآية
٣٣ « « (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) الآيات
٣٥ « « (فهل ينظرون إلا سنت الأولين) الآية
٣٦ « « (أولم يسيروا في الأرض) «
٣٧ « « (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) «

٣٩ سورة يس
« « (يس والقرآن الحكيم)
٤٠ « « (إنك لمن المرسلين)

صفحة

٤١ قوله تعالى (على صراط مستقيم)
٤٢ « « (تنزيل العزيز الرحيم) الآية
٤٣ « « (لقد حق القول) «
٤٤ « « (إنا جعلنا في أعناقهم) «
٤٥ « « (وجعلنا من بين أيديهم) «
٤٦ « « (وسواء عليهم أأنذرتهم) «
٤٧ « « (إنما تنذر من اتبع الذكر) «
٤٩ « « (إنا نحن نحيي الموتى) «
٥٠ « « (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية)
٥١ « « (إذ أرسلنا إليهم اثنين) الآية
٥٢ « « (قالوا ما أنتم إلا بشر) الآيات
٥٣ « « (وما علينا إلا البلاغ) «
٥٤ « « (وجاء من أقصى المدينة) الآية
٥٥ « « (اتبعوا من لا يسألكم أجرا) «
٥٧ « « (أأتخذ من دونه آلهة)
٥٨ « « (إن يردن الرحمن بضر) «
٥٩ « « (إني إذا لفي ضلال) الآيات
٦٠ « « (قيل ادخل الجنة) «
٦١ « « (وما أنزلنا على قومه) الآية
٦٣ « « (إن كانت إلا صيحة واحدة) الآيات
٦٤ « « (ألم يروا كم أهلكنا) «
٦٥ « « (وآية لهم الأرض الميتة) «
٦٨ « « (سبحان الذي خلق الأزواج) الآية
٦٩ « « (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) «

صفحة

٧١ قوله تعالى (والشمس تجري لمستقر لها) الآية
٧٢ « « (والقمر قدرناه منازل) «
٧٣ « « (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) «
٧٨ « « (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) «
٨١ « « (وخلقنا لهم من مثله) الآيات
٨٢ « « (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم) الآية
٨٣ « « (وما تأتيهم من آية) «
٨٤ « « (وإذا قيل لهم أنفقوا) «
٨٦ « « (ويقولون متى هذا الوعد) «
٨٧ « « (فلا يستطيعون توصية) الآيات
٨٩ « « (قالوا ياويلنا من بعثنا) الآية
٩٠ « « (إن كانت إلا صيحة) «
« « (فاليوم لا تظلم نفس) «
٩١ « « (إن أصحاب الجنة) الآيات
٩٤ « « (سلام قولا من رب) الآية
٩٥ « « (وامتازوا اليوم) «
٩٦ « « (ألم أعهد إليكم يابني آدم) «
٩٩ « « (وأن اعبدوني) «
١٠٠ « « (ولقد أضل منكم جبلا) الآيات
١٠١ « « (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) الآيات
١٠٢ « « (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) «
١٠٣ « « (ومن نعمره ننكسه في الخلق) الآية

صفحة

١٠٤ قوله تعالى (وما علمناه الشعر) الآية
١٠٥ « « (لينذر من كان حياً) «
١٠٦ « « (أولم يروا أنا خلقنا لهم) الآيات
١٠٧ « « (واتخذوا من دون الله آلهة) «
١٠٨ « « (وضرب لنا مثلا) «
١١٠ « « (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر) «
١١٢ « « (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء) الآية
١١٤ سورة الصافات
« « « (والصافات صفاً) الآيات
١١٩ « « (إنا زينا السماء الدنيا) «
١٢٤ « « (فاستفتهم أهم أشد خلقاً) «
١٢٦ « « (بل عجبت ويسخرون) «
١٢٧ « « (وإذا ذكروا لا يذكرون) «
١٢٩ « « (فإنما هي زجرة واحدة) «
١٣١ « « (احشروا الذين ظلموا) «
١٣٢ « « (وقفوهم إنهم مسئولون) «
١٣٦ « « (أولئك لهم رزق معلوم) «
١٣٨ « « (قال قائل منهم) «
١٤٠ « « (أذلك خير نزلا) «
١٤٤ « « (ولقد نادانا نوح) «
١٤٥ « « (وإن من شيعته لإبراهيم) «
١٤٩ « « (قال أتعبدون ما تنحتون) «
١٥٢ « « (فلما بلغ معه السعي قال) «
١٥٩ « « (ولقد مننا على موسى) «
١٦٠ « « (وإن إلياس) «
١٦٢ « « (وإن لوطاً) «

صفحة

١٦٣ قوله تعالى (وإن يونس) الآيات
١٦٦ « « (فاستفتهم ألربك البنات) «
١٦٩ « « (فإنكم وما تعبدون) «
١٧١ « « (ولقد سبقت كلمتنا) «
١٧٤ سورة (ص والقرآن) «
١٧٦ قوله تعالى (وعجبوا أن جاءهم ذكر) «
١٧٩ « « (أأنزل عليه الذكر) «
١٨١ « « (كذبت قبلهم قوم نوح) «
١٨٣ « « (وقالوا ربنا عجل لنا) «
١٨٥ « « (إنا سخرنا الجبال معه) الآية
١٨٦ « « (والطير محشورة) «
١٨٧ « « (وآتيناه الحكمة) «
١٨٨ « « (وهل أتاك نبأ الخصم) الآيات
١٩٩ « « (يا داود إنا جعلناك خليفة) «
٢٠٣ « « (ووهبنا لداود سليمان) «
٢٠٧ « « (ولقد فتنا سليمان) «
٢١١ « « (واذكر عبدنا أيوب) «
٢١٦ « « (واذكر عبادنا إبراهيم) «
٢١٧ « « (هذا ذكر وإن للمتقين) «
٢٢٠ « « (هذا وإن للطاغين) «
٢٢٣ « « (قل إنما أنا منذر) «
٢٢٦ « « (إذ قال ربك للملائكة) «
٢٢٥ « « (قل ما أسألكم عليه من أجر) «
٢٢٧ تفسير سورة الزمر
قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله) «
٢٤٣ « « (خلق السموات والأرض) «
٢٤٨ « « (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه) «

صفحة

٢٥١ قوله تعالى (قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم) الآيات

٢٥٢ » » (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة)

٢٥٣ ماهية الصبر

تسمية المنافع التي وعد الله بها عبادة بالأجر

وصف الأجر بأنه بغير حساب

٢٥٤ صفات الثواب الثلاث

أمر الرسول بأن يذكر للناس (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين)

الأمر بعبادة الله

بيان أنه ليس من الملوك الجبابرة

٢٥٥ التنبيه على أنه رسول الله

المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف منه)

٢٥٦ بيان الحياة وبيان الدليل وما هو ؟

٢٥٧ قوله تعالى (ذلك الذي يخوف الله به عباده ، والذين اجتنبوا الطاغوت)

٢٥٨ بيان المراد من الطاغوت

٢٥٩ حوادث العالم الأعلى والأسفل

٢٦٠ قوله تعالى (لهم البشرى)

» » (فبشر عباد الذين يستمعون)

٢٦١ وجوب النظر والاستدلال

الطريق إلى تصحيح المذاهب

صفحة

٢٦١ ما يتعلق بأبواب التكاليف

٢٦٢ قوله تعالى (أولئك الذين هداهم الله)

» » (أفمن حق عليه كلمة العذاب)

٢٦٣ الاحتجاج في مسألة الهدى والضلال

احتج القاضي بأن النبي لا يشفع لأهل الكبائر

قوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم)

» » (تجري من تحتها الأنهار)

٢٦٤ » » (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء)

٢٦٥ » » (أفمن شرح الله صدره للإسلام)

تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على الطاعة

٢٦٦ قوله تعالى (فويل للقاسية قلوبهم)

» » (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

٢٦٧ » » (الله نزل أحسن الحديث)

٢٦٨ حسن الحديث باللفظ والمعنى

الإيمان بالله ، صفات القرآن

٢٦٩ الأفضل أرواح أو أجسام

أحوال العالم الأعلى

شرح أحوال العالم الأسفل

٢٧٠ شرح أحكام الله وتكاليفه

علم الأخـــلاق

التكاليف الحاصلة في أعمال الجوارح

علم الفقه ، معرفة أسماء الله

بيان الأحوال المعتبرة في الإيمان

الإقرار بالملائكة

صفحة

٢٧١ معرفة الكتب والقرآن معرفة الرسل
معرفة المعاد والبعث والإثابة
كون القرآن متشابها
٢٧٢ كون القرآن مثاني
كون القلوب تقشعر منه
معنى القشعريرة
٢٧٣ معنى لين الجلود والقلوب
٢٧٤ لم قال لين ذكر الله ، ولم يقل إلى رحمة الله ؟
لم قال في جانب الخوف قشعريرة الجلود ، وفي جانب الرجاء لين الجلود والقلوب ؟
قوله تعالى (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء)
٢٧٤ قوله تعالى (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة)
٢٧٥ « « « (وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون)
« « (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)
الاحتجاج على حدوث القرآن بهذه الآية
٢٧٦ وصف القرآن بكونه قرآنا عربيا
بيان الفرق بين يتذكرون ويتقون
قوله تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون)
٢٧٧ معنى متشاكسون

صفحة

٢٧٧ معنى قوله تعالى (سلما لرجل)
تقدير الكلام اضرب مثلا لقومك
٢٧٨ قوله تعالى (هل يستويان مثلا)
« « (إنك ميت وإنهم ميتون)
« « (أليس في جهنم مثوى للكافرين)
قوله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به) الآيات
٢٧٩ بيان المراد من (الذي جاء بالصدق) الخ
أركان الرسالة أربعة
٢٨٠ قوله تعالى (أولئك هم المتقون)
« « (لهم ما يشاءون عند ربهم)
« « (ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون)
٢٨١ قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده)
« « (ومن يضلل الله فما له من هاد)
٢٨٢ « « « (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)
٢٨٢ المشركون يقرون بوجود الله
الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر
٢٨٢ قوله تعالى (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله) .
« « (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون)
« « (هل هن كاشفات ضره)

صفحة

٢٨٣ قوله تعالى (إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق)
« « (وما أنت عليهم بوكيل)
« « (الله يتوفى الأنفس حين موتها)
بيان النفس الإنسانية
قوله تعالى (إن فى ذلك لآيات)
« « (أم اتخذوا من دون الله شفعاء)
٢٨٤ « « (قل لله الشفاعة جميعاً)
٢٨٥ « « (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة)
٢٨٦ قوله تعالى (ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه)

صفحة

٢٨٧ قوله تعالى (فإذا مس الإنسان ضر)
٢٨٨ « « (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)
بيان معنى التخويل
المراد بقوله (إنما أوتيته على علم عندى)
قوله تعالى (قد قالها الذين من قبلهم)
٢٨٩ « « (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون)
« « (أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)

(تم الفهرست)